عُمدة التفسير

عن الحافظ ابن كثير

مختصر تفسير القرآن العظيم

للعلامة المحقق

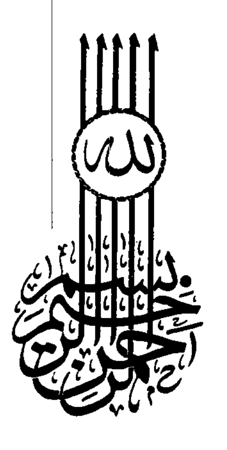
الشيخ أحمد شاكر

أعده

أنور الباز

الجزء الثالث

دار الوفاء


بسم الله الرحمن الرحيم

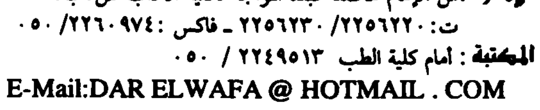
عُمدة التفسير

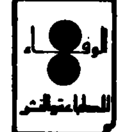
عن الحافظ ابن كثير

مختصر تفسير القرآن العظيم

الطبعة الثانية

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة
الإدارة :ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس :٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠
E-Mail:DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM



تفسير سورة لقمان

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

تقدم فى أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ،وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل فى اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى:على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ﴿ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء،وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الزمر:٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما روى عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ـ فقال عبد الله:الغناء ،والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فى الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا، ولكن شراؤه استحبابه ، بحَسْب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق ، وما يضر على

ما ينفع. وقيل: عنى بقوله: ﴿ يشتري لهو الحديث ﴾: اشتراء المغنيات من الجوارى. وقال الضحاك فى قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ يعنى: الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله.

وقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ﴿ ويتخذها هزوا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا، يستهزئ بها وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى :هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرَبَ له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

وقوله : ﴿ وعد الله حقا ﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شىء ﴿ وهو العزيز ﴾ ، الذى قد قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال: ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية ﴿ وألقى

﴿ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ يعني : الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي : لئلا تميد بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : من كل زوج من النبات كريم ، أي : حسن المنظر . وقال الشعبي : والناس ـ أيضاً ـ من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أي : هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛ولهذا قال : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : جهل وعمى ﴿ مُبِينٍ ﴾ أي : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

اختلف السلف في لقمان : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني . وعن ابن عباس قال:كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً. وعن عبد الله بن الزبير، قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة . مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث وَكِيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله أعلم . والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أي: الفقه في الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفهم والعلم والتعبير ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أي : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه.وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : غني عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغني عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ـ وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له: ﴿ **إنَّ الشرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ** ﴾ أى: هو أعظم الظلم. روى البخارى عن عبد الله [بن مسعود] قال : لما نزلت : ﴿ **الَّذينَ آمنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْم** ﴾ [الأنعام:٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينا لم يَلْبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ** ﴾ » . ورواه مسلم من حديث الأعمش، به [١] .

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البّر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوَالدَيْنِ إحْسَانًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال ههنا : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بوَالِدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْن** ﴾ قال مجاهد : مشقة وَهْن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد . وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف .

وقوله : ﴿ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْن** ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَة** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف : ١٥] . وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ولهذا قال: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِير** ﴾ أى : فإنى سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** ﴾ أى : إن حَرَصَا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، أى : محسناً إليهما ﴿ **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** ﴾ يعنى : المؤمنين ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون**﴾ . روى الطبرانى فى كتاب العشرة : أن سعد بن مالك

---

(١) البخارى (٤٧٧٦) ومسلم (١٢٤ / ١٩٧) .

قال : أنزلت فيَّ هذه الآية : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلا براً بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لَتَدعَنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فَتُعَيَّر بى، فيقال : «ياقاتل أمه ». فقلت: لا تفعلى يا أمَه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرَجت نَفْساً نَفْساً،ما تركت دينى هذا لشىء ،فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى .فأكلت .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صمَّاء ،أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض ، فإن الله يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أى : لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

ثم قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، لابد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث: « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من

المخيلَة ، والمخيلة لا يحبها الله » . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقرَ عبادَ الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ : لا تكلَّم وأنت معرض . وكذا رُوى عن مجاهد، وعكرِمة ، ويزيد بن الأصم، وأبى الجوزاء، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم. وقال إبراهيم النَّخعى: يعنى بذلك : التشديق فى الكلام . والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلفَت أعناقُها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ اى: جذلا متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب فى نفسه ، فخور : اى على غيره .

وقوله : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ اى : امش مشياً مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ اى : لا تبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه » (١) . وروى النسائى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً ». وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه (٢) وفى بعض الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة . روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » (٣) .

وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار » (٤) .

---

(١) مسلم (١٦٢٠ / ٢) .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٣٩١) والبخارى (٣٣٠١) ومسلم (٢٧٢٩ / ٨٢) وأبو داود (٥١٠٢) .

(٣) المسند (٥٦٠٥ ، ٥٦٠٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤١١) وقال : « هذا متن شاهده إسناده صحيح » ووافقه الذهبى .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم فى الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما فى السموات من نجوم يستضيؤون بها فى ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم فى الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل فى الله ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل ، ومجادلته فى ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أى: لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أى: على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

ربع

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أى: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: فى عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أى: فقد أخذ موثقا من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزيهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية. ثم قال :﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى: فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى: نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالقُ السموات والأرض، وحدهَ لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى :إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال :﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى: الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما، وجعل البحر مداداً ومَده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونَفدَ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مَدَدا . وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر. وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض إقلاما ، وجعل البحر مدادا، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام.وقال قتادة: قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية، يقول: لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لا نكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شىء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى : عزيز قد عزَ كلَّ شىء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه . وقوله : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتَوكده ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣، ١٤]. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ

﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون فى الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحج : ٧٠]. ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرَّة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أى: العلى: الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شىء ، فكل شىء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أى : من قدرته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أى: كالجبال والغمام ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ،

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو: المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْر: أتم الغدر وأبلغه ﴿كَفُورٍ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه،والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه. ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدهُ ويمنيه ، وليس من ذلك شىء، بل كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها،فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وكذلك إنزال الغيث لايعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله

من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخراها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان، لاعلم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب . روى الإمام أحمد عن أبى بَرَيدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجوه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . انفرد بإخراجه البخارى (٢) . ورواه من وجه آخر عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ ، انـفرد به أيضا (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شىء غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

وروى البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » .قال : يارسول الله ، ما الإسلام ؟ قال: « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان».فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .قال : يا رسول الله، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ ربَّتَهَا ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العُرَاة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ » الآية ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه علَيَّ » .فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم» (٥) . ورواه البخارى ومسلم (٦) .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله،

---

(١) المسند (٥ / ٣٥٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٩٣) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٢) المسند (٤٧٦٦) والبخارى (١٠٣٥) . (٣) البخارى (٤٦٩٧) .
(٤) المسند (٣٦٥٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٥) البخارى (٤٧٧٧) . (٦) البخارى (٥٠) ومسلم (٩ / ٥) .

ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » .قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » .قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ،والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد آمنت » . قال: يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ: « الإحسان: أن تعمل لله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك ». قال: يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمس لا يعلمهن إلا هو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ ». قال : أجل، يا رسول الله، فحدثنى . قال رسول الله ﷺ: « إذا رأيت الأمَة ولدت ربَّتَها ـ أو : ربها ـ ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون فى البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال : « العرب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه: « اخرُجى إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم، أأدخل ؟ » قال: فسَمعتُه يقول ذلك، فقلت: السلام عليكم، أأدخل ؟ فأذن، فدخلت، فقلت: بم أتيتنا به ؟ قال: « لم آتكم إلا بخير، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تَدَعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شىء لا تعلمه ؟ قال : « قد عَلم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٢). وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن مَلَكا مقرباً ، ولا نبيا مرسلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، فى أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلا أو نهاراً ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر، ولا تدرى يا بن

---

(١) المسند (٢٩٢٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) المسند (٥ / ٣٦٨) .

آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا، لعلك المصاب غدا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر، أو سهل أو جبل ؟ عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ: « ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » [١] .

وروى الإمام أحمد عن أبى عزة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » . وأخرجه الترمذى وقال : صحيح [٢] . وروى ابن ماجه عن عمر بن على [٣] مرفوعا: « إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثَبَتْه إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أثره، قبضه الله عز وجل، فتقول الأرض يوم القيامة: رب ، هذا ما أودعتنى » [٤].

---

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ١٧٨) (٤٦١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٩٩) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٣ / ٤٢٩) والترمذى (٢١٤٧) .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « عمر بن عكرمة » والصواب ما أثبتناه من ابن ماجه .

(٤) ابن ماجه (٤٢٦٣) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » وصححه الألبانى .

تفسير سورة السجدة
وهى مكية

روى البخارى عن أبى هريرة ،رضى الله عنه ، قال:كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ الٓمٓ . تنزيل ﴾ السجدة و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ الٓمٓ . تَنزِيل ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تفرد به أحمد (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى: لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ بل يقولون ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ أى: اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى: يتبعون الحق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾ أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شىء ، المدبر لكل شىء ، القادر على كل شىء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ـ تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ،أو وزير أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١) البخارى (٨٩١) ومسلم (٨٨٠ / ٦٥) .
(٢) المسند (٣ / ٣٤٠) والحديث رواه الترمذى (٢٨٩٢) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى والسلسلة الصحيحة (٥٨٥).

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى: يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ،ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى: المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها هو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى قد عزّ كلَّ شىء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .فهو عزيز فى رحمته ،رحيم فى عزته ، وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرًا أنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها .وقال مالك. عن زيد بن أسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قال: أحسن خلق كل شىء كأنه جعله من المقدم والمؤخر .

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾، يعنى: خلق أبا البشر آدم من طين﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعنى: آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ يعنى: العقول ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى: بهذه القوى رزقكموها اللّه عز وجل. فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل.

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ربع

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض وذهبت، ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى :أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال ؟! يستبعدون ذلك ،وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدرتهم العاجزة ،لا بالنسبة إلى قُدْرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ،الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؛

ولهذا قال: ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

ثم قال: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ : الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان. وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حُويت له الأرض فجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء . وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه .

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدى الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى :من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أى: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨] . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أى: إلى الدار الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام :٢٧ ـ ٢٩]. وقال ههنا: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : ٩٩] . ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى: من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك. ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناسى؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شىء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجاثية : ٣٤] .

وقوله: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا . إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وِفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

سجدة

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى: إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى: استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ أى : عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ،قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين ﴾ [غافر: ٦٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعنى بذلك : قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُم ﴾، يعنى بذلك : قيام الليل . وعن أنس ،وعكرمة ، ،ومحمد بن المنكدر ،وأبى حازم ، وقتادة :هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً :هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ،وصلاة الغداة فى جماعة. ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رَوَاحة رضى الله عنه:

وفينَـا رسـُولُ الله يتْلُو كتَابَـه ... إذا انشـقّ مَعـْرُوفٌ منْ الصُّبْح سـاطــعُ
أرانـا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فقُلوبُنـا ... بـه مُـوقـنـاتٌ أنَّ مــــا قـال واقــع
يبيتُ يُجـافى جنبَـهُ عَـنْ فراشـه ... إذا اسـتـثْقلَتْ بالْمُشركـين المضاجــعُ

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ قال: « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه ، ومن بين أهله وحيه (١) إلى صلاته ، [فيقول ربنا : أيا ملائكتى ، انظروا إلى عبدى، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] (٢) رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من

(١) فى المطبوعة : « وحبه » بالباء الموحدة ، وغير منقوطة بالمخطوطة والمثبت من المسند .
(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المسند والمطبوعة .

الفرار، وما له فى الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى. فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه ». وهكذا رواه أبو داود فى « الجهاد »، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت: يا نبى الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال: « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة،وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان، وتحج البيت » . ثم قال: « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ».ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾. ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت: بلى ، يا رسول الله . فقال: « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » . ثم قال: « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت: بلى ، يا نبى الله . فأخذ بلسانه ثم قال: « كُفَّ عليك هذا » فقلت:يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به. فقال: « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى: حسن صحيح (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ أى: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد، لَمَّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقا؛ فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر ، على قلب بشر . روى البخارى : قوله: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُن ﴾ . ورواه مسلم والترمذى . وقال الترمذى : حسن صحيح (٣) . ثم روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْراً منْ بَله ما أُطْلِعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ . قرأ أبو هريرة : « قُرَّات أَعْيُنٍ » . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤).

(١) المسند (٣٩٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٥٢٣٦) .
(٢) المسند (٥ / ٢٣١) والترمذى (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الألبانى .
(٣) البخارى (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤ / ٢) والترمذى (٣١٩٧) .
(٤) البخارى (٤٧٨٠) .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . أخرجاه فى الصحيحين . قال ورواه الترمذى بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (١). وعن أبى هريرة ، قال حماد: أحسبه عن النبى ﷺ قال: « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر ». رواه مسلم (٢). وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ،حتى انتهى، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر »، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَعْمَلُون ﴾ . وأخرجه مسلم (٣) . وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى، عليه السلام ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ،وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا ؟ فيقول:رضيت رب. فيقول:لك ذلك،ومثله ، ومثله، ومثله ،ومثله، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول :هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك فيقول: رضيت رب . قال: رب، فأعلاهم منزلة ؟ قال: أولئك الذين أردتُ ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلن تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ . ورواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح ، قال: ورواه بعضهم ولم يرفعه ،والمرفوع أصح (٤) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقا، أى: خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرُسُله إليه،كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(١) المسند (٢ / ٣١٣) والبخارى (٨٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤ / ٤) والترمذى (٣٢٩٢) .
(٢) مسلم (٢٨٣٦ / ٢١) .
(٣) المسند (٥ / ٣٣٤) ومسلم (٢٨٢٥ / ٥) .
(٤) مسلم (١٨٩ / ٢٩٣) والترمذى (٣١٩٨) .

[الجاثية :٢١] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص :٢٨] ، وقال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى: ههنا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ أى : عند اللّه يوم القيامة . وقد ذكر عطاء بن يسار والسُّدِّى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب، وعقبة بن أبى مُعَيط؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى: صدقت قلوبهم بآيات اللّه وعملوا بمقتضاها ، وهى الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نُزُلاً ﴾ أى: ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [الحج : ٢٢] . قال الفضيل بن عياض : واللّه إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا . وقوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال: ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلى اللّه به عباده ليتوبوا إليه. وروى مثله عن أبى بن كعب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال: البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة: يعنى به عذاب القبر .

وروى عبد اللّه بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب فى هذه الآية : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ قال: المصيبات والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام . ورواه مسلم موقوفا نحوه (١) وعند البخارى عن ابن مسعود، نحوه (٢) . وقال عبد اللّه بن مسعود أيضا، فى رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر. وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم . قال السُّدِّى وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غَرموا، ومنهم من جمع له الأمران. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى: لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ،كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم الإعراض عن ذكر اللّه ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوز أشد العَوَز ، وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) المسند (٥ / ١٢٨) ومسلم (٢٧٩٩ / ٤٢) . (٢) البخارى (٤٨٢٠) .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء . ثم روى عن أبى العالية الرّياحى قال: حدثنى ابن عم نبيكم ـ يعنى ابن عباس ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ: « أريت ليلة أسرى بى موسى بن عمران ،رجلا آدم طوالا جَعْداً ، كأنه من رجال شَنُوءة . ورأيت عيسى رجلا موبوع الخلق ،إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن اللّه إياه » ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ : أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به [١] .

وروى الطبرانى عن ابن عباس،عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال:جُعل موسى هُدى لبنى إسرائيل ، وفى قوله: ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ قال: من لقاء موسى ربه عز وجل [٢].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى: الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كما قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء:٢].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أى: لما كانوا صابرين على أوامر اللّه وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر اللّه ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحرّفوا وأوّلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً ؛ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح . قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغى للرجل أن يكون إماماً يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا . قال وكيع : قال سفيان: لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وقال ابن بنت الشافعى: قرأ أبى على عمى ـ أو عمى على أبى ـ سئل سفيان عن قول على: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ،ألم تسمع قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ ﴾ الآية [الجاثية:١٦ ، ١٧]، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : من الاعتقادات والأعمال .

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢ / ١٦٠) (١٢٧٥٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم :٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف:٩٢] ، كما قال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢] ، وقال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي: إن فى ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى: أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السيح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضى المحتاجة إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ ، وهى التى لانبات فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٨] ، أى : يبساً لا تنبت شيئاً .

وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هى بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها ،ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر،وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً .

ولهذا قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤ـ٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾. وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هى التى لا

تُمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا ، إلا ما يأتيها من السيول. وعن ابن عباس ، ومجاهد : هى أرض اليمن. وقال الحسن : هى قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّى، وابن زيد ، الأرض الجرز : التى لا نبات فيها وهى مغبرة . قلت: وهذا كقوله: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ﴾ أى: متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا، وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا وفى الأخرى ﴿ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ :٢٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال: ١٩] . ثم قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تفسير سورة الأحزاب

وهى مدنية

روى الإمام أحمد عن زرّ قال : قال لى أُبَىّ بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثًا وسبعين آية . فقال : قط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالاً من الله ، والله عليم [١] حكيم » . ورواه النسائى [٢]. وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) ﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى . وقد قال طَلْق بن حبيب : التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ،فإنه عليم بعواقب الأمور،حكيم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى : وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾

---

(١) فى المطبوعة : « عزيز حكيم » ، وما أثبتناه من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٥ / ١٣٢) والنسائى فى الكبرى (٧١٥٠) .

يقول تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوى أمرًا معروفًا حسيًا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله : أنت عَلَى كظهر أمي أمًا له ، كذلك لا يصير الدَّعيّ ولدًا للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابنا له ، فقال : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ، كقوله : ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ الآية [المجادلة :٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفى ؛ فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى النبى ﷺ ، كان النبى ﷺ قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له : « زيد ابن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، كما قال تعالى فى أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال ههنا : ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لايقتضى أن يكون ابنا حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أى : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أى : الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش ، كان يقال له: « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر. فأنزل الله هذه الآية ردًا عليه . هكذا روى العَوْفى عن ابن عباس . وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن، وقتادة ، واختاره ابن جرير. وروى الإمام أحمد عن ابن أبى ظَبْيَان قال : قلت لابن عباس:أرأيت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يومًا يصلى، فخَطَر خَطْرَة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين ، قلبًا معكم وقلبًا معهم ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ . وهكذا رواه الترمذى ثم قال : وهذا حديث حسن (١) .

وقال الزهرى ، فى قوله: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة، ضُرب له مثل، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك . وكذا قال مجاهد ، وقتادة، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم . وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط . روى البخارى عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيدًا بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ . وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى(٢) .

---

(١) المسند (٢٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٣١٩٩) .

(٢) البخارى (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥ / ٦٢) والترمذى (٣٢٠٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٩٧) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة: يا رسول الله ، كنا ندعو سالما ابنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل عَلَىّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئًا فقال ﷺ : «أرضعيه تحرمى عليه » الحديث [١] . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازًا عن زوجة الدعىّ ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة ، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعًا ، بقوله ، عليه السلام ، فى الصحيحين : « حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » [٢] . فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى عن ابن عباس ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع ، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول: « أُبَيْنِىّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس » [٣] . قال أبو عُبَيدة وغيره : « أُبَيْنِىّ » : تصغير ابنى . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ فى شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضًا ففى صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنى » ، ورواه أبو داود والترمذى [٤] .

وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ : أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم ،إن عرفوا ،فإن لم يعرفوا آباءهم ،فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، أى : عوضًا عما فاتهم من النسب؛ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة تنادى: يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة: دونَك ابنة عَمِّك فاحتملتها . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيّهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمي ـ وقال زيد: ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب: ابنة عمى، وخالتها تحتى ـ يعنى أسماء بنت عميس ـ فقضى النبى ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » . وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى » . وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» [٥] . ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها: أنه، عليه الصلاة والسلام، حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

---

(١) مسلم (١٤٥٣ / ٢٦) .
(٢) البخارى (٤٧٩٦) ومسلم (١٤٤٥ / ٣) .
(٣) المسند (١/ ٣١١) وأبو داود (١٩٤٠) وابن ماجه (٣٠٢٥) وصححه الألبانى .
(٤) مسلم (٢١٥١ / ٣١) وأبو داود (٤٩٦٤) والترمذى (٤٨٣١) .
(٥) البخارى (٢٦٩٩) .

وقد جاء في الحديث: « من ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه كفر » (١). وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد ، في التبرى من النسب المعلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُم ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ أى: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ؛فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه فى قوله آمرًا عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة :٢٨٦] . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال:« قال الله : قد فعلت » (٢) . وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ:« إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران ،وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر » (٣) . وقال هاهنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أى : وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ .

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦) ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مُقدَّمًا على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]. وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » (٤). وفى الصحيح أيضًا أن عمر قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى . فقال: « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » : فقال: يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى . فقال ﷺ : « الآن يا عمر » (٥) .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ . وروى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبَته مَن كانوا. وإن ترك دَيْنًا أو ضَياعًا، فليأتنى فأنا مولاه » . تفرد به البخارى (٦) .

(١) البخارى (٣٥٠٨) .
(٢) مسلم (١٢٦ / ٢٠٠) .
(٣) البخارى (٧٣٥٢) .
(٤) البخارى (١٤) .
(٥) البخارى (١٦٣٢) .
(٦) البخارى (٤٧٨١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى :فى الحرمة والاحترام،والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

وقوله: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى: فى حكم الله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أى : القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه ، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ أى : ذهب الميراث ، وبقى النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى : هذا الحكم ، وهو أن أولى الأحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول ، الذى لا يبدل ، ولا يغير .قاله مجاهد وغير واحد . وإن كان تعالى : قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله ،وإبلاغ رسالته ،والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضًا فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم،ومن بينهما على هذا الترتيب . فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها ،كما قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه ـ صلوات الله عليه ـ ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم .

وقوله : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل. وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : من أممهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : موجعًا ، فنحن نشهد أن الرسل قد بَلَّغُوا رسالات ربهم،ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلى ، الذى لا

لبس فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، وإن كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين ، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بنى النضير ، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبى الْحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش ، وألّبوهم على حرب النبى ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة . فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسى ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفَر ، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل :سبعمائة ، وأسندوا ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة، وكانت بنو قريظة ـ وهم طائفة من اليهود ـ لهم حصن شرقى المدينة ، ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَىّ بن أخطب النَّضَرِى اليهودى ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾. ومكثوا محاصرين للنبى ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامرى ـ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ـ ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه ، فلم يبرز إليه أحد ، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على، رضى الله عنه ، فكان علامة على

النصر . ثم أرسل الله ، عز وجل ، على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ . قال مجاهد: وهى الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »[1] .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾: وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلىَّ . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله ، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا بن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة : يابن أخى، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوِيًا من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ ـ يشرط له النبى ﷺ أنه يرجع ـ أدخله الله الجنة » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِيًا من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِيًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحد ، دعانى رسول الله ﷺ . فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تُحْدِثَنّ شيئا حتى تأتينا ». قال : فذهبت فدخلت فى القوم،والريح وجنود الله، عز وجل، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِرّ لهم قِدْرًا ولا نارًا ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش، لينظر كل امرئ مَنْ جليسه. قال حذيفة :فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ ،وأخلفتنا بنو قُرَيظة ، وبَلَغَنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح الذى ترون . والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تَقُوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مُرْتَحِل ، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقَالَه إلا هو قائم . ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئًا حتى تأتينى » ثم شئتُ ، لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْط لبعض نسائه مُرَحل ، فلما رآنى أدخلنى بين رجليه ، وطرح على طرف المِرْط ، ثم ركع ، وسجد وإنى لفيه ، فلما

---

(١) البخارى (٣٢٠٥) .

سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غَطَفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم . وقد رواه مسلم فى صحيحه عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ ، قاتلتُ معه وأبليتُ . فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك ؟ لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتى بخبر القوم، يكون معى يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة، قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال : « ائتنى بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهم علَىَّ ». قال: فمضيت كأنما أمشى فى حَمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يَصْلى ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كَبِد قوسى ، وأردت أن أرميَه ، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله ﷺ : « لا تَذْعَرْهم علَىَّ »، ولو رَمَيْته لأصبته. قال: فرجعت كأنما أمشى فى حَمّام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابنى البرد حين فَرَغتُ وقُررْتُ فأخبرتُ رسول الله ﷺ ، وألبسنى من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلى فيها، فلم أزل نائما حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان » (١) .

وقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بنو قريظة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى: من شدة الخوف والفزع ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ . قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك. وقال ابن إسحاق فى قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال مُعَتِّب بن قشير ـ أخو بنى عمرو بن عوف: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن فى قوله : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتُلوا واختُبروا وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق ، فنجم نفاقه ،

---

(١) مسلم (١٧٨٨ / ٩٩) .

والذى فى قلبه شبهة أو حسكة ، لضَعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعنى: المدينة، كما جاء فى الصحيح: « أريت [فى المنام] دارَ هجرتكم، أرض بين حرّتين فذهب وَهْلى أنها هَجَر، فإذا هى يثرب » ، وفى لفظ : « المدينة » (١) .

وقوله: ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أى: هاهنا، يعنون عند النبى ﷺ فى مقام المرابطة ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى: إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ قال ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السَّرَق. وكذا قال غير واحد. وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قَيظىّ، يعنى : اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ أى : هَرَبًا من الزحف .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ : أنهم لو دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقُطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهى الدخول فى الكفر، لكفروا سريعًا. وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذم لهم فى غاية الذم.

ثم قال تعالى: يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ أى: وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد ، لابد من ذلك . ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرّة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى : بعد هَرَبكم وفراركم ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : يمنعكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

---

(١) البخارى (٧٠٣٥) وما بين المعقوفتين منه ومن المطبوعة ، وهو ليس فى المخطوطة .

ربع

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ﴿ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ ﴾ أى: أصحابهم وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى: إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظِّلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أى: فإذا كان الأمن ، تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا ، وادَّعَوْا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون فى ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ أى : استقبلوكم . وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ، وأخذله للحق . وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هينا عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة إليهم ﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ أى : ويَوَدّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن أخبارك ، وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ؛ ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره

الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم فى الدنيا والآخرة ، فقال: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى فى « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] . أى : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾: دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص .

ومعنى قوله: ﴿ وَمَا زَادَهُم ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلاَّ إِيمَانًا ﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أى: انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ، و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال بعضهم: أجله. وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى: وما غَيَّروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

روى البخارى عن زيد بن ثابت ، قال : لما نسخنا الصُحُف ، فَقَدْتُ آيةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصارى، الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وأخرجه أحمد ، والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : « حسن صحيح » (١) .

وروى البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) ، ولكن له

---

(١) البخارى (٤٧٨٤) ، والمسند (٥/١٨٨) ، والترمذى (٣١٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (١/ ١١٤) .

(٢) البخارى (٤٧٨٣) .

شواهد من طرق أخر. روى الإمام أحمد عن أنس قال : عمى أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع .قال : فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (١) أحد، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين ؟ واهًا لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فَوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته ـ عمتى الرُّبَيِّع ابنة النضر ـ : فما عرفتُ أخى إلا ببنانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ . قال : فكانوا يُرَوْن أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه . ورواه مسلم والترمذى والنسائى .

وروى ابن أبى حاتم عن أنس أن عمه ـ يعنى : أنس بن النضر ـ غاب عن قتال بَدر ، فقال: غُيِّبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين ، لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال :اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى : أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء ـ يعنى : المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعنى : ابن معاذ ـ دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع .قال:فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف،وطَعْنةَ رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفى أصحابه نزلت : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ . وأخرجه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حسن (٢) . ولم يذكر نزول الآية (٣) . قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال : عهده ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قال : يوما فيه القتال فيصدق فى اللقاء. وقال الحسن: ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعنى: موته على الصدق والوفاء ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ،وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ،

---

(١) المسند (٣/ ١٩٣) ، ومسلم (١٩٠٣/ ١٤٨) ، والترمذى (٣٢٠٠) .

وفى المخطوطة : « فشهد مع رسول الله ﷺ أحد » هكذا بدون نصب « أحد » مما يدلل على سقوط « يوم» منها ، والذى أثبتناه من البخارى والمطبوعة .

(٢) الترمذى (٣٢٠١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٠٣) وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٤٠٤٨) .

مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾: وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه،وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد، ولكن قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوَى ، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم ، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيرًا لا فى الدنيا ، مما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا فى الآخرة بما تحملوه من الآثام فى مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة ، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن هَمّ بشيء وصدَق هَمَّه بفعله ، فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده،ونصر عبده،وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة (١) . وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وفى قوله : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم . قال ابن إسحاق : لما

(١) البخارى (٤١١٤) ، ومسلم (٧٧/٢٧٢٤) .
(٢) البخارى (٢٩٣٣) ، ومسلم (٢١/١٧٤٢) .

انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة . وهذا حديث صحيح، كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صُرَدَ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: « الآن نغزوهم ولا يغزونا » . وهكذا رواه البخاري (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أي: بحوله وقوته، ردهم خائبين ، لم ينالوا خيرًا، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧ ﴾

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَيّ بن أخطب النَّضَري ـ لعنه الله ـ دخل حصنهم ، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدًا وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتني بذُلِّ الدهر . ويحك يا حيي ، إنك مشؤوم ، فدعنا منك . فلم يزل يفتل في الذِّروة والغَارب حتى أجابه، واشترط له حُيي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما نَقَضت قريظةُ ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جدًا ، فلما أيد لله ونَصَر ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدًا منصورًا ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجرًا بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة ديباج ، فقال: أوَضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة . فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » . فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة . فلم يُعنِّف واحدًا من الفريقين. وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسًا وعشرين

---

(١) المسند (٤/ ٢٦٢) ، والبخاري (٤١٠٩) .

ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك، كما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعدًا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك، ولم يعلموا أن سعدًا ، رضى الله عنه، كان قد أصابه سهم فى أكحَله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ فى أكحله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقنى لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة. فاستجاب الله دعاءه،وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبًا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّؤوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله : «قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال:« نعم ». قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال: « نعم » . قال:وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ﷺ ـ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكرامًا وإعظامًا ـ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إنى أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم ، وتُسْبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » [(١)] ، وفى رواية : « لقد حكمت بحكم المَلك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فَخُدّت فى الأرض ، وجىء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعنى: بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما ، طَمَعًا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعنى: حصونهم. كذا قال مجاهد، وعِكْرِمة ، وعطاء ، وقتادة، والسُّدِّى ، وغيرهم ، ومنه سميت صياصى البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شىء فيها ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا فى الدنيا، فانعكس عليهم الحال ؛ ولهذا قال تعالى :

---

(١) البخارى (٣٠٤٣) .

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء . روى الإمام أحمد عن عطية القرظى قال : عُرضت على النبى ﷺ يوم قريظة فشكوا فىَّ ، فأمر بى النبى ﷺ أن ينظروا : هل أنبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدونى أنبت ، فخلى عنى وألحقنى بالسبى. وكذا رواه أهل السنن. وقال الترمذى : حسن صحيح [(١)] . ورواه النسائى بنحوه [(٢)] .

وقوله: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أى: جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ : قيل : خيبر . وقيل : مكة . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مرادًا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ روى الإمام أحمد عن علقمة بن وقاص قال: أخبرتنى عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفو الناس ، فسمعت وئيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه ، قالت : فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه دِرْع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز ويقول :

لَبِّثْ قَليلاً يَشْهَد الهَيْجَا حَمَل   مَا أحْسَنَ الموتَ إذا حَانَ الأجَلْ

قالت : فقمت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تَسْبغَة له ـ تعنى المغفر ـ فقال عمر: ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجريئة ، وما يؤمنُك أن يكون بلاء أو يكون تَحوّز . قالت : فمازال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التَحَوّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمى سعدًا رجل من قريش ، يقال له: ابن العَرِقة بسهم ، وقال له : خذها وأنا ابن العَرِقة فأصابَ أكْحلَه فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتنى حتى تُقر عينى من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية ، قالت: فرقأ كَلْمُه، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويًا عزيزًا . فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدَم فضربت على سعد فى المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله ، لأمته ، وأذّن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غَنْم وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبى ـ وكان دحية الكلبى تشبه لحيته ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام، فأتاهم رسول الله ﷺ

(١) المسند (٥/ ٣١١)، وأبو داود (٤٤٠٤) ، والترمذى (١٥٨٤)، والنسائى (٤٩٨١) ، وابن ماجه (٢٥٤٢) وصححه الألبانى .
(٢) النسائى فى الكبرى (٨٦١٩) .

فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ] (١) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه، وحَفّ به قومه ، فقالوا: يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النّكاية، ومن قد علمت، قالت : ولا يَرْجعُ إليهم شيئًا ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالى فى الله لومة لائم . قال : قال أبو سعيد:فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه ». فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد:فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله ». ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيتَ على نبيك من حرب قريش شيئًا ، فأبقنى لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فاقبضنى إليك . قال : فانفجر كَلْمُه ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخرْص ، ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فَحَضَره رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر:قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى .وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . قال علقمة : فقلت : أىْ أمّه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته . وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة نحوا من هذا ، ولكنه أخصر منه ، وفيه دُعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخارى عن عائشة ، زوج النبى ﷺ : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه ، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال: « إنى ذاكر لك أمرًا ، فلا عليك أن تستعجلى

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المطبوعة والمسند .
(٢) المسند (٦/ ١٤١) ، والبخارى (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩/ ٦٥) .

حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : «وإن الله قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له: ففى أى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أوّلَ امرأة من نسائه، فقال :« إنى ذاكر لك أمرًا ، فلا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة: فقلت : أفى هذا أستأمر أبوىّ ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن. وأخرجه البخارى ومسلم مثله (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئًا .أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبى ﷺ جالس : فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت، فقال عمر : لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفًا، فوجأت عنقها . فضحك النبى ﷺ حتى بدا ناجذه وقال : « هن حولى يسألننى النفقة ». فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل، الخيار ،فبدأ بعائشة فقال :« إنى أذكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال: فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها: أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتُها » . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَىّ النَّضَرِيَّة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

---

(١) البخارى (٤٧٨٥) . (٢) البخارى (٤٧٨٦) ، ومسلم (١٤٧٥/ ٢٢) .

(٣) المسند (٦/ ٤٥) ، والبخارى (٥٢٦٢) ، ومسلم (١٤٧٧/ ٢٤) .

(٤) المسند (٣/٣٢٨) ، ومسلم (١٤٧٨/٢٩) .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

الجزء ٢٢

يقول تعالى واعظًا نساء النبى ﷺ ، اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء،بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس:وهى النشوز وسوء الخلق.وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] ، ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] . فلما كانت محلتهن رفيعة ، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظًا ، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ قال زيد بن أسلم: فى الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هينًا . ثم ذكر عدله وفضله فى قوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أى:فى الجنة ، فإنهن فى منازل رسول الله ﷺ فى أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق ، فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبى ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ، فقال مخاطبًا لنساء النبى ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ قال السُّدِّى وغيره : يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ولهذا قال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى: دَغَل ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ قال ابن زيد : قولاحسنًا جميلا معروفًا فى الخير. ومعنى هذا : أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أى: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج

الشرعية : الصلاة فى المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تَفِلات » (١) ، وفى رواية : « وبيوتهن خير لهن » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة: ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن ـ وكانت لهن مشية وتكسر وتغنُّج ـ فنهى الله عن ذلك . وقال مُقاتل بن حَيَّان : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج .

وقوله : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة ، وهى : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ : وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدًا ، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح .

فإن كان المراد أنهن كُنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ، ففى هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

روى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرط مُرحَّل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله معه ، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ، ثم جاء على فأدخله معه ،ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . ورواه مسلم (٣) .

وروى مسلم فى صحيحه عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحُصين بن سَبْرَة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثَهُ ، وغزوت معه، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرًا؛ حدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول اللّه ﷺ. قال:يا بن أخى، والله لقد كبرَت سِنِّى ،وقدم عهدى ، ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعى من رسول الله ﷺ ، فما حدّثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول اللّه ﷺ يوما خطيباً بماء يدعى خُما ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد اللّه وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثم قال: « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب اللّه ، فيه الهدى

---

(١) أبو داود (٥٦٥) وصححه الألبانى . (٢) أبو داود (٥٦٧) وصححه الألبانى .

(٣) الطبرى (٢٢/٥) ، ومسلم (٢٠٨١/٣٦) .

والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحَثّ على كتاب اللّه ورَغَّب فيه، ثم قال: « وأهل بيتى ، أذَكّركم اللّه فى أهل بيتى ، أذكركم اللّه فى أهل بيتى » ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدقة بعده. قال : ومن هم ؟ قال هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس. قال : كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة ؟ قال: نعم [١] .

ثم الذى لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، فإن سياق الكلام معهن ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى: اعملن بما ينزل اللّه على رسوله فى بيوتكن من الكتاب والسنة .قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التى خصصتن بها من بين الناس،أن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول اللّه ﷺ الوحىُ فى فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك صلوات اللّه وسلامه عليه. قال بعض العلماء، رحمه اللّه: لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه ، فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية.ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم فى الحديث : « وأهل بيتى أحق ».

وهذا يشبه ما ثبت فى صحيح مسلم : أن رسول اللّه ﷺ لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم . فقال: « هو مسجدى هذا » [٢] . فهذا من هذا القبيل ؛ فإن الآية إنما نزلت فى مسجد قُباء . كما ورد فى الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أُسّسَ على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول اللّه ﷺ أولى بتَسميَته بذلك ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة ، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : ذا لطف بكن ، إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته والحكمة ؛ وهى السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير . وقال عطية العوفى فى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعنى : لطيف باستخراجها، خبير بموضعها . رواه ابن أبى حاتم ، ثم قال : وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة .

---

(١) مسلم (٢٤٠٨/٣٦) .

(٢) مسلم (١٣٩٨/٥١٤) .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾

روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: قلت للنبى ﷺ : ما لنا لا نُذكَرُ فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت: فلم يَرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرِّح شعرى ، فلففت شعرى ، ثم خرجت إلى حجرتى ، حُجْرة بيتى ، فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر:« يا أيها الناس، إن الله يقول: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه النسائى وابن جرير (١) .

فقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَات وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ [الحجرات : ١٤] . وفى الصحيحين : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين .

وقوله : ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَات ﴾ القنوت : هو الطاعة فى سكون ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُون ﴾ [الروم : ٢٦] ، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِين ﴾ [آل عمران : ٤٣] ، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِين ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها، ثم القنوت ناشىء عنهما.

﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَات ﴾ : هذا فى الأقوال ، فإن الصدق خَصلة محمودة ؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجرَّب عليه كِذْبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق،ومن صدق نجا .

﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَات ﴾ : هذه سَجيّة الأثبات ، وهى الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة ، وتَلَقّى ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى : أصعبه فى أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجية وثباتها . ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَات ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته. ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَات ﴾ الصدقة : هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء ، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، و إحسانا إلى خلقه ، وقد ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (٢) . وفى

(١) المسند (٦/ ٣٠٥) ، والنسائى فى الكبرى (١٤٠٥) ، والطبرى (٢٢/ ١٠) .
(٢) البخارى (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١/ ٩١) .

الحديث الآخر : « والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار » (١) . والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جدًا ، له موضع بذاته .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ : قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ﷺ: « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحْصَن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءَ » (٢) ـ ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧] .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة، فأتى على جُمْدان فقال : « هذا جُمْدان ، سيروا فقد سبق المُفَرِّدون ». قالوا: وما المُفَرِّدون ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات » . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين ». قالوا : والمقصرين ؟ قال: « اللهم، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » . تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره (٣) .

وقوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أن الله تعالى قد أعدّ لهم أى : هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه، وقالت : أنا خير منه حسبا ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها. وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان: أنها نزلت فى زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيْط، وكانت أول من هاجر من النساء ـ يعنى: بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبى ﷺ، فقال: قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة ـ يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب ـ فسخطت هى وأخوها

(١) الترمذى (٦١٤) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « الحديث صحيح فله شواهد تؤيد صحته » .

(٢) البخارى (٥٠٦٦) ، ومسلم (١٤٠٠/ ١) .

(٣) المسند (٢/ ٤١١) ، ومسلم (١٣٠٢/ ٣٢٠) .

وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال: فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام أحمد :حدثنا عفان ، حدثنا حماد ـ يعنى : ابن سلمة ـ عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوى ، عن أبى برزة الأسلمى أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن ، فقلت لامرأتى: لا يدخلن اليوم عليكم جليبيب فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم : هل لنبى الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار : « زوجنى ابنتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله ، ونعمة عين . فقال : « إنى لست أريدها لنفسى » . قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : « لجليبيب ».

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ؟ فقالت نعم ونُعمة عين . فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه ،إنما يخطبها لجليبيب . فقالت: أجُلَيبيب إنيه ؟ أجليبيب إنِيه ؟ لا لعمر الله لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية:من خطبنى إليكم ؟ فأخبرتها أمها .قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟! ادفعونى إليه ،فإنه لن يضيعنى . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها .فزوجها جليبيبا . قال : فخرج رسول الله ﷺ فى غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد »؟ قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا .قال:« انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا: لا. قال:« لكنى أفقد جليبيبا ». قال: « فاطلبوه فى القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فقالوا: يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه ، فقال : « قتل سبعة وقتلوه ، هذا منى وأنا منه ». مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفرله، ما له سرير إلا ساعد النبى ﷺ. ثم وضعه فى قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه . قال ثابت : فما كان فى الأنصار أيّم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ثابتا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال: « اللهم ، صب عليها الخير صبا ،ولا تجعل عيشها كدًا » كذا قال ، فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها . هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله [1] .

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت فى خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ تلت هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [2] . عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد

---

(١) المسند (٤/٤٢٢) ، ومسلم (٢٤٨٢/١٤٥) ، والنسائى فى الكبرى (٨٢٤٦) .
(٢) الاستيعاب (١/٢٥٩) .

العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس،رضى الله عنه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ .

فهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ،ولا رأى ولا قول ،كما قال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] ، ولهذا شدد فى خلاف ذلك ، فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالا مُّبينا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ،صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ،حبيباً إلى النبى ﷺ، يقال له: الحِبّ ، ويقال لابنه أسامة: الحِبّ ابن الحِبّ . عن أسامة بن زيد قال: كنت فى المسجد ، فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب ،رضى الله عنهما ،فقالا : يا أسامة ،استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيتُ رسول الله فأخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال: « أتدرى ما حاجتهما ؟ » فقلت: لا يا رسول الله. فقال: « لكنى أدرى»، قال: فأذن لهما . قالا: يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا :أىُّ أهلك أحبُّ إليك ؟ فقال : « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد » ، قالا : يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال « فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » (١) .

وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ـ وأمها أميمة بنت عبد المطلب ـ وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخمارا ، ومِلْحَفَة ، ودرْعاً ، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرة أمداد من تمر ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتق الله » . قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ . وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً عن أنس بن مالك قال: إن هذه الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة، رضى الله عنهما (٢) .

---

(١) الترمذى (٣٨١٩) بنحوه ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

(٢) البخارى (٤٧٨٧) .

وروى ابن جرير عن عائشة ، أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله، لكتم: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ : الوطر: هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرَغ منها، وفارقها ، زَوّجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله، عز وجل، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر. وروى الإمام أحمد عن أنس ، رضى الله عنه ، قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها على » . فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمِّر عجينها ، قال: فلما رأيتها عظمت فى صدرى ـ حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ـ أنّ رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ، عز وجل . فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن ،وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن ، ويقلن : يا رسول الله، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . قال : فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بينى وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية . ورواه مسلم والنسائى (٢) .

وقد روى البخارى عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات (٣) .

وقوله: ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجهاوفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم: ﴿ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِى ؛ فإن ذلك كان كثيرا فيهم.

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ أى: وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١١) .

(٢) المسند (٣/ ١٩٥) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٨٩) ، والنسائى (٣٢٥٢) .

(٣) البخارى (٧٤٢٠) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طلقها دَعيه زيد بن حارثة .

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا ردٌّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصًا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعيه ، الذى كان قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أى : وكان أمره الذى يقدره كائنًا لا محالة ، وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أى: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا . وسيد الناس فى هذا المقام ـ بل وفى كل مقام ـ محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ، صلوات الله عليه، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحَضره وسفره ، وسره وعلانيته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا: « زيد بن محمد » أى: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم، وفاطمة ، رضى الله عنهم أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة. روى الإمام أحمد عن أبىّ بن كعب ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبنة لم يَضَعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (١) . وروى أبو داود الطيالسى عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنا موضع اللبنة ، ختم بى الأنبياء ، عليهم السلام » . ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وقال الترمذى: صحيح غريب من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، قال: قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رَجُل بنى دارًا فأتمها إلا لَبنَة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) . وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: « فُضلت على الأنبياء بست: أعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرتُ بالرعب ، وأحلَّت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » . ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح(٤) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى دارًا فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . ورواه مسلم (٥) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ ، إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبى بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال ،مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَيرجيَّات ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العَنْسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال

(١) المسند (٥/ ١٣٦) ، والترمذى (٣٦١٣) .
(٢) أبو داود فى مسنده (١٧٨٥) ، والبخارى (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٢٨٧/ ٢٣) ، والترمذى (٢٨٦٢) .
(٣) المسند (٣/ ٩) ، ومسلم (٢٢٨٦/ ٢٠) .
(٤) مسلم (٥٢٣/ ٥) ، والترمذى (١٥٥٣) ، وابن ماجه (٥٦٧) .
(٥) انظر هامش (٢) بالصفحة .

الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الآية [الشعراء: ٢٢١ ،٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرًا ما دامت الأرض والسموات.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن ، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ،وأرفعها فى درجاتكم ،وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا: وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » . وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد اللّه بن بُسْر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول اللّه ﷺ، فقال أحدهما : يا رسول اللّه ، أى الناس خير؟ قال:« من طال عمره وحسن عمله ». وقال الآخر: يا رسول اللّه ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبث به . قال:« لا يزال لسانك رطْباً بذكر اللّه » . وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى ، وقال الترمذى : حسن غريب (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

---

(١) المسند (٥/ ١٩٥) ، والترمذى (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) وصححه الألبانى .
(٢) المسند (٤/ ١٩٠) ، والترمذى (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) ، وصححه الألبانى .
(٣) المسند (٢/ ٢٢٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٨٣) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه، ولم يعذر أحداً فى تركه ، إلا مغلوبا على تركه ، فقال: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائى والمعمرى وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النووى .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : عند الصباح والمساء ، كقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧، ١٨] .

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾: هذا تهييج إلى الذكر، أى: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة :١٥١، ١٥٢]. وقال النبى ﷺ: « يقول الله: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى مَلأ ذكرته فى ملأ خير منهم » (١) .

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاه البخارى عن أبى العالية . ورواه أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عنه. وقال غيره : الصلاة من الله : الرحمة . وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة ، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآية [غافر :٧ ـ ٩] .

وقوله : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى :سبب رحمته بكم وثنائه عليكم ، ودعاء ملائكته لكم ، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين . ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذى جَهِله غيرهم ، وبَصّرهم الطريق الذى ضَلّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام . وأما رحمته بهم فى الآخرة : فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم

(١) البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥/١) .

بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم . روى الإمام أحمد عن أنس، رضى الله عنه ،قال : مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطَأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ،وسَعَت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال فَخَفَّضهم رسول الله ﷺ وقال : « ولا الله، لا يلقى حبيبه فى النار » [١] . إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا: لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » [٢] .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ ﴿ تَحِيَّتُهُم ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلامٌ ﴾ أى: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] . وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: « ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضهَ الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » . وقد رواه البخارى [٣] .

وقوله : ﴿ شَاهِدًا ﴾ أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم

---

(١) المسند (٣/ ١٠٤) . (٢) البخارى (٥٩٩٩) .

(٣) المسند (٦٦٢٢) ، والبخارى (٢١٢٥، ٤٨٣٨) .

القيامة، ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ٤١] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب .

وقوله: ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى: داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ أى : وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .

وقوله : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أى : لا تطعهم وتسمع منهم فى الذى يقولونه ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ ، أى : اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطء، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده؛ لقوله: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيَّب وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُن ﴾ ، فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف .

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح ؛ فيما إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهى طالق » : فعندهما متى تزوجها طلقت منه . واختلفا فيما إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهى طالق ». فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهى طالق ، قال : ليس بشىء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك ». رواه الإمام أحمد والترمذى، وأبو داود، وابن ماجه . وقال الترمذى:

« هذا حديث حسن » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال : ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] . وفى صحيح البخارى، عن سهل بن سعد وأبى أسَيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازقيَّين (٢) .

قال ابن عباس: إن كان سمى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (٥٠) ﴾

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مُهُورَهُنَّ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مَهْرُهُ لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونَشّا (٣) وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حُيَىّ فإنه اصطفاها من سَبْى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جُوَيْرية بنت الحارث المصطلقية ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن .

---

(١) المسند (٦٧٦٩) ، والترمذى (١١٨١) ، وأبو داود (٢١٩١) ، وابن ماجه (٢٠٤٧). وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٥٢٥٦، ٥٢٥٧) .

(٣) فى المطبوعة : « ونشز » وهو خطأ. وفى المصباح المنير : « والنَّشُّ : نصف الأوقية » مادة (ن ش ش) .

وقوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى: وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام ، وكانتا من السرارى .

وقوله : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع. وإنما قال: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وله نظائر كثيرة . وقوله : ﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : قال أبو رَزِين وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أى : أسلمن .

وقوله : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ أى: ويحل لك ـ يأيها النبى ـ المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخبارًا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه: ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤] ، وكقول موسى: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله، إنى قد وَهَبت نفسى لك. فقامت قيامًا طويلا، فقام رجلا فقال: يا رسول الله ، زَوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ: « هل عندك من شىء تُصدقها إياه » ؟ فقال : ما عندى إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ: « إن أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك ، فالتمس شيئًا » . فقال : لا أجد شيئًا . فقال: « التمس ولو خاتمًا من حديد » فالتمس فلم يجد شيئًا ، فقال له النبى ﷺ : « هل معك من القرآن شىء ؟ » قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له رسول الله ﷺ: « زوجتكها بما معك من القرآن » . أخرجاه (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال: جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت: يا نبى الله، هل لك فىّ حاجة ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها. فقال : « هى خير منك ، رغبت فى النبى ، فعرضت عليه نفسها » . انفرد بإخراجه البخارى (٢) .

---

(١) المسند (٥/٣٣٦) ، والبخارى (٥١٣٥) ، ومسلم (١٤٢٥/٨٦) .
(٢) المسند (٣/٢٦٨) ، والبخارى (٥١٢٠) .

وقوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئًا . أى : أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم ﴾ أى : من حصرهم فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الإماء، واشتراط الولى والمهر والشهود عليه، وهم الأمة، وقد رخصنا لك فى ذلك ،فلم نوجب عليك شيئًا منه ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ربع

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة ؛ أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله، عز وجل : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، قالت : إنى أرى ربَّك يسارع لك فى هواك [١] .

قوله: ﴿ تُرْجِي ﴾ أى : تؤخر ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى :من الواهبات ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى : من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء ﴾ أى : من أزواجك ، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم ، ومع هذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبًا عليه ، وصلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة. وروى البخارى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدًا [٢] . فهذا الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم. وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ

---

(١) المسند (٦/١٥٨) ، والبخارى (٤٧٨٨) . (٢) البخارى (٤٧٨٩) .

﴿أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارًا منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه ، كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » . ورواه أهل السنن الأربعة ، وزاد أبو داود بعد قوله : « فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » : يعنى القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات (١) . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أى : بضمائر السرائر ، ﴿حَلِيمًا﴾ أى : يحلم ويغفر .

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢)﴾

ذكر غير واحد من العلماء ـ كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم ـ أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضًا عنهن ، على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم فى الآية . فلما اخترن رسول الله ﷺ ،كان جزاؤهن أن الله قَصَره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرارى فلا حجر عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن .

وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ أى : بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللنا لك من نسائك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك . هذا مروىّ عن أبى بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك وغيرهم . واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً . وهذا الذى قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ : فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

---

(١) المسند (٦/ ٤١) ، وأبو داود (٢١٣٤) ، والترمذى (١١٤٠) ، والنسائى (٣٩٤٣) ، وابن ماجه (١٩٧١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥] ، فنزلت كذلك (١) .

وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، فعن أنس بن مالك ، قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية (٢) .

فقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾: حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : «إياكم والدخول على النساء » (٣) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل .

---

(١) البخارى (٤٠٢) . (٢) البخارى (٤٧٩١) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٢) .

(٣) البخارى (٥٢٣٢) ، ومسلم (٢١٧٢/ ٢٠) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ، عُرساً كان أو غيره » (١). وأصله فى الصحيحين، وفى الصحيح أيضا عن رسول الله ﷺ: « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدى إلىَّ كُرَاع لقبلت ، فإذا فرَغتم من الذى دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم ، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ . وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ، عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أى: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى : هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال : نزلت فى رَجُل هَمّ أن يتزوج بعض نساء النبى ﷺ . قال رجل لسفيان : أهى عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذاك . وكذا قال مقاتل بن حَيَّان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، والسدى : أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها فى حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما : هل دخلت هذه فى عموم قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم فى حلها لغيره ـ والحالة هذه ـ نزاعا ، والله أعلم .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾، ثم قال : ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم ، فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

---

(١) مسلم (١٤٢٩/٩٦) .　　(٢) البخارى (٢٥٦٨) .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ، عند قوله: ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبى: بأنهما لم يذكرا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما .

وقوله: ﴿ وَلا نِسَائِهِنَّ ﴾: يعنى بذلك : عدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات ﴿ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعنى به: أرقاءهن من الذكور والإناث ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعنى به : الإماء فقط . رواه ابن أبى حاتم . وقوله : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ أى : واخشينه فى الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شىء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

قال البخارى: قال أبو العالية : صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون: يبرِّكون . هكذا علقه البخارى عنهما [1] . ورُوى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً.

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى ، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ﴾ الآية [الأحزاب: ٤١ ـ٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِين . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧] . وفى الحديث : « اللهم ، صل على آل أبى أوفى » [2] . وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر ـ وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها: « صلى الله عليك ، وعلى زوجك » [3] .

---

(١) فتح البارى (٨/ ٥٣٢) . (٢) البخارى (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨/ ١٧٦) .
(٣) المسند (٣/ ٣٩٨) ، وابن حبان فى صحيحه (١٩٥١ موارد) .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

روى البخارى عن كعب بن عُجْرَة قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (١) .

وروى الإمام أحمد عن ابن أبى ليلى قال : لقينى كعب بن عُجْرَة فقال : ألا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا ـ أو : عرفنا ـ كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة (٢) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم». قال أبو صالح، عن الليث: « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . وأخرجه النسائى (٣) . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن سُلَيم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله، كيف نصلى عليك ؟ قال: « قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى (٤) . وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى ـ قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عُبَادة ، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ قال :فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل على محمد،وعلى آل محمد،كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل

---

(١) البخارى (٤٧٩٧) .

(٢) المسند (٤/ ٢٤١) ، والبخارى (٣٣٧٠ ، ٦٣٥٧ ، ٤٧٩٧) ، ومسلم (٤٠٦/ ٦٦) .

(٣) البخارى (٤٧٩٨) .

(٤) المسند (٥/ ٤٢٤) ، والبخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧/ ٦٩) .

إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد،والسلام كما قد علمتم ». وقد رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . وروى الترمذى عن أبى بن كعب، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يأيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الـراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جـاء الموت بما فيه » . قال أبـى : قلت : يا رسول الله ، إنى أكثر الصلاة عليك،فكم أجعل لك من صلاتى ؟ قال:« ما شئت ». قلت: الربع ؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: فالنصف ؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ».قلت:فالثلثين ؟ قال:« ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال : « إذن تكفى همّك ، ويغفر لك ذنبك » . ثم قال : هذا حديث حسن (٢) .

وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله ﷺ يوما طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أتانى آت من ربى ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كَتَب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » . هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه (٣) . وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى علَىّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٤) .

وروى الإمام أحمد عن الحسين [بن علىّ] ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « البخيل من ذُكرت عنده، ثم لم يصل على » . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح (٥) . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة ». ثم قال : حسن غريب (٦) . قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب بنحوه (٧) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

---

(١) مسلم (٤٠٥/٦٥) ، وأبو داود (٩٨٠) ، والترمذى (٣٢٢٠) ، والنسائى (١٢٨٥) .

(٢) الترمذى (٢٤٥٧) ، وقال : « حسن صحيح » .

(٣) المسند (٤/٢٩) .

(٤) مسلم (٤٠٨/ ٧٠) ، وأبو داود (١٥٣٠) ، والترمذى (٤٨٥) ، والنسائى (١٢٩٦) .

(٥) المسند (١٧٣٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣٥٤٦) .

(٦) الترمذى (٣٥٤٥) وقال الألبانى : « حسن صحيح » .

(٧) البخارى فى الأدب المفرد (٢١) .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجْرَة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوى والحليمى ، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس ، بل تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةٌ ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » . تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرى أن محمل الآية على الندب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله . قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ؛ فإنه من صلى علىَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة». وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى (٢) . وروى الإمام أحمد عن رُوَيْفع بن ثابت الأنصارى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى » . وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه (٣) .

ومن ذلك : الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنازة : فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية يصلى على النبى ﷺ ، وفى الثالثة يدعو للميت ، وفى الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . روى الشافعى عن أبى أمامة بن سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ، ثم

---

(١) الترمذى (٣٣٨٠) وقال : « حسن صحيح » وصححه الألبانى ، وهو فى المسند (٢/ ٤٥٣) .

(٢) المسند (٦٥٦٨) ، ومسلم (٣٨٤/ ١١) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والترمذى (٣٦١٤) ، والنسائى (٦٧٨) .

(٣) المسند (٤/ ١٠٨)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ١٦٦): «رواه البزار والطبرانى فى الكبير والأوسط وأسانيدهم حسنة » ولم يعزه لأحمد .

يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة ، وفى التكبيرات لا يقرأ فى شىء منها، ثم يسلم سرا فى نفسه. ورواه النسائى ، عن أبى أمامة نفسه أنه قال : من السنة، فذكره [١] . وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح .

ومن ذلك : فى صلاة العيد : عن علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلى على النبى ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبى ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى:صدق أبو عبد الرحمن . إسناد صحيح [٢] .

ومن ذلك : أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذى عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شىء حتى تصلى على نبيك [٣] .

ومن آكد ذلك : دعاء القنوت:لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ،وابن خزيمة ، وابن حبَّان، والحاكم ، عن الحسن بن على ، قال : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر: « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » [٤] . وزاد النسائى فى سننه بعد هذا : وصلى الله على النبى محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة : روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى، قال: قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض،وفيه النفخة، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على ». قالوا: يارسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرِمْتَ ؟ ـ

---

(١) الأم (١/٢٣٩) ، والنسائى (١٩٨٩) .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى (٢/٢٠٨) والحديث صححه الألبانى فى إرواء الغليل (٦٤٢) .

(٣) الترمذى (٤٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر: «هذا موقوف فى حكم المرفوع. قال القاضى أبو بكر بن العربى (٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٤) : « مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقيفًا ، لأنه لا يدرك بنظر. ويعضده ما خرج مسلم قال النبى عليه السلام: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ ، فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة ، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة ». والحديث الذى أشار إليه هو فى صحيح مسلم (١ / ١١٣) » .

(٤) المسند (١٧/٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٤٢٥) ، والترمذى (٤٦٤) ، وابن خزيمة فى صحيحه (١٠٩٥) ، وابن حبان فى الإحسان (٩٤١) ، والمستدرك (٣/١٧١) .

يعنى: وقد بليت ـ قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه (١) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى ، والنووى فى الأذكار .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد .

ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ : روى أبو داود عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « ما من أحد يسلم علىَّ إلا رد الله عَلَىَّ روحى ، حتى أرد عليه السلام ». تفرد به أبو داود ، وصححه النووى فى الأذكار (٢) .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه: « الجامع لآداب الراوى والسامع » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيرًا ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظا .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث: « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » (٣) ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

فقال قائلون : يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ﴾ ، وبقوله : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] ، وبقوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » (٤) . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » .أخرجاه فى الصحيحين (٥) . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل عَلَىَّ وعلى زوجى. فقال: « صلى الله عليك وعلى زوجك » (٦) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال: « قال أبو بكر صلى الله عليه » و« قال علىّ صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال: « قال محمد ، عز وجل » ،

---

(١) المسند (٤/٨) ، وأبو داود (١٠٤٧) ، وابن ماجه (١٦٣٦) ، وصححه الألبانى .

(٢) أبو داود (٢٠٤١) .

(٣) البخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧/ ٦٩) .

(٤ ـ ٦) تقدم تخريجها ص ٦٦ ، ٦٧ .

وإن كان عزيزاً جليلا؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبى أوفى، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن. وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك :هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال ، حكاه الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود.قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ، لا يقال: « أبو بكر ـ أو : على ـ صلى الله عليه » . هذا لفظه بحروفه .قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: « على عليه السلام »، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم.وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت:وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب، أن يفرد علىّ ، بأن يقال: «عليه السلام»، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغى أن يسوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

عن ابن عباس أنه قال : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وعن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله:أما بعد ، فإن أناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ،وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبى ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه « فقط » ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهى قوله: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلّم تسليما .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً من آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص ، عياذا بالله من ذلك. قال عكرمة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى المصورين . وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله، عز وجل : يؤذينى ابن آدم، يَسُبّ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) . ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى الذين طعنوا على النبى ﷺ فى تزويجه صفية بنت حُيَى بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم بُرآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل فى هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا ، فهم فى الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وروى أبو داود عن أبى هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرُكَ أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتّه » . وهكذا رواه الترمذى ، ثم قال : حسن صحيح (٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا (٦٠) مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا (٦٢) ﴾

ربع

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات ـ خاصة أزواجَه وبناته

---

(١) البخارى (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦/٢) .

(٢) أبو داود (٤٨٧٤) ، والترمذى (١٩٣٤) ، وصححه الألبانى .

لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ؛ ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو: الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قال الجوهرى : الجلباب : الملحفة .

قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينًا واحدة . وقال محمد بن سيرين: سألت عَبيدةَ السّلمانى عن قول الله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. وقال عكرمة : تغطى ثُغْرَة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وروى ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سُود يلبسنها [(١)] . وروى عن سفيان الثورى أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ، قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيّقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة، كفوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا :هذه أمة. فوثبوا إليها . وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أى: لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك.

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى : الذين يقولون: « جاء الأعداء » و «جاءت الحروب» ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أى : لنسلطنَّك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرّشَنَّك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم ﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلاً . مَلْعُونِينَ ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ، ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى : وجدوا ﴿ أُخِذُوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على

(١) البخارى (٤٧٥٩) بنحوه .

نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال الله تعالى فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ، وقال : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] . ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿ لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢]. وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يَوَدون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ أى: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شىء فإذا هم ليسوا على شىء ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم ، وإغوائهم إيانا، ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾. قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثلثة، وهما قريبا المعنى، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى. قال: « قل اللهم ، إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت،

فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم ». أخرجاه فى الصحيحين (١) ، يروى « كبيراً » و« كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح . واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه، وفى ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَن ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلا حَيِيا ستِّيرًا ، لا يُرَى من جلده شَىء استحياء منه ، فآذاهُ من آذاهُ من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما بَرص وإما أدْرَة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل، أراد أن يُبرئَه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل ، فلمَّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبى حَجَر، ثوبى حَجَر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله ،عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبَه فلبسه ، وطَفِقَ بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لَنَدباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ . وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (٢) . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بآدر ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾. وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) . وقوله : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى : له وجاهة وجاه عند ربه ، عز وجل . قال الحسن البصرى : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله، وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

---

(١) البخارى (٨٣٤) ، ومسلم (٢٧٠٥/٤٨) . (٢) البخارى (٣٤٠٤) .

(٣) المسند (٣٦٠٨) ، والبخارى (٣٤٠٥) ، ومسلم (١٠٦٢/ ١٤٠) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ أى : مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أى: يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً ﴾ وذلك أنه يجار نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد: الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قال العَوْفى، عن ابن عباس: يعنى بالأمانة : الطاعة ، التى عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها . فقال لآدم: إنى قد عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ يعنى : غرًا بأمر الله . وقال ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت غَفَرت لك ، وإن عَصَيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هى الفرائض . وقال آخرون: هى الطاعة. وقال أبى بن كعب : من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود . وقال بعضهم : « الغسل من الجنابة » . وقال مالك، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم ، والاغتسال من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوقِبَ ، فقبلها الإنسان

على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر] المجل كجمر دحرجته على رجلك ، تراه مُنتبرًا وليس فيه شىء » . قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله .وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عَلَىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهودياً ليردنه علىّ ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا » . وأخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حِفْظ أمانة ، وصِدْق حديث، وحُسْن خليقة ، وعِفَّة طُعمة » (٢) .

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، روى أبو داود عن بُرَيدة ، قال: قال رسول الله ﷺ: « من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله، عز وجل ، ومخالفة رسله ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى: وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

(١) المسند (٥/ ٣٨٣) ، والبخارى (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣/ ٢٣٠). وما بين المعقوفتين من المسند .

(٢) المسند (٦٦٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) أبو داود (٣٢٥٣) ، وصححه الألبانى ، وانظر السلسلة الصحيحة (٩٤) .

تفسير سورة سَبأ
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل:١٣]. ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود أبدا ، المحمود على طول المدى ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره ﴿ الْخَبِير ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُور ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر اللّه رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس

عليه السلام ، وهى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِين ﴾ [يونس : ٥٣]، والثانية هذه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم ﴾ ، والثالثة فى التغابن وهى قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِير ﴾ [التغابن : ٧]، فقال تعالى: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِين ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْه ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِين ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيم ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُون ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّار ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَق ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَق ﴾ [الأعراف : ٤٣]، ويقال أيضا: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢]، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْث ﴾ [الروم : ٥٦] ، ﴿ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد ﴾ العزيز هو : المنيع الجناب، الذى لا يُغالب ولا يُمانع، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّق ﴾ أى : تفرقت أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُم ﴾ أى : بعد هذا الحال

﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله عز وجل رادًا عليهم: ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ﴿ وَالضَّلالِ الْبَعِيدَ ﴾ من الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة عليهم ، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]. عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا . ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ قال قتادة : المنيب : المقبل إلى الله عز وجل . أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم (١) بَلَىٰ ﴾ [يس: ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

ربع

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ،وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع

---

(١) فى المخطوطة : « على أن يحيى الموتى » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

لقراءته، ثم قال ﷺ «لقد أوتى هذا مزمارًا من مزامير آل داود » (١) . وقال أبو عثمان النهدى: ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى . ومعنى قوله: ﴿ أَوِّبِي ﴾ التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها . أى : رَجّعى مُسبّحة معه ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى: الدروع. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود، عليه السلام، فى تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة، ولا تُغلّظه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال الحكم بن عُتيبة: لا تُغلظه فيفصم، ولا تُدقّه فيقلَق. وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد. وقال ابن عباس: السرد: حلَق الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق .

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذّى بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع. وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغير واحد : القطر: النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام . قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ وهو الحريق .

(١) البخارى (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣/ ٢٣٥) .

وقال الحسن : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ** ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره . وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل: الصور. قال مجاهد :وكانت من نحاس. وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ **وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ** ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء، وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **كَالْجَوَابِ** ﴾ أى : كالجَوبة من الأرض. وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم. والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما . وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين . وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية . قال أبو عبد الرحمن السلمى: الصلاة شكر ، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبى حاتم، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: الشكر تقوى الله والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود ، عليه السلام، كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيامَ إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » (١) . وقوله : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان، عليه السلام ، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهى مِنْسَأته ـ كما قال ابن عباس، ومجاهد ، والحسن، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنة ، فلما أكلتها دابةُ الأرض ،

---

(١) البخارى (١١٣١) ومسلم (١١٥٩/ ١٨١) .

وهى الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذرَ .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشَرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة، وغسان » وهذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه (١) ، وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأَمَم، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » عن ابن عباس فذكر نحوه . وروى ابن جرير عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى قال : قال رجل: يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » . ورواه الترمذى أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٢) . وروى أبو عمر بن عبد البر: عن تميم الدارى؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن . قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا .

---

(١) المسند (٢٩٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٥٣/٢٢) ، والترمذى (٣٢٢٢) وقال الألبانى : « حسن صحيح » .

ومعنى قوله عليه السلام: « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (١) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل .

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك ، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد. وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ ـ ٢٤] .

وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل :المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: « مسجد الجامع ». و«سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى. وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة،

---

(١) البخارى (٣٥٠٧) .

والضحاك ؛ أن الله ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل الوادى ، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكْرِمة ، وعطاء الخُرَاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير . ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء . وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل : هو السَّمُر. فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال : ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .وعن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على، رضى الله عنه ـ قال: جزاء المعصية الوهن فى العبادة، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا، ويَقيل فى قرية ويبيت فى أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هى قرى بصنعاء . وكذا قال

أبو مالك. وقال مجاهد ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّى ، وابن زيد وغيره : يعنى : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التى باركنا فيها : بيت المقدس . وقال أيضا : هى قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أى : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أى : الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج اللّه لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال عز وجل : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال فى حق هؤلاء : ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أى : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : جعلناهم حديثا للناس ، وَسَمرًا يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر اللّه بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا فى البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا : «تفرقوا أيدى سبأ » « وأيادى سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ » .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى اللّه له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (١) .

قال قتادة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

---

(١) مسلم (٢٩٩٩/ ٦٤) ، وأحمد (٤/ ٣٣٢) عن صهيب رضى الله عنه ولم نقف على رواية أبى هريرة .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من حجة . وقال الحسن البصرى : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَك ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّه ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْض﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ : من عون يعينه بشىء . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

ثم قال تعالى: ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلا بِإِذْنِه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] . ولهذا ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : «فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه (١) . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَ ﴾ : وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى فسمع أهل السموات كلامه، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم ﴾ أى: زال الفزع عنها. قال ابن عباس، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « حَتَّى إِذَا فرغ » بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول . فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضا: ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَ ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم ﴾ يعنى: المشركين عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا،ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : ما فيها من الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير ﴾ قال: وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار :

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُستَرق

(١) مضى تخريجه عند الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فَحَرّفها وبَدّد بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذْبَة،فيقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء . انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه [(١)] . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان رسول اللّه ﷺ جالسًا فى نفر من أصحابه ــ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ــ فَرُمِىَ بنجم فاستنار، قال : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم، أو يموت عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلّظت حين بعث النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش]: ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون . ورواه مسلم والنسائى والترمذى [(٢)] . وعن ابن عباس وقتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء اللّه سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

ربع

﴿ ۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا اللّه ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره . وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك باللّه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : واللّه ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد

(١) البخارى (٤٨٠٠) ، وأبو داود (٣٩٨٩) ، والترمذى (٣٢٢٣) ، وابن ماجه (١٩٤) .

(٢) المسند (١٨٨٣) ، ومسلم (٢٢٢٩/ ١٢٤) ، والنسائى فى الكبرى (١١٢٧٢) ، والترمذى (٣٢٢٤) .

الفريقين لمهتد . وقال عكْرِمة: معناها : إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفى ضلال مبين. وقوله : ﴿ قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن (١) كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق فى صعيد واحد، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : ليس له نظير ولا نَديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ أى: الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: ذو العزة التى قد قهر بها كل شىء، وغَلَبت كل شىء، الحكيم فى أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١] . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله عز وجل : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وقال ابن عباس: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا: يا بن عباس، فيم فضله الله على الأنبياء ؟ قال: إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، وقال للنبى ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس. وهذا

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « فإن » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» (١). وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال: « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٢) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، كقوله عز وجل: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] . ثم قال تعالى : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) البخارى (٣٣٥) ، ومسلم (٣/٥٢١) .
(٢) جزء من حديث مسلم السابق .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتَغُرّونا وتُمَنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن. قال قتادة ، وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌّ ندم على ما سَلَف منه . ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً فى قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أي: نبى أو رسول ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة.

قال قتادة : هم جبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى: لا نؤمن به ولا نتبعه . وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه

ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال اللّه : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١١ ــ ١٧].

وقد أخبر اللّه عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قل تعالى هاهنا : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ أى: ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال سول اللّه ﷺ : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ورواه مسلم وابن ماجه (١) .

ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل اللّه ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ﴿ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى: جميعهم مَجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم . وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أى : بحسب مَا لَه فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى مُوَسَّع عليه، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمرَات فى أسفل الدركات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول اللّه ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه اللّه بما آتاه ». رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى

---

(١) المسند (٢/٥٣٩) ، ومسلم (٢٥٦٤/ ٣٣) ، وابن ماجه (٤١٤٣) .

(٢) مسلم (١٠٥٤/ ١٢٥) ، وفى المخطوطة والمطبوعة : « من حديث ابن عُمَر » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه من مسلم .

الحديث: « يقول الله تعالى : أنْفق أنْفق عليك » (١) . وفى الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا ، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقا خَلَفًا » (٢) . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ،وكما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى :تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ أى: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا

(١) البخارى (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣/٣٦) . (٢) البخارى (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠/٥٧) .

تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضَّة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس: أى من القوة فى الدنيا . وكذا قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى ؟

ربع

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى: ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ . هذا معنى ما ذكره مجاهد وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : روى البخارى عن ابن عباس قال : صَعَدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال: « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسند] (١) . وروى الإمام أحمد عن

---

(١) البخارى (٤٨٠١) .

بريدة قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال: « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه: أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس، أوتيتم » ـ ثلاث مرات (١) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ **مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم** ﴾ أى: لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ﴿ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد** ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه. وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوب** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه** ﴾ [غافر : ١٥] .أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض . وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيد** ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِق** ﴾ [الأنبياء : ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم بسيَة قوْسه ، ويقرأ : ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ ، ﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيد** ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن مسعود، به (٢). أى: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي** ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿ **إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيب** ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا » (٣) .

---

(١) المسند (٥/ ٣٤٨) وإسناده صحيح .
(٢) البخارى (٢٤٧٨، ٤٢٨٧) ، ومسلم (١٧٨١/ ٨٧) ، والترمذى (٣١٣٨) ، والنسائى فى الكبرى (١١٤٢٨) .
(٣) النسائى فى الكبرى (١١٤٢٧) ، والبخارى (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤/ ٤٥) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فَلا فَوْت ﴾ أى: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى: لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصرى: حين خرجوا من قبورهم. وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك.

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا به ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُش ﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا . وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى . وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْب ﴾ قال: بالظن . قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْب ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد ، ويقولون: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِين ﴾ [الجاثية : ٣٢] . قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُون ﴾ قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان . وقال السُّدِّى : هى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله . وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُون ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا

منه. وقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أى: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤ ، ٨٥] . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب . قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

تفسير سورة فاطر
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾

قال ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها ، أنا بدأتها . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض . وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن «فاطر السموات والأرض » فهو: خالق السموات والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول اللّه ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء . وقال الزهرى ، وابن جُرَيْج فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى: حسن الصوت .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . روى الإمام أحمد عن ورّاد (١) ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعتَ من رسول اللّه ﷺ. فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت رسول اللّه ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » ، وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ،

(١) فى المخطوطة : « وارد » وهو خطأ ، صوابه كما أثبتنا من المطبوعة ومصادر التخريج . وفى رواية البخارى والمطبوعة : «كاتب المغيرة » .

وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات . وأخرجاه (١) . وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، مِلْء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد .اللهم، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » (٢) . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا نظائر كثيرة . كان أبو هريرة إذا مُطروا يقول : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أى : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك ـ يامحمد ـ هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَق ﴾ أى: المعاد كائن لا محالة ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتَلَهّوا عن ذلك الباقى بهذه الزهرة الفانية، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُور ﴾ وهو الشيطان. قاله ابن عباس. أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرَّار كذاب أفاك . وهذه

(١) المسند (٤/ ٢٥٤) ، والبخارى (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣/ ١٣٧) .
(٢) مسلم (٤٧٧/ ٢٠٥) .

الآية كالآية التى فى آخر لقمان: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] . قال زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا : ﴿ بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين. فنسأل اللّه القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا باللّه ورسله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أى : لما كان منهم من ذنب ، ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله اللّه ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أى : بقدره كان ذلك ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن اللّه حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل ويهدى من يهدى ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . وعن عبد اللّه بن الديلمى قال : أتيت عبد اللّه بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم اللّه عز وجل » (١) .

---

(١) الترمذى (٢٦٤٢) وقال : « هذا حديث حسن » وصححه الألبانى .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد ، إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما تنبت الحبة فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب »[(١)] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] . وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف . روى ابن جرير عن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صَعد بهن إلى السماء فلا يُمرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[(٢)] . روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرنْ بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به ؟ » . وهكذا رواه ابن ماجه[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد

(١) مسلم (٢٩٥٥/١٤٢) . (٢) ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ٨٠) .
(٣) المسند (٤/٢٦٨) وابن ماجه (٣٨٠٩) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصححه الألبانى .

به إلى الله، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء الفريضة . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وغير واحد . وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن جوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بُغَضاء إلى الله عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون . الصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أى: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يُكشَف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل ﴿ مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعد النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين؛ لأن العين : الطويل العمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمُر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه: ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال

عبد الرحمن فى تفسيرها: ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد ، فهذا هذا . وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ . وقال بعضهم : بل معناه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب . واختار ابن جرير القول الأول ، وهو كما قال . وروى النسائى عن أنس ابن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سره أن يُبْسَط له فى رزقه، ويُنْسأ له فى أثره فلْيَصِلْ رَحِمه ». وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شىء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مر . ثم قال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعنى : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ٢٢، ٢٣] .

وقوله: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (٢)﴾ أى: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو : صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل

---

(١) النسائى فى الكبرى (١١٤٢٩). ورواه البخارى برقم (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧/ ٢٠) ، وأبو داود (١٦٩٣) .

(٢) فى المخطوطة : « مواخر فيه ». وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده فى قصر هذا فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى: والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى : إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى: لا يقدرون على ما تطلبون منها ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أى : يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف :٥، ٦]، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم :٨١، ٨٢] .

وقوله : ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثلُ خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

ربع

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال :﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

وقوله :﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أى:يوم القيامة ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾ أى:وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى: ولو كان قريبا إليها،حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله.

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أى: ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ،وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، فى ظلمات يمشى،لا خروج له منها،بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة : ٤٣، ٤٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا

أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أى : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النّذر، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ الآية [النحل : ٣٦] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ﴿ وَبِالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى : الواضح البين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ، والله أعلم ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى فى الآية الآخرى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الآية [الرعد : ٤].

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر، وفى بعضها طرائق ـ وهى : الجُدَد ، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضا . قال ابن عباس : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، والسدى . ومنها ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراسانى وقتادة . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب . وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ أى : كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ـ وهو: كل ما دب على قوائم ـ والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام. كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر

وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك . ولهذا قال تعالى فى الآية الآخرى : ﴿ واخْتلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢]. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى فى الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر. قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال: الذين يعلمون أن اللّه على كل شىء قدير . وقال: العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية اللّه عز وجل . وقال الحسن البصرى : الإيمان مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب اللّه فيه ، وزهد فيما سَخط اللّه فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث،ولكن العلم عن كثرة الخشية .
وعن أبى حيان التيمى ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة: عالم باللّه عالم بأمر اللّه، وعالم باللّه ليس بعالم بأمر اللّه ، وعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه. فالعالم باللّه وبأمر اللّه : الذى يخشى اللّه ويعلم الحدود والفرائض . والعالم باللّه ليس بعالم بأمر اللّه : الذى يخشى اللّه ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى اللّه عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم اللّه فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أى: يرجون ثوابا عند اللّه لا بد من حصوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أى : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة : كان مُطَرِّف ، رحمه اللّه ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى :من الكتب المتقدمة يصدقها،كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ وهو: المفرط فى فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ، ورَّثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفَر له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة.

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها. والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب،وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شكور.الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ » (١) . وعن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ ــ وهو أعلم تبارك وتعالى ــ فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل: أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية . وعن عقبة بن صُهْبَان الهُنَائى قال : سألت عائشة ، عن قول الله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِه ﴾ الآية ، فقالت لى: يا بنى، هؤلاء فى الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق،وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به،وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال : فجعلت نفسها معنا . وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ. قال أما قدمت لتجارة ؟ قال: لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » . وأخرجه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه (٢) . وعن ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إنى لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالى » (٣) .

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين

---

(١) المسند (٥/ ١٩٨) والحديث إسناده صحيح .

(٢) المسند (٥/ ١٩٦) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، والترمذى (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) وصححه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير (٢/ ٨٤) (١٣٨١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١/ ١٢٩) : « رجاله موثقون » .

يوم القيامة مأواهم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (١) .

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا، لم يلبسه فى الآخرة » (٢) .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ : وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس، وغيره : غَفَر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله وَمَنّ ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » .قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَنى الله برحمة منه وفضل » (٣) .

﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء . والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئبُون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها ،وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ،قال الله تعالى:﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: ٧٤] . وثبت

---

(١) مسلم ٢٥٠/ ٤٠) . (٢) مسلم (٢٠٧٣/ ٢١) .

(٣) البخارى (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦/ ٧١) .

فى صحيح مسلم : أن رسول اللّه ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون » (١) . وقال اللّه عز وجل: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُون . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُون ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أى: هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى اللّه، عز وجل، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَل ﴾ أى: يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب، جل جلاله ،أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم: ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوج (٢) مِّن سَبِيل. ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر : ١١، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتّم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّر ﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ باللّه أن نغتر بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّر ﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة. وعن الحسن قال : أربعين سنة . وعن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من اللّه عز وجل . وهذه رواية عن ابن عباس ـ فيما رواه ابن جرير ـ قال : العمر الذى أعذر اللّه إلى ابن آدم : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّر﴾ أربعون سنة . وهذا القول هو اختيار ابن جرير. ثم رواه عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر اللّه فيه لابن آدم فى قوله : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّر﴾ ستون سنة . فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث . وقد روى أصبغ بن نُباتة ، عن على ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم اللّه به فى قوله : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّر ﴾ ستون سنة .

---

(١) مسلم (١٨٥/٣٠٦) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « مرد » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه » (١) . وهكذا رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة » (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة. وقيل : ستين. وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ روى عن ابن عباس، وعِكْرِمة، وقتادة ، أنهم قالوا : يعنى: الشيب. وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل . وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ ، ٧٨] ، أى: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل ، فأبيتم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨، ٩] .

وقوله: ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى: فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ، ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا ﴾ أى: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله،وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

---

(١) المسند (٧٦٩٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٦٤١٩) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ ربع

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ أى : ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير . وقوله: ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غروراً ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ [الحج : ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ [الروم : ٢٥] ، ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون. لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين. فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ [الصافات : ١٦٧ـ١٧٠] .

قال اللّه تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِير ﴾ وهو: محمد ﷺ ، بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿ ما زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ أى: ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْض ﴾ أى: استكبروا عن اتباع آيات اللّه ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئ ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل اللّه ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه﴾ أى: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم. وقال محمد بن كعب القُرَظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب اللّه :﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِه ﴾[الفتح: ١٠]. وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِين ﴾ يعنى : عقوبة اللّه لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل مكذب، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد :١١]، ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب اللّه من شىء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شىء، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّة ﴾ أى : لو آخذهم بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق. عن عبد اللّه [بن مسعود] قال: كاد الجُعَلُ أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّة ﴾ . وقال سعيد ابن جبير، والسُّدىّ: أى : لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب .

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : ولكن يُنْظرهُم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِه بَصِيرًا ﴾ .

تفسير سورة يس
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إِنَّكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى: على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيلٌ من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله، ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل فى عنقه غُل، فجمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسُه ، فصار مقمَحا ؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ والمقمح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع فى كلامها: « وأشرب

فأتقمَّح » أى : أشرب فأروى ، وأرفع رأسى تهنيئا وترَوّيا . واكتفى بذكر الغل فى العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، والغُلّ إنما يعرف فيما جَمَع اليدين مع العنق .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقوله عز وجل : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير. وقال مجاهد : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قال : رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد: عن الحق ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد: عن الحق ، فهم مترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه . قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : «فأعشيناهم» بالعين المهملة، من العشا وهو داء فى العين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل اللّه هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] ثم قال: من منعه اللّه لا يستطيع . وقال عكرمة: قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول: أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب: قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جِنانٌ خير من جنان الأُردُنّ. وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعذّبون بها .وخرج عليهم رسول اللّه ﷺ عند ذلك،وفى يده حفنة من تراب، وقد أخذ اللّه على أعينهم دونه ، فجعل يذُرّها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿يسٓ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ ، وانطلق رسول اللّه ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصَداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال: ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبىّ ﷺ قول أبى جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » (١) .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: قد ختم اللّه عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٢) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٤) .

(٢) عند الآية رقم (٦) .

[يونس : ٩٦ ، ٩٧] . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى: يوم القيامة ،وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧] .

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال . وفى قوله : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: « من سن فى الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . رواه مسلم (١) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده » (٢) . وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة. وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ يعنى : ما أثرُوا . يقول : ما سَنوا من سنة ، فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيرا فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم ﴿ وَآثَارَهُم ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿وَآثَارَهُم﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله ، فليفعل . روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد،فبلغ ذلك رسول الله ﷺ،فقال لهم: «إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » . قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى

---

(١) مسلم (١٠١٧/٦٩) .

(٢) مسلم (١٦٣١/١٤) .

سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » . وهكذا رواه مسلم (١) .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : توفى رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبى ﷺ وقال: « يا ليته مات فى غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن الرجل إذا توفى فى غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة » . ورواه النسائى ، وابن ماجه (٢) . وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول، بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب ، فلأن تُكتبَ تلك التى فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر: ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٧) ﴾

يقول تعالى: واضرب ـ يا محمد ـ لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾. قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس ـ : إنها مدينة أنطاكية،وهكذا روى عن بُرَيدة بن الحُصَيب، وعكرِمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية . وقد استشكل بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالتكذيب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى: قويناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث . ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : لأهل تلك القرية: ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أى: من ربكم الذى خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أى: فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحىَ إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

(١) المسند (٣/ ٣٣٢) ، ومسلم (٦٦٥/ ٢٨٠) .

(٢) المسند (٦٦٥٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والنسائى (١٨٣٢) ، وابن ماجه (١٦١٤) .

كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ [التغابن :٦] ، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه، وقوله: ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم في قوله : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾ [الإسراء: ٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى: ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ [العنكبوت : ٥٢] . ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ أي : لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا . وقال قتادة: يقولون: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ قال قتادة: بالحجارة. وقال مجاهد : بالشتم ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ أي : عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿طائركم معكم ﴾ أي: مردود عليكم ، كقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح: ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه: أي أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله : ﴿ أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون . وقال قتادة : أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس : إن أهل القرية هَمّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِين ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ﴿ وَهُم مُّهْتَدُون ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادنى بسوء ﴿ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذوننى مما أنا فيه ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس ـ يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُم ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى :فاسمعوا قولى .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُم ﴾ أى :الذى أرسلكم ، ﴿فَاسْمَعُونِ ﴾ أى: فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، أنّى آمنت بربكم واتبعتكم. وهذا القول الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٧) ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ (٢٩) ﴾

الجزء ٢٣

قال ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم فوجبت له ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون ﴾ . قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لَمَّا عاين ما عاين من كرامة الله ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ . تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِين ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته فى قوله: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ . وقال أبو مجلز : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ : بإيمانى بربى ، وتصديقى المرسلين . ومقصوده : أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

وقوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين ﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج فى إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال فى قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين ﴾ أى : ما كاثرناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك، ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون ﴾ قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين ﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى: من رسالة أخرى إليهم. قاله مجاهد وقتادة. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتى باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُون. وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِين ﴾ [يس : ١٤ ـ ١٧] . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح، عليه السلام،والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿ ما أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتَاركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم ، فالله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن اللّه تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا .أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، واللّه ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد . وقال قتادة : أى: يا حسرة العباد على أنفسها، على ما ضيعت من أمر اللّه ، فرطت فى جنب اللّه . ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل اللّه ، وخالفوا أمر اللّه، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك اللّه قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجَرتهم من قولهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون ٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد اللّه تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدى اللّه ، جل وعلا ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنَّ كُلا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١] .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أي : إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أي : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أي : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي:وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم. قاله ابن عباس وقتادة؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أي : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير ـ بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا ـ أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : «الذى » ، تقديره : ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود «ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (١) .

وقوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ فى معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قولان:

---

(١) البخارى (١٩٥٤) ، ومسلم (١١٠٠/٥١) .

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

روى البخارى عن أبى ذر ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال: « يا أبا ذر، أتدرى أين تَغربُ الشمس ؟ » قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » . وعن أبى ذر قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : «مستقرها تحت العرش » . كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : كنت مع رسول اللّه ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال: « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال: « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ » (٢) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى . قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، ثم تنتقل من مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليه، يروى هذا عن عبد اللّه بن عمرو. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لا مُسْتَقر لَّهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لا تفتر ولا تقف ، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم :

---

(١) البخارى (٣١٩٩، ٤٨٠٢، ٤٨٠٣، ٧٤٢٤، ٧٤٣٣)، ومسلم (١١٥٩/ ٢٥٠) ، وأبو داود (٤٠٠٢) ، والترمذى (٣٢٢٧).

(٢) المسند (٥/ ١٥٢) والحديث إسناده صحيح .

٣٣] أى : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى :الذى لا يخالَف ولا يُمانَع ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنَّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ،كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (١) اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦]. وهكذا ختم آية «حم السجدة » بقوله: ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى: جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ الآية [يونس :٥] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ،ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر ، فقدره منازل، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس : وهو أصل العذْق . وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس . يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، وكذا قال غيرهما. ثم بعد هذا يبديه اللّه جديداً فى أول الشهر الآخر، والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول «غُرَر » واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عُشَر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض» ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرَع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود ؛ لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث «حَنَادس » ، وثلاث « دآدئ » ، وثلاث « محَاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن .

وقوله: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا . وقال عكرمة: يعنى : أن لكل منهما سلطانا ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغى إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى

(١) هى قراءة كما سبق بيانه .

يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل. وقال الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا. وأومأ بيده إلى المشرق. وقال مجاهد: ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطَّلبان حثيثين ، ينسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلْكة كفَلْكَة المغزَل . وقال مجاهد : الفَلَك كحديدة الرَّحَى ، أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى : آباءهم ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى: فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . قال ابن عباس: المشحون : المُوقَر. وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة . وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال العوفى عن ابن عباس: يعنى بذلك: الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن وغيرهم. وقال السدى ـ فى رواية: هى الأنعام. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا. قال: هى السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها. وكذا قال أبو مالك، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : المراد بقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن . ويُقَوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعنى : الذين فى السفن ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أى : مما أصابهم ﴿ إِلا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع ، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلّمكم إلى أجل مسمى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ

مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكترائهم بذنوبهم التى أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى : لعل اللّه باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم اللّه على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء اللّه لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة اللّه فيهم ، ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى :١٨]، قال اللّه عز وجل: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه ـ واللّه أعلم ـ نفخة الفزع، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر اللّه تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يُطوِّلها ويَمُدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً ـ وهى صفحة العنق ـ يتسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال: ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه هى النفخة الثالثة، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ، والنَّسلان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ يعنون : قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد . قال أُبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة : وذلك بين النفختين . فلذلك يقولون : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من السلف : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة. ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ، وذلك كقوله تعالى فى الصافات : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات: ٢٠ ، ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣، ١٤]، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٥٢] . أى: إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون، ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى: من عملها ، ﴿ وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا فى رَوْضات الجنات أنهم فى شغل عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم . قال الحسن البصرى وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة . وقال ابن عباس: ﴿فَاكِهُونَ ﴾ : أى فرحون . وقال عبد الله بن مسعود ،وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرِمة ، والحسن ، وقتادة ، فى قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار . وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه : ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ : أى بسماع الأوتار . وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار .

وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ قال مجاهد : وحلائلهم ﴿فِي ظِلالٍ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة وغيرهم: ﴿ الأَرَائِكِ ﴾ : هى السرر تحت الحجال. قلت: نظيره فى الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين، والله أعلم . وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنوعها ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

وقوله: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة . وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلام ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ربع

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى: يميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدْعَين فرقتين ، ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٢٢، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ : هذا تقريع من الله للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا ﴾ والمراد بذلك : الخلق الكثير، قاله مجاهد ، والسُّدِّيّ ، وقتادة .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ أى : أفما كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له ، وعدُولكم إلى اتباع الشيطان ؟!

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزَت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى: هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٣ ـ ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم اللّه على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول: رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز على إلا شاهداً من نفسى. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهودا . فيختم على فيه ، ويُقال لأركانه : انطقى . فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكن وسُحقاً ، فعنكنّ كنتُ أناضل » . رواه مسلم والنسائى (١) .

وعن أبى هريرة ، عن رسول اللّه ﷺ فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ـ ويثنى بخير ما استطاع ـ قال: فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه، فيختَم على فيه، ويقال لفخذه: انطقى . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط اللّه عليه ». رواه مسلم وأبو داود بطوله (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه، فَخذُه من الرجل اليسرى». وقد جوَّد إسناده الإمام أحمد فروى عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذه من الرجل الشمال » (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم . وقال الحسن البصرى : لو شاء اللّه لطمس على أعينهم ، فجعلهم عُمياً يترددون . وقال السدى : لو شئنا أعمينا أبصارهم . قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعنى : الطريق . وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟ وقال ابن عباس : ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ : لا يبصرون الحق .

---

(١) مسلم (٢٩٦٩/١٧) ، والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) .
(٢) مسلم (٢٩٦٨/١٦) وأبو داود (٤٧٣٠) .
(٣) المسند (٤/ ١٥١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١/ ٣٥١) : « إسناده جيد » .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أهلكناهم . وقال السدى : يعنى : لغيرنا خَلْقهم . وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة . وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ أى : إلى أمام ﴿ وَلا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال عز وجل: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج: ٥] . والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشَّبِيبَة ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾: يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر، ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أى: وما هو فى طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبِلّته.

وثبت فى الصحيحين أنه ﷺ ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لاهُمّ لولا أنت مَا اهتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصـدَّقْنَا ولاَ صَلَّينَا

فـأنْزِلَنْ سكينَة عـلَيْنَـا ... وَثَبِّت الأقْدَام إنْ لاقَينَا

إنّ الأُلى قَدْ بغَوا علَينَا ... إذا أرادُوا فتْنَة أبَينَا

ويرفع صوته بقوله : « أبينا » ويمدها (١) .

وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أنا النبىّ لا كَذبْ ... أنا ابنُ عَبْد المُطّلبْ (٢)

لكن قالوا :هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

---

(١) البخارى (٧٢٣٦) ، ومسلم (١٨٠٣/ ١٢٥) . (٢) البخارى (٢٨٦٤) ، ومسلم (١٧٧٦/ ٧٨) .

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غار فَنَكِبت أصبعه ، فقال :

هَلْ أنْت إلا إصْبَع دَميت وفى سبَيل الله مَا لَقيت (١)

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما عُلّم شعراً ولا ينبغى له ؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم، ﴿ الذى لا يأتيه البَاطلُ منْ بيْن يدَيْه ولا منْ خلْفه تنزيلٌ مّنْ حكيم حَميد﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضُلاَّل وآراء الجُهَّال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً .

روى الإمام أحمد عن أبى نوفل قال : سألتُ عائشة : أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك (٢) .

وروى أبو داود عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ: « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً، خير له من أن يمتلئ شعراً ». تفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣).

والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة ، وأمثالهم وأضرابهم . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك (٤) . وقد روى أبو داود من حديث أُبى ابن كعب ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكما » (٥) .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى : وما يصلح له ﴿ إنْ هُوَ إلا ذكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبين ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ﴿إلا ذكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبين﴾ أى: بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ليُنذرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أى: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حى على وجه الأرض، كقوله : ﴿ لأُنذرَكُم به وَمَن بَلَغ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ به منَ الأَحْزَاب فَالنَّارُ مَوْعدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حَىّ القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة :حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنى : عاقلا ﴿ وَيَحقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافرينَ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

---

(١) البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (١٧٩٦/ ١١٢) .
(٢) المسند (٦/ ١٤٨) وإسناده صحيح .
(٣) أبو داود (٥٠٠٩) .
(٤) رواه مسلم (٢٢٥٥/ ١) .
(٥) أبو داود (٥٠١٠ ، ٥٠١١) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ قال قتادة : مطيقون ، أى : جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسيرِ صغيرٍ .

وقوله: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : أفلا يُوحِّدُون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع اللّه ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى اللّه زلفى. قال اللّه تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خِزْيهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام. وهكذا قال الحسن البصرى. وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه اللّه .

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أى: تكذيبهم لك وكفرهم باللّه ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى: نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسُّدِّى ، وقتادة : جاء أُبى بن خلف ـ لعنه الله ـ إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يُفَتِّتُهُ ويذريه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يميتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن . وعن ابن عباس ، أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال: ونزلت الآيات من آخر « يس » . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف ، أو العاص بن وائل ، أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث .

والألف واللام فى قوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل منكر للبعث . ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ .فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ـ ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما روى الإمام أحمد عن بُسْر بن جَحَّاش؛ أن رسول الله ﷺ بَصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوَّيتك وعدَلتك ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغَت التراقى قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة ؟ ». ورواه ابن ماجه (١) .

ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى ـ ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات » وحسنه الألبانى .

سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت . روى الإمام أحمد عن رِبْعِيّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : «إن رجلا حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا متّ فاجمعوا لى حَطَبا كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمى وخَلَصت إلى عظمى فامتُحِشْتُ ، فخذوها فَذَرَوَها فى اليم . ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال: من خشيتك . فغفر الله له » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نَبَّاشا . وقد أخرجاه فى الصحيحين بألفاظ كثيرة ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يذَرْوا نصفه فى البر ونصفه فى البحر، فى يوم رائح، أى: كثير الهواء ـ ففعلوا ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له: كن. فإذا هو رجل قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت ؟ فقال: مخافتك وأنت أعلم. فما تلافاه أن غفر له » (١) .

وقوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضراً نَضراً ذا ثمر ويَنْع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شىء . قال قتادة فى قوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك سَرْح المرخ والعَفَار ، ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قَدْح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف :٣٣] ، وقال : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى : يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار .

(١) المسند (٥/ ٣٩٥) والبخارى (٦٤٨٠) ، ومسلم (٢٧٥٦/ ٢٤) .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذَر ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقول : يا عبادى ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو المنعم المتفضل .

ومعنى قوله: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك ﴾ [الملك :١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورَحَمُوت ، ورَهْبَة ورهبوت ، وجَبْر وجَبَروت . ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل، والنسائى ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل ، وكان يقول : « الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ». ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : «سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحوا من ركوعه ، وكان يقول فى قيامه: « لربى الحمد » . ثم سجد، فكان سجوده نحوا من قيامه ، وكان يقول فى سجوده: « سبحان ربى الأعلى ». ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوا من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى، رب اغفر لى » . فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ـ أو الأنعام ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبى داود [٢] . وروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ». ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة . ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائى [٣] .

---

(١) المسند (٥/ ١٧٧) وإسناده حسن .

(٢) أبو داود (٨٧٤) ، والترمذى فى الشمائل (٢٦٠) ، والنسائى (١٠٦٩) وصححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٨٧٣) ، والترمذى فى الشمائل (٢٩٦) ، والنسائى (١٠٤٩) وصححه الألبانى .

تفسير سورة الصافات
وهى مكية

روى النسائى عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائى(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) ﴾

عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ وهى: الملائكة ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهى: الملائكة ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هى: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وقتادة. قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء. وروى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» (٢). وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون فى الصف» (٣).

وقال السدى وغيره: معنى قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدى: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا .عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى : ﴿ رَبُّ المشرقين ورب المغربين ﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

---

(١) النسائى فى سننه (٨٢٦) وصححه الألبانى . (٢) مسلم (٥٥٢ / ٤) .

(٣) مسلم (٤٣٠ / ١١٩) وأبو داود (٦٦١) والنسائى فى سننه (٨١٦) وابن ماجه (٩٢٢) .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه زَين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض﴿ بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨]. وقوله هاهنا: ﴿ وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظا ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله بما يقوله من شرعه وقدره. ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أي: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ ولهذا قال: ﴿إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مستنير. روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرْمى. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث. قال: فَبَثّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة ـ قال وكيع: يعني بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث (١) . وستأتي الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

---

(١) ابن جرير في التفسير (٢٣ / ٢٥) .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ ـ وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» ـ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيِّد الذى يلتزق بعضه ببعض . وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد.

وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أى: بل عجبت ـ يا محمد ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ ربع

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدِموا كلَّ الندم حيث لا

ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وعن عمر: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. يجىء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم.

وقوله : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى : ارشدوهم إلى طريق جهنم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أى: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون. وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زَائدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة، كما يتخاصمون فى دركات النار ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]. وهكذا قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء. وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس

للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه. وقال السدى: تأتوننا من قبل الحق، تزينون لنا الباطل، وتصدونا عن الحق. وقال الحسن فى قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾: إىْ والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه. وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به. وقال يزيد الرشْك: من قبل «لا إله إلا الله». وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم. وقال عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من حيث نأمنكم. وقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ. فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى: دعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ. إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى : فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون. عن أبى هُرَيرة ، قال : قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فمن قال : لا إله إلا الله ، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله ، وأنزل الله فى كتابه ـ وذكر قوما استكبروا ـ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾» (١). ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أى: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرْعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: صدّقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله فى شرعه وأمره كما أخبروا، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت:٤٣].

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) مسلم (٢١ / ٣٣) بدون ذكر الآية .

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ـ٣]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ـ٦] ، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أى: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أى: يُخْدمون ويرفهون وينعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ . لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩] ، فنزه الله خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن ـ وهو الغول ـ وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك. وقوله: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا، وهو وجع البطن ـ قاله ابن عباس ، مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها. وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. ، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن. وقوله: ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، والحسن، وعطاء الخراسانى، وغيرهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات» .

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أى: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف

عليه السلام حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي : هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي ، وهكذا الحور العين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن: يعنى: محصنون لم تمسه الأيدى. وقال السدى: البيض فى عشه مكنون. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُن بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض. وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله : ﴿ مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدى بخلاف داخلها، والله أعلم.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها ؛ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم فى تنادمهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطانا. وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا. ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤ ـ ٦] ؛ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أى: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ؟! يعنى : يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون ؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب

القرظى: لمجزيون بأعمالنا ؟ وكلاهما صحيح.

قال تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، يعنى فى وسط الجحيم. وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك، ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ : هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾. قال ابن عباس، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٩]، قال ابن عباس : قوله:﴿ هَنِيئًا﴾ أى: لا يموتون فيها. فعندها قالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، قيل : لا. قالوا: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾. وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ الشَّيَٰطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ، خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ؟ أى: التى فى جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم ، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله عز

وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غذت من النار، ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا نختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦٠].

وقوله: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾: ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما فى معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. وروى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟». ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح [1]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس : يعنى شرب الحميم على الزقوم . وقال فى رواية عنه : ﴿شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ : مزجا من حميم. وقال غيره: يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة فى هذا وتارة فى هذا، كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية ، وهو تفسير حسن قوى. وقال السدى فى قراءة عبد الله: « ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذى نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] . وعن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم». قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠٢) من آل عمران .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ . إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا، فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة. لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أى: فلنعم المجيبون له، ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال قتادة فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وروى الإمام أحمد: عن سمرة؛ أن نبى الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». ورواه الترمذى (١) . والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح ، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: هكذا نجزى من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك. ثم قال: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم، فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

---

(١) المسند (٥/ ٩) والترمذى (٣٩٣١) وقال : « حديث حسن » .

ربع

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ وَإِنَّ مِن شيعته لإبْرَاهِيمَ ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيه وَقَوْمه مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿ أَئفكًا آلهَةً دُونَ اللَّه تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال قتادة: يعنى: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر،فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِين﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر:نظر فى النجوم: يعنى قتادة:أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به، فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى: ضعيف. فأما الحديث الذى رواه ابن جرير عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى» (١). فهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى، كما جاء فى الحديث: «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » (٢). قال سفيان فى قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ يعنى: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وقال آخرون: فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعنى: مرض الموت. وقيل: أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾أى: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى.

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ٤٥) . وهو فى البخارى (٣٣٥٨) والترمذى (٣١٦٦) .

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩) عن عمران بن الحصين ، مرفوعا وموقوفا ، والموقوف أصح .

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أى: إلى عيدهم، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ أى: ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء، ﴿ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُون ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبارك لهم فيه.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِين ﴾ قال الفراء: معناه: مال عليهم ضربا باليمين. وقال قتادة والجوهرى: فأقبل عليهم ضربا باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك . وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّون ﴾ قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون . وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفى سورة الأنبياء مبسوطة ، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم ، عليه السلام ، هو الذى فعل ذلك . فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم ، فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُون ﴾ ؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيم ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يعنى: أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ

ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بِكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣] . وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] ، أي : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكْرمة وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي : امض لما أمرك الله من ذبحي﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي : سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل . وصدق ، صلوات الله وسلامه عليه ، فيما وعد ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ، ٥٥] . قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت . وقيل : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ ، يعني : استسلما وانقادا ؛ إبراهيم امتثل أمرَ الله ، وإسماعيل طاعة الله وأبيه . قاله مجاهد ، وعكرمة والسدي وغيرهم . ومعنى ﴿ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي : صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ، ليكون أهون عليه ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير، والضحاك ، وقتادة : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ : أكبه على وجهه . وروى

الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالمناسك عَرَض له الشيطان عند المسعى، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفننى فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودىَ من خلفه: ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أى: قد حصل المقصودُ من رؤياك وإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدى وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودى إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى: الاختبار الواضح الجلى ؛ حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله ، منقادا لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧] .

وقوله: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ عن ابن عباس قال: الصخرة التى بمنى بأصل ثَبِير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر. وعنّ ابن عباس: كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش . وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم ـ وَلَدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ـ وقال) مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك النبى ﷺ؟ قال: قال: «إنى كنتُ رأيتُ قرنى الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت، فاحترقا (٢) . وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: لما تقدمت البشارة بالذبيح ـ وهو إسماعيل ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق. وقوله: ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال مقدرة ، أى : سيصير منه نبى من الصالحين . وقوله : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ كقوله تعالى :

(١) المسند (٢٧٠٧) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٤ / ٦٨) ، وأبو داود (٢٠٣٠) ، وصححه الألبانى .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده فى حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم فى أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، وغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ [الأنبياء: ٤٨] ، وقال هاهنا: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: فى الأقوال والأفعال ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ أى: أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

قال قتادة، وابن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس. وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة: ﴿ بَعْلاً ﴾ يعنى: ربا. قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة . وقال ابن إسحاق : أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

أى للعذاب يوم الحساب ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى: الموحدين منهم. وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أى: ثناء جميلا، ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ كما يقال فى إسماعيل: إسماعين. وهى لغة بنى أسد. وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة ابن مسعود. وآخرون: «سَلامٌ عَلَىٰ آلْ يَاسِين »، يعنى: آل محمد ﷺ. وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قد تقدم تفسيره.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ربع

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى» ونَسَبَه إلى أمه(١) ، وفى رواية قيل: إلى أبيه. وقوله : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالأمتعة﴿فَسَاهَمَ﴾ أى: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبى الله يونس، عليه الصلاة والسلام، ثلاث مرات، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه،

---

(١) البخارى (٣٣٩٥) ومسلم (٢٣٧٧ / ١٦٧) .

فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت،حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعين يوما. وقال الشعبى: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وفى حديث عن ابن عباس: «تَعَرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » (١) . وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء بن السائب، وقتادة: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ يعنى: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبويه. وقيل: المراد: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨] ، قاله سعيد بن جبير وغيره.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ أى: ألقيناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم. ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا. ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. و عن سعيد ابن جُبَيَر: وكل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين. وفى رواية عنه: كل شجرة تَهْلِكُ من عَامِها فهى من اليقطين. وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه من نواحى الصَّحْفة (٢) .

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير. وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس ـ فى رواية عنه: بل يزيدون، وكانوا مائة

(١) المسند (٢٦٦٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٢٥١٦) ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) البخارى (٥٤٣٩) .

وثلاثين ألفا. وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفا. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف ، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. ولهذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] ، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ، وقوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم : ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك ، بل أزيد . وقوله : ﴿ فَآمَنُوا ﴾ أي : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ، عليه السلام ، جميعهم ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : إلى وقت آجالهم، كقوله : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس:٩٨] .

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يودّون لأنفسهم الجيد. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عز وجل: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُون ﴾ كقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] .

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم ؟ كقوله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩] أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ ﴾ أي: صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال منكرا عليهم: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِين ﴾ أي: أيّ شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين ؟ كقوله: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠] ؛ ولهـذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي : ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ؟ ﴿ أَفَلا

تَذَكَّرُونَ .أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: حجة على ما تقولونه ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يُجَوِّزه العقل بالكلية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر: فمن أمهاتهن ؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم. وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا. وقوله: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبى ومرسل.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أى: إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذُرِئَ للنار﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] . فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٨ ، ٩] أى: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنَزّها للملائكة مما نَسَبُوا إليهـم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى : له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه . وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال: كان مسروق يَرْوى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (١) . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أى: نقف صفوفاً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ قال الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ ،

---

(١) مشكل الآثار للطحاوى (٢/ ٤٣) ، والحديث رواه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٥٢) ، وقال : « إسناد صحيح على شرط مسلم ، وفى ابن عطاء كلام لا يضر » .

فصفوا. وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ ، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر. وفى صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهورا» الحديث (١) .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه . وقال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ : الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل. وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ يعنى: المصلون، يثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩] .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢] ، وقال: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ـ عز وجل ـ وتكذيبهم ـ رسوله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أى: فى الدنيا

(١) مضى تخريجه فى أول السورة .

والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى : اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: نسأ ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد : ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ . ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومُهم، بإهلاكهم ودمارهم . قال السدى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ يعنى: بدارهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أى: فبئس ما يتصبحون ، أى: بئس الصباح صباحهم ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أنس ، قال : صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة قال : لما صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر ، وقد أخذوا مساحيهم وغدَوا إلى حروثهم وأرضيهم ، فلما رأوا النبى ﷺ نكصوا مدبرين ، فقال نبى الله ﷺ : « الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (٢) . لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ينزه تعالى نفسه ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أى: ذى العزة التى لا تُرام﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيته، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة،

---

(١) البخارى (٣٧١ ، ٤١٩٧) ومسلم (١٣٦٥ / ١٢٠) .

(٢) المسند (٤/ ٢٨) .

ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك »[1]. وقد أفردت لها جزءا على حدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) انظر على سبيل المثال : المسند (٣/ ٤٥٠) والترمذى (٣٤٣٣) وأبو داود (٤٨٥٨) والحاكم فى المستدرك (٥٣٦/١ ، ٥٣٧) .

تفسير سورة ص
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد. قال الضحاك فى قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبى خالد: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة. ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٤]. وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوْا﴾ أى: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله . وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئا . كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣].

وقال ابن عباس : ليس بحين مغاث. وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم. وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء. وقال مجاهد: ليس بحين فرار ولا إجابة. وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزاد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، ومنهم من جوز الجر بها . وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول الله ﷺ بشيرا ونذيرا، كما قال عز وجل: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢] . وقال هاهنا: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ أى: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ امْشُوا ﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ ، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب،دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل ، فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته ؟ فبعث إليه، فجاء النبى ﷺ فدخل البيت ، وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، قال : فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرقّ له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس،ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب:

أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : « يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة ! نعم وأبيك عشرا ، فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يابن أخى ؟ فقال: « لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى نحوه، ورواه الترمذى، نحوه. وقال الترمذى: حسن(1). وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى. وقال ابن عباس: يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى. ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١] قال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف:٣٢] ؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبّ ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعّا.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنابه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء:٥٣ـ ٥٥] ، وقوله : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦] .

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣/ ٧٩) والنسائى فى الكبرى (١١٤٣٦ ، ١١٤٣٧) والترمذى (٣٢٣٢).

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴾ أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: يعنى طرق السماء. وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة. ثم قال: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ أى: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وكان ذلك يوم بدر، ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٤ـ ٤٦] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة فى أماكن متعددة.

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ أى: كانوا أكثر منكم وأشد قوة ، وأكثر أموالا وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شىء، لما جاء أمر ربك؛ ولهذا قال: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. وقوله: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم: أى ليس لها مَثْنَوية، أى: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى : فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله عز وجل.

قوله: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب ، وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب ـ زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا ذلك فى الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا. وهذا الذى قاله جيد ، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ، عليه السلام : أنه كان ذا أيد ، والأيد : القوة فى العلم والعمل . قال ابن عباس وابن زيد والسدى : الأيد : القوة ، وقرأ ابن زيد : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧] . وقال مجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة .وقال قتادة: أعطى داود عليه السلام ، قوة فى العبادة، وفقها فى الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر. وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى» (١) . وإنه كان أوابا، وهو الرجاع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه.

وقوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ أى: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠] . وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف فى الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعا له. ولهذا قال : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أى : محبوسة فى الهواء ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّاب ﴾ أى: مطيع يسبح تبعا له . قال سعيد بن جبير، وقتادة، زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّاب﴾ أى: مطيع.

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَه﴾ أى: جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك. قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً. ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَة ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب. وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدى: ﴿ الْحِكْمَة﴾: النبوة . ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ قال شريح القاضى ، والشعبى : فصل الخطاب : الشهود والأيمان . وقال قتادة : شاهدان على المدعى ، أو يمين المدعى عليه ، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل ـ أو قال : المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمى. وقال مجاهد ، والسدى : هو إصابة القضاء وفهم ذلك . وقال مجاهد أيضا : هو الفصل فى الكلام وفى الحكم . وهذا يشمل هذا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير. وكذا قال الشعبى: فصل الخطاب : « أما بعد » .

---

(١) البخارى (١١٣١) ومسلم (١١٥٩/١٨١) .

ربع ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ سجدة

وقوله: ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُم ﴾: إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه، وهو أشرف مكان فى داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى: غَلَبنى. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب . وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قال ابن عباس: أى اختبرناه. وقوله: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى: ساجدا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة فى سجدة «ص»، هل هى من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى أنها ليست من عزائم السجود، بلى هى سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى .وقال الترمذى: حسن صحيح [١] . وروى البخارى عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال : أو ما تقرأ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] ، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ، فكان داود، عليه السلام، ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ [٢] . وروى أبو داود: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّن الناس للسجود ، فقال: « إنما هى توبة نبى، ولكنى رأيتكم تَشَزَّنْتُم » . فنزل وسجد، وسجدوا. تفرد به أبو داود [٣] ، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآب﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية فى الجنة، لتوبته وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى

---

(١) المسند (٣٣٨٧) والبخارى (١٠٦٩) وأبو داود (١٤٠٩) والترمذى (٥٧٧) .

(٢) البخارى (٤٨٠٧) . (٣) أبو داود (١٤١٠) .

الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا » (١) .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبى حاتم عن إبراهيم أبى زرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل فى أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله ـ عز وجل ـ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده فى كتابه فقال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾: هذا من المقدم والمؤخر،لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.وقال السدى:لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.وهذا القول أمشى على ظاهر الآية،والله سبحانه الموفق للصواب .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أى: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين ، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أى: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم

(١) مسلم (١٨٢٧/ ١٨) .

يموت بكمده، فلابد فى حكمة الحكيم العليم العادل، الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي : ذوو العقول ، وهى الألباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصرى: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ،ما يرى له القرآنُ فى خلق ولا عمل.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾

يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان ، أى: نبيا، كما قال عز وجل: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ أى: إذ عرض على سليمان فى حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد : وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف . عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ـ أو خيبر ـ وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة ـ لُعَب ـ فقال: «ما هذا يا عائشة ؟» قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذى أرى وسطهن ؟ ». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذى عليه ؟ ». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ (١) .

وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها ». فقال: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ نبى الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب (٢) . ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال.

---

(١) أبو داود (٤٩٣٢) ، وصححه الألبانى . (٢) البخارى (٤١١٢) ومسلم (٦٣١ / ٢٠٩) .

والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة فى فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعى، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة. وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف. وقال ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها.

وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها، وهى الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل. وروى الإمام أحمد عن أبى قتادة وأبى الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال : « إنك لا تدع شيئا اتقاء الله ـ تعالى ـ إلا أعطاك الله خيرا منه »[1] .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم: يعنى شيطانا ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته. ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ قال بعضهم : معناه : لا ينبغى لأحد من بعدى ، أى : لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدى ، كما كان من قضية الجسد الذى ألقى على كرسيه ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس . والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله ، وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ .

روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة ، فأمكننى الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية

(١) المسند (٥/ ٧٨) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٢٩٩) : « رجاله رجال الصحيح » .

من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان ، عليه السلام: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ . قال روح : فرده خاسئا .وكذا رواه مسلم والنسائى، من حديث شعبة ، به (١) . وروى مسلم عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى، فسمعناه يقول: « أعوذ بالله منك » . ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » ـ ثلاثا ـ وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا :يا رسول الله ،قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يتأخر ـ ثلاث مرات ـ ثم اردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ ، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: « لو رأيتمونى وإبليس ، فأهويت بيدى ،فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعى هاتين ـ الإبهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وقد روى أبو داود منه : « من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » (٣) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله الديلمى قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو فى حائط له بالطائف يقال له: « الوهط » ، وهو مخاصر فتى من قريش يزن بشرب الخمر ، فقلت :بلغنى عنك حديث أنه « من شرب شربة خمر لم يقبل الله ، عز وجل ، له توبة أربعين صباحا،وإن الشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه»، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ، ثم انطلق. فقال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحل لأحد أن يقول على مالم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول:« من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه . فإن عاد ـ قال : فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة ـ فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة » . قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل » . وسمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حكما يصادف حكمه ،

---

(١) البخارى (٤٨٠٨) ومسلم (٥٤١/ ٣٩) والنسائى فى الكبرى (١١٤٤٠) .
(٢) مسلم (٥٤٢/ ٤٠) .
(٣) المسند (٣/ ٨٣) وأبو داود (٦٩٩) ، وصححه الألبانى .

فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها » (١) . وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائى وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ، عز وجل ، خلالا ثلاثا » وذكره (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاء إلا استفتحه « سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب » (٣) .

وقوله: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ قال الحسن البصرى : لما عقر سليمان الخيل غضبا لله ، عز وجل ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى : حيث أراد من البلاد. وقوله: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أى: منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللآلى والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أى : موثوقون فى الأغلال والأكبال ، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى .

وقوله: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك ، أى : مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبداً رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به ، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله به ـ وبين أن يكون ملكا نبيا ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل ، فقال له : تواضع . فاختار المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة فى المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا ، فقال : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى : فى الدار الآخرة .

---

(١) المسند (٦٦٤٤) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح » .والحديث فى المخطوطة والمطبوعة عن « ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمى » . وهو خطأ ، فإنهما اسمان، وربيعة إنما يروى عن عبد الله . والصواب ما أثبتناه » كما هو فى المسند .

(٢) النسائى (٦٩٣) وابن ماجه (١٤٠٨) ، وصححه الألبانى وحرف « ابن عمرو » فى المطبوعة إلى « ابن عمر ».

(٣) المسند (٤/ ٥٤) قال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ١٥٩) : « فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب ، عليه السلام ، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه،غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه ، وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزايل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته ، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريباً . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، فقال : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وفى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ رَبُّ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ قيل : بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى. ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر ، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ .

روى ابن جرير، وابن أبى حاتم جميعاً عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « إن نبى الله أيوب ، عليه السلام ، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب: لا أدرى ما تقول ، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله ، عز وجل ، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما،كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ، فاستبطأته ، فالتفتت تنظر ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان . فلما رأته قالت : أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله المبتلى ؟ فوالله على ذلك، ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا . قال : فإنى أنا هو . قال : وكان له

أندران ، أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير [١] . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينما أيوب يغتسل عريانا، خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثو فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال:بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » . انفرد بإخراجه البخارى ، من حديث عبد الرزاق ، به [٢] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم . وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى : به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : لذوى العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها فى أمر فعلته. قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة . وقيل : لغير ذلك من الأسباب . فلما شفاه الله وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، عز وجل، أن يأخذ ضغثاً ـ وهو: الشِّمراخ ـ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه ، وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى: رَجَّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] .

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ يعنى بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة. قال ابن عباس: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي ﴾ يقول: أولى القوة ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ يقول: الفقه فى الدين. وقال مجاهد: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي ﴾ يعنى: القوة فى طاعة الله ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ يعنى: البصر فى الحق. وقال قتادة والسدى: أعطُوا قوة فى العبادة وبَصرًا فى الدين.

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ١٠٧) ورواه البزاز فى مسند (٢٣٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ٢٠٨) : «رجال البزار رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٨١٤٤) والبخارى (٢٧٨) .

وقوله: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمٌّ غيرها. وكذا قال السدى: ذكرهم للآخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وقال سعيد بن جُبَيْر: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال فى رواية أخرى: ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ : عقبى الدار. وقال قتادة: كانوا يذكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصةً أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون. وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ : قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أى: هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر. وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ربع

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى الدار الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد فى ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ قيل: متربعين فيها على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨] . ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدها لعباده المتقين، التى يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى مآل السعداء ، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال عز وجل: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أى: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشياء من هذا القبيل، الشىء وضده يعاقبون بها. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد ،عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غسَّاق يهراق فى الدنيا، لأنتن أهل الدنيا » ورواه الترمذى (١) . وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة ، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ : هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] ، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية : ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أى: داخل معكم، ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أى : لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ، كما قال عز وجل: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] ، أى: لكل منكم عذاب بحسبه.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ ، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون

---

(١) المسند (٣/ ٢٨) والترمذى (٢٥٨٤) ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ٦٠٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى .

فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار ؟ قال مجاهد: هذا قول أبى جهل ، يقول : ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا . وهذا مثل ضرب ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فى الدنيا ، ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا فى جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩]. وقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى : إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد ، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: هو وحده قد قهر كل شىء وغلبه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: غفار مع عزته وعظمته. ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياى إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أى: غافلون. قال مجاهد، وشريح القاضى، والسدى فى قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أى: لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعنى: فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه. فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن معاذ ، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فَثَوّب بالصلاة فصلى، وتَجَوّز فى صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدّر لى، فنعست فى صلاتى حتى استيقظت، فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدرى رب ـ أعادها ثلاثا ـ فرأيته وضع كفه بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى

الجمعات[1] ، والجلوس فى المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال: سل. قلت : اللهم، إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك ». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق. وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى وقال: «حسن صحيح » [2] وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن فإن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾

هذه القصة ذكرها الله تعالى ، فى سورة « البقرة »، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، و «سبحان»، و«الكهف»، وهاهنا. وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر: متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامتثالا لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، فى زعمه. وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذى لا يَعْجَل على

---

(١) فى المطبوعة : « الجماعات » والمثبت من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٥/٢٤٣) والترمذى (٣٢٣٥) .

من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ كما قال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى، وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٥] .

وقوله : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى ، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدى: هو قسم أقسم الله به. قلت : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة. عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه (١).

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعنى: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩] ، وكقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧]. وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ أى: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أى: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعنى يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة. وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ : قال الحسن : يا بن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

---

(١) البخارى (٤٨٠٩) ، ومسلم (٢٧٩٨/٣٩) .

تفسير سورة الزمر
وهى مكية

روى النسائى عن عائشة ، قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: المنيع الجناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له. وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر عز وجل عن عبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة، والسدى، وزيد بن أسلم: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة. ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه،

(١) النسائى فى الكبرى (١١٤٤٤) ، والترمذى (٢٩٢٠) ، وقال : « حسن غريب » .

وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بردها والنهى عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به ، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ، ٤١]. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٧] ، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم. وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أى: سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم.

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه. وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهى المذكورة فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٣] ، ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] .

وقوله: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى: قدركم فى بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] . وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة ـ التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة. وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف فى جميع ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أى: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم ؟!

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾ ربع

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] .وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا » (١) . وقوله ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أى: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أى: يحبه منكم ويزدكم من فضله. ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى: فلا تخفى عليه خافية.

---

(١) مسلم (٢٥٧٧/٥٥) .

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أندادا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهو تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٩) ﴾

يقول عز وجل: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] ، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال ابن مسعود : القانت: المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس، والحسن: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ : جوف الليل. وقال منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ : أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولابد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه. عن يحيى البكّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان. وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه.

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان . وقال عطاء فى قوله : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧]. ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفا. وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك. وقال السدى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ : يعنى فى الجنة.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، قال السدى: يعنى من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾، وهذا أيضا تهديد وتَبَرٍ منهم، ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أى: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾، كما قال: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١] ، وقال: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥] . وقوله: ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أى: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى: اخشوا بأسى وسطوتى، وعذابى ونقمتى.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

قال زيد بن أسلم : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبى ذر، وسلمان الفارسى. والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

ثم قال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أى: يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة ، أى: ذوو العقول الصحيحة، والفِطَر المستقيمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِى تَقْدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى: لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفا فى الجنة، وهى القصور الشاهقة، ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ أى : طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات. روى الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام ». تفرد به أحمد [١] . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء » . قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش ، فقال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: «كما تراءون الكوكب الدرى فى الأفق الشرقى أو الغربى». أخرجاه فى الصحيحين [٢] ، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ [٣] . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف ، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع، فى تفاضل أهل الدرجات » . فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل ». ورواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قلنا : يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَمَمْنَا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم

---

(١) المسند (٥/ ٣٤٣) . ورواه الحاكم فى مستدركه (١/ ٨٠) وصححه ، ووافقه الذهبى .
(٢) المسند (٥/ ٣٤٠) والبخارى (٦٥٥٥) ومسلم (٢٨٣٠ ، ٢٨٣١/ ١١) .
(٣) البخارى (٦٥٥٦) ومسلم (٢٨٣١/ ١١) .

تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حدّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب ولَبِنَةٌ فضّة، وملاطها المسك الأذفَر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُرَدَّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » . ورواه الترمذى، وابنُ ماجه (١) .

وقوله : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أى : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاؤوا وأين أرادوا ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعدَه الله عباده المؤمنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان:٤٨] ، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض،ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء،ويُنبعهُ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ . عن ابن عباس فى قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ قال : ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق فى الأرض تغيره ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده . وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى: أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء . وقال سعيد بن جبير : أصله من الثلج ، يعنى : أن الثلج يتراكم على الجبال ، فيسكن فى قرارها ، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ قد خالطه اليُبْس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أى: ثم يعود يابسا يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل

(١) المسند (٨٠٣٠) وصحح شاكر إسناده، والترمذى (٣٥٩٨) وابن ماجه (١٧٥٢) وقال الترمذى: «حديث حسن ».

الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زروعا وثمارا ، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] .

وقوله: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله عز وجل: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ﴿ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

هذا مَدْحٌ من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثانى. وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك: ﴿ مَّثَانِيَ ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل. وقال عكرمة، والحسن: ثَنَّى الله فيه القضاء ـ زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها. وقال ابن عباس: ﴿ مَّثَانِيَ﴾ : القرآن يشبه بعضه بعضا، ويُرَد بعضه على بعض. وقال بعض العلماء ـ ويُرْوى عن سفيان بن عيينة: معنى قوله: ﴿مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾: أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشىء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثانى، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] ، وكقوله: ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] ، إلى أن قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثانى، أى: فى معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات ، من أصوات القَيْنات.

الثانى: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحاب ة، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى فى الدنيا والآخرة.

قال مَعْمَر : تلا قتادة : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكى أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان. وقال السُّدِّى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: إلى وعد الله.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣] .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقْرَعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال عز وجل: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] ، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر. وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء ﷺ،

والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، فإن المثل يُقَرِّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى : يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد.

ثم قال: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أى : يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم ، ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ أى : خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ؟ أى : لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بيِّنا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

روى ابن أبى حاتم عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد. وكذا رواه الإمام أحمد ، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما ـ يعنى ـ هما الأسودان: التمر والماء ؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن [١] . وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح [٢] . وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد [٣] .

وقال ابن عباس: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم، والمهتدى الضال، والضعيف المستكبر. وقال أبو العالية: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾: يعنى أهل القبلة . وقال ابن زيد : يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر . وقد قدمنا أن الصحيح العموم ، والله أعلم .

الجزء ٢٤

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل، كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق ؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد:

---

(١) المسند (١٤٠٥) والترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٩) . وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (١٤٣٤) والترمذى (٣٢٣٦) . وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح »

(٣) المسند (٤/ ١٥١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٣٩) : « رواه أحمد بإسناد حسن » .

﴿ الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ ﴾: هو رسول الله ﷺ. وقال السدى: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: محمدا ﷺ. وقال ابن عباس: ﴿ وَالَّذي جاءَ بالصِّدْقِ ﴾: من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعنى: محمدا ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس: « الذين جاؤوا بالصدق » يعنى: الأنبياء، «وصدقوا به » يعنى: الأتباع. وقال مجاهد: ﴿ وَالَّذي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيؤون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَالَّذي جاءَ بالصِّدْقِ ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: فى الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «عباده » ـ يعنى: أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ

هنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِه﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر. عن ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا »(١) .

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّه ﴾ أى : الله كافىّ ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون ، كما قال هود ، عليه السلام، حين قال له قومه : ﴿ إن نقول إلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] . وقوله: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُم ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد ﴿ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أى: على طريقتى ومنهجى، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة ـ أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَاب﴾ يعنى: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أى: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِه﴾ أى : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أى: بموكل أن يهتدوا ، ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا

(١) المسند (٢٦٦٩) والترمذى (٢٥١٦) وقال : « حديث حسن صحيح » .

فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملأ الأعلى. وفى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْيَنفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[1] . وقال بعض السلف : يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدى : إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير. ثم قال: قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة ،فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وحده﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: نفرت وكفرت واستكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) ﴾

---

(١) البخارى (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤/ ٦٤) .

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون﴾ أى: فى دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. روى مسلم عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن قال: سألت عائشة :بأى شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»(١). وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن قال : أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى مسلم». تفرد به أحمد (٢) . وروى أحمد عن أبى راشد الحُبْرَانى قال: أتيت عبد الله ابن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يَدَى صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله، علمنى ، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم». ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب من هذا الوجه (٣) .

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أى : وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم ، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

---

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠) .
(٢) المسند (٦٥٩٧) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .
(٣) المسند (٦٨٥١) والترمذى (٣٥٢٩) . وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان أنه فى حال الضراء يتضرع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خوَّلنى هذا! قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خير عندى. قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعم ، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدَّعون ما يَدّعون. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى : من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] .

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

ربع

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ

تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

روى البخارى عن ابن عباس ؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى(١) . والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

فالمراد : أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦] ، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣] ، ثم قال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] . قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! والآيات فى هذا كثيرة جدا. وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى قتل تسعا وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت ، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد (٢) هذا معنى الحديث.

(١) البخارى (٤٨١٠) ، ومسلم (١٢٢/ ١٩٣) ، وأبو داود (٧٢٧٤) ، والنسائى (٧/ ٨٦) .
(٢) البخارى (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦/ ٤٦) .

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤] ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وعن شُتَير بن شكَل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] ، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضًا : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا .وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] . فقال له مسروق: صدقت. و عن أبى الكنود قال : مر عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ على قاص ، وهو يذكر الناس ، فقال : يا مذكر، لم تُقَنِّط الناس؟ ثم قرأ: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به أحمد (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله قوما يذنبون فيغفر لهم » . وأخرجه مسلم والترمذى (٢) .

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

---

(١) المسند (٣/ ٢٣٨) . وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٢١٨) : « رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات » .
(٢) المسند (٥/ ٤١٤) ومسلم (٢٧٤٨/ ٩) والترمذى (٣٥٣٩) .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل. قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال: ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] ، ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٨] . وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى؟! فتكون عليه حسرة». قال: « وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى!» قال: «فيكون له الشكر». ورواه النسائى (١) .

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسوَّد فيه وجوه، وتبيّض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى: بكذبهم وافترائهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: أليست جهنم كافية لهم سجنا وموئلا، لهم فيها الخزى والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق. عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخَبَال » (٢) .

وقوله: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أى: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مُؤَمّلون كل خير.

---

(١) المسند (٢/ ٥١٢) والنسائى (١١٤٥٤/ ٢) . وروى نحوه البخارى (٣٢٤٠) ومسلم (٢٨٦٦/ ٦٥ ، ٦٦) .

(٢) المسند (٦٦٥٩)، والترمذى (٢٤٩٢). وقال الترمذى: « حديث حسن صحيح ». وصحح إسناده الشيخ شاكر .

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ (٦٢) لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) ﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قال مجاهد: المقاليد هى: المفاتيح. وكذا قال قتادة. وقال السدى: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ : ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره، عن ابن عباس : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وهذه كقوله: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨] . وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده ، لا شريك له، أنت ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعٗا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شىء، المالك لكل شىء، وكل شىء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق تعظيمه. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره . وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

روى البخارى : عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية. ورواه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذى

والنسائى بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع ؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى(٢). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه ـ كل ذلك يشير بإصبعه ـ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية. وكذا رواه الترمذى، وقال: حسن صحيح غريب (٣) .
ثم روى البخارى عن أبى هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض». ورواه مسلم (٤). وروى البخارى عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك». ورواه مسلم (٥). وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه : أنا الجبار، أنا المتكبر ، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم ». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : لَيَخِرَّن به. ورواه مسلم والنسائى وابن ماجه نحوه (٦).

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من

---

(١) البخارى (٤٨١١ ، ٧٤١٤ ، ٧٤١٥ ، ٧٤٥١) والمسند (٤٠٨٧) ومسلم (٢٧٨٦/ ١٩) والترمذى (٣٢٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٤٥١) .
(٢) المسند (٣٥٩٠) والبخارى (٧٤٥١) ومسلم (٢٧٨٦/ ٢١ ، ٢٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٥٢) .
(٣) المسند (٢٩٩٠) والترمذى (٣٢٤٠) . (٤) البخارى (٤٨١٢) ومسلم (٢٧٨٧ / ٢٣) .
(٥) البخارى (٧٤١٢) ومسلم (٢٧٨٨/ ٢٥) .
(٦) المسند (٥٤١٤) ومسلم (٢٧٨٨/ ٢٥) والنسائى فى الكبرى (٧٦٨٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) .

شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقى آخرا بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أنا: الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] ، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥] .

روى الإمام أحمد عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو : إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله ابن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين ـ لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة ـ فيبعث الله عيسى ابن مريم ، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله ـ أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل ـ أو الظل، شك نعمان ـ فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق » . انفرد بإخراجه مسلم (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة يحدث عن النبى ﷺ قال : « بين النفختين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا ؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق(٢) .

---

(١) المسند (٦٥٥٥) ومسلم (٢٩٤٠ / ١١٦) .
(٢) البخارى (٤٨١٤) .

وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أى: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أى: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ . قال الله : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أى: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أى: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦] . وهم فى تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمى، منهم من يمشى على وجهه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧] .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أى: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية ـ الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أى: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أى: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى: ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم : ﴿بَلَىٰ﴾ أى : قد جاؤونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٨ ـ ١٠] أى: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١]

أى: بعدا لهم وخسارا. وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿ زُمَرًا ﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها. وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ لمسلم: « وأنا أول من يقرع باب الجنة » (١). وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك». ورواه مسلم (٢).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم

---

(١) مسلم (١٩٦ / ٣٣٠).

(٢) المسند (٣ / ١٣٦) ومسلم (١٩٧ / ٣٣٣).

زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا ». وروى البخارى و مسلم نحوه (١) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب دُرِّى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب،ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء».وأخرجاه أيضا (٢) . وعن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عُكَّاشة».أخرجاه (٣) . ولهما عن سهل بن سعد ، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا ـ أو: سبعمائة ألف ـ آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر » (٤) .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل . ومن زعم أن «الواو » فى قوله: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النَّجْعَة، وأغرق فى النَّزْع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دُعِى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه : يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعِى، من أيها دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».ورواه البخارى ومسلم بنحوه (٥). وفيهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان،

---

(١) المسند (٨١٨٣) والبخارى (٣٢٢٥) ومسلم (٢٨٣٤/ ١٤) .

(٢) أبو يعلى فى مسنده (١٠/ ٤٧٠) والبخارى (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤/ ١٥) .

(٣) البخارى (٦٥٤٢) ومسلم (٢١٦/ ٣٦٩) . (٤) البخارى (٦٥٥٤) ومسلم (٢١٩/ ٣٧٣) .

(٥) المسند (٧٦٢١) والبخارى (٣٦٦٦) ومسلم (١٠٢٧/ ٨٥) .

لا يدخله إلا الصائمون » (١) . وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء » (٢) .

ذكر سعة أبواب الجنة ـ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها :

فى الصحيحين عن أبى هريرة فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ـ ما بين عضادتى الباب ـ لكما بين مكة وهجر ـ أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى » (٣) .

وفى صحيح مسلم، عن عتبة ابن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام » وفى المسند مثله (٤) .

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد: أى أرض الجنة. وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفى الصحيحين عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: « أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك » (٥) .

وعن أبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرْمَكة بيضاءُ مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق». رواه مسلم (٦) .

---

(١) البخارى (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢/١٦٦) .
(٢) مسلم (٢٣٤/١٧) .
(٣) البخارى (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤/ ٣٢٧) .
(٤) مسلم (٢٩٦٧/ ١٤) والمسند (٥/ ٣) .
(٥) مضى بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وخرجناه هناك .
(٦) مسلم (٢٩٢٨/ ٩٢) .

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ـ أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أى: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾. ثم قال: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله ؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد . قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

تفسير سورة غافر

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ من الله ذى العزة والعلم ،فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه. وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه. وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى. وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف. وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وهكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: يعنى: الخير الكثير. وقال عكرمة: ذى المن. وقال قتادة: ذى النعم والفواضل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قَتَلْتُ، فهل لى من توبة ؟ فقرأ عليه: ﴿حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس. رواه ابن أبى حاتم ـ واللفظ له ـ وابن جرير (١) . وروى ابن أبى حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين، تتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان ، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٤ / ٢٧) .

إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم وزاد: «فلم يزل يُرَدّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع فلما بلغ عمر خبرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخا لكم زل زلّة فسددوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[1].

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إلاَّ الَّذينَ كَفَرُوا ﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال عز وجل: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤]. ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: من كل أمة ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أي: مَاحَلُوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي. وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان والله شديداً. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي: كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذّبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

(١) حلية الأولياء (٤ / ٩٧).

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلة العرش الأربعة ، ومن حوله من الكروبيين ، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أى: يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح، ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله » (١) .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ صَدّق أمية فى شيء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وثَور تَحْتَ رِجْل يَمينه ... وَالنَّسْرُ للأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشمس تَطلعُ كل آخر لَيْـلةٍ ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتَوَرّدُ

تَأبَى فَما تَطلُع لَنَا فى رِسْلها ... إلا معَذّبَة وَإلا تُجْلَــــدَ

فقال النبى ﷺ: «صدق » (٢) . وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] .

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن ؟ » قالوا: والمزن. قال : « والعَنَان ؟ » قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً ـ قال: «هل تدرون بُعْدَ ما بين السماء والأرض ؟» قالوا: لا ندرى. قال: « بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عَدّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال، بين أظلافهن وركُبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، تبارك وتعالى، فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب. وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية،

(١) مسلم (٢٧٣٢/ ٨٦) .

(٢) المسند (٢٣١٤) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

كما قال شَهْر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعناهُمْ ذُرِّيَّاتهم (١) بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا ناقص العمل، فساويناه بكثير العمل، تفضلا منا ومنة. قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل. فيقول: إنى إنما عملت لى ولهم. فَيُلحَقُونَ به فى الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ ، وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك. ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أى: لطفت به ونجيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(١) هى قراءة ، كما مضى بيانه عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة الأنعام .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: إنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم فى غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة. قال قتادة فى قوله: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يقول: لمقتُ الله أهل الضلالة حين عُرِض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة . وهكذا قال الحسن البصرى ، ومجاهد ، والسدى ، وذَرٌّ بن عبد الله الهَمْدانى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال ابن مسعود :هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، .وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية.

والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢] ، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنَّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسّها وحَسِيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] ، وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدى كلامهم مُقدّمة، وهى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا ؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجِيبُوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] . وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أى : هو الحاكم فى خلقه ، العادل الذى لا يجور، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم. روى الإمام أحمد عن أبى الزبير قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » قال : وكان رسول الله ﷺ يُهَلِّل بهن دبر كل صلاة . ورواه مسلم وأبو داود والنسائى(١) . وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (٢) .

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٣، ٤]، و هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، فى قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢] ، وكقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] ؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ قال ابن عباس: ﴿ يَوْمَ

---

(١) المسند (٤/ ٤) ومسلم (٥٩٤/ ١٣٩) وأبو داود (١٥٠٦) والنسائى فى الكبرى (١٢٦٢) .

(٢) مسلم (٥٩٤/ ١٣٩) .

التَّلاق﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال: يلتقى فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد. وقال قتادة، والسدى وغيرهما : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقد يقال: إن يوم التلاق هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر . كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ أى: ظاهرون بادون كلهم، لا شىء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾: أى: الجميع فى علمه على السواء. ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ (١) . وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى : الذى هو وحده قد قهر كل شىء وغلبه (٢) .

وقوله: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة ؛ ولهذا قال:﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ ـ فيما يحكى عن ربه عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال ـ: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) . وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧ ، ٥٨] وقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ [الملك: ٢٧].

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (٦٧) من سورة الزمر .

(٢) مضى بتمامه وتخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام . (٣) مسلم (٢٥٧٧/ ٥٥) .

وقوله: ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد. ومعنى ﴿كَاظِمِينَ﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]. وقال ابن جُرَيْج: ﴿كَاظِمِينَ﴾ أى: باكين. وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس فى قوله : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ : وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدّ لو اطلع على فرجها. وقال الضحاك: ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟وقال السدى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أى: من الوسوسة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أى: يحكم بالعدل. قال ابن عباس: قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾. وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أى: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشىء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾ ربع

يقول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع

أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أى: أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿ وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩] أى: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أى : وما دفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات ؛ ولهذا قال : ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ هو: ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وَهَامَانَ ﴾ وهو: وزيره فى مملكته ﴿وَقَارُونَ ﴾ وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقوله : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد

أمر. قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ : وهذا عَزْمٌ من فرعون ـ لعنه الله ـ على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد. وقوله ـ قبحه الله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعون مُذَكِّراً»، يعنى: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام. وقرأ الأكثرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظهر فى الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وقرأ بعضهم: «يَظْهَرَ فى الأرض الفسادُ»، بالضم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى : لما بلغه قول فرعون : ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أيها المخاطبون﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى: عن الحق، مجرم﴿لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك فى نحورهم » (١) .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبْطياً من آل فرعون. واختاره ابن جرير، ورَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وقال ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون ، والذى قال : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص: ٢٠] . وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ ، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (٢) ، كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة

---

(١) المسند (٤/ ٤١٤) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٤٢) وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين وأكبر ظنى أنهما لم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وقال : « غريب من هذا الوجه » ، وصححه الألبانى .

عند فرعون، وهى قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، اللهم إلا ما رواه البخارى عن عروة ابن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة ، إذ أقبل عُقْبة بن أبى مُعَيط ، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديدا، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبه ودَفَعه عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُم ﴾ . انفرد به البخارى [(١)] .

وقوله: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُم ﴾ أى: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزّل معهم فى المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ . وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ [الدخان : ١٧ ـ ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله عباد الله، ولا يمسوه بسوء، و يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا

---

(١) البخارى (٤٨١٥) .

الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» (١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره.

ثم قال: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا. وقال آخرون ، منهم الضحاك : بل ذلك إذا جىء بجهنم، ذهب الناس هرابا، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام

---

(١) البخارى (٧١٥٠ ، ٧١٥١) ، ومسلم (١٤٢/٢٢٧) .

المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] . وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التنادّ»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان. وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار. وقيل: سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَم﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِين﴾ [الأعراف: ٥٠] ، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور فى سورة الأعراف. واختار البغوى وغيره: أنه سمى بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِين﴾ أى: ذاهبين هاربين، ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَر﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِم﴾ أى: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد﴾ أى: من أضله الله فلا هادى له غيره .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَات﴾ يعنى: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط [١] ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أى: يئستم فقلتم طامعين: ﴿ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَاب﴾ أى: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه فى أفعاله وارتياب قلبه.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُم﴾ أى: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: والمؤمنون أيضا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: على اتباع الحق ﴿جَبَّار﴾.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (٣٦) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى، عليه السلام،

---

(١) حرفت فى المطبوعة إلى : « بالقسط » ، والمثبت من المخطوطة .

أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا ، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوى، كما قال تعالى : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى ، عليه السلام فى أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى ، عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ يعنى : إلا فى خسار .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. ثم زهدهم فى الدنيا التى آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى: الدار التى لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أى: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد.

ربع

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالى أدعوكم إلى النجاة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذى بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ؟ أى: جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾أى: هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا. قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جَرَمَ﴾: حقا. وقال الضحاك: ﴿لا جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾قال مجاهد: الوثن ليس بشىء. وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر. وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] .

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ علىّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق». وهذا إسناد صحيح على شرط

البخارى ومسلم، ولم يخرجاه [١]. وروى أحمد عن عائشة ـ قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم». وهذا أيضا على شرطهما [٢]. فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم [٣] .

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد روى البخارى ، عن عائشة ، أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر [٤] . فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصَغَارا لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله ، عز وجل، إلى يوم القيامة». أخرجاه فى الصحيحين [٥] .

---

(١) المسند (٦ / ٥٣) .　　(٢) المسند (٦/ ٢٣٨) .

(٣) المسند (٦/ ٢٤٨) مسلم (٥٨٤ / ١٢٣) .

(٤) البخارى (١٣٧٢) .

(٥) المسند (٥٩٢٦) والبخارى (١٣٧٩) ومسلم (٢٨٦٦/ ٦٥) .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء ﴾ وهم: الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أي: قسطا تتحملونه عنا. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ : لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة ـ وهم كالبوابين [(١)] لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ أي: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) ﴾

---

(١) في المطبوعة : « كالسجانين » والمثبت من المخطوطة .

قد أورد أبو جعفر بن جرير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال : قد عُلِم أن بعض الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا (١) .

ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة فى الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ فى اللغة.

الثانى: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعيا (٢) ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا، وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا،ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » (٣) ؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحدا ، وعذب الكافرين ، فلم يفلت منهم أحدا. قال السدى : لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا، وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هى العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا

---

(١) فى المطبوعة حرفت إلى « شعيبا » والمثبت من المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة حرفت إلى « شعيبا » والمثبت من المخطوطة .

(٣) البخارى (٦٥٠٢) .

عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل. قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة [1].

وقوله: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾. وقرأ آخرون: «يومُ» بالرفع، كأنه فسره به ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمُ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى: الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بئس المنزل والمقيل. وقال ابن عباس: ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾: وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة ، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى ، عليه السلام ، وفى الكتاب الذى أورثوه ـ وهو التوراة ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى: يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾: هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿ وَالإِبْكَارِ ﴾ وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو: من شر مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

---

(١) قلت : أين المسلمون الآن من هذه الآية ؟ لقد ضاعت كل هذه الانتصارات والفتوحات من أيدى المسلمين ، ونُحِّى الإسلام من هذه الديار ، وترأس الإلحاد وماذاك إلا بتكالب المسلمين على الدنيا ، وحبها ، وما ألقى فى قلوبهم من الوهن ، فكانوا لقمة سائغة فى يد أعدائهم ، وتكالبت عليهم الأمم حتى أهون خلق الله على الله وهم اليهود !! ولن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ونبذ الفرقة والتعاون على البر والتقوى ، وعدم موالاة أعداء الله ، والأخذ بأسباب التمكين فى الأرض ، ولينصرن الله من ينصره ، والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه ـ بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ [وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ] (١) بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ﴾ أي: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس . ثم قال: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثورى يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يارب. روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. و رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وقال الترمذى: حسن صحيح. رواه أبو داود، وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه» (٣) . وهذا إسناد لا بأس به.

---

(١) مابين المعقوفتين سقط من المخطوطة .

(٢) المسند (٤/ ٢٧١) والترمذى (٢٩٦٩، ٣٣٧٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٦٤) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٩٦ موارد) والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩١) وابن جرير فى التفسير (٢٤/ ٥١) .

(٣) المسند (٢ / ٤٧٧) .

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أى: عن دعائى وتوحيدى ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين﴾ أى: صاغرين حقيرين، كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: « يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ، فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا فى جهنم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار » (١).

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أى: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُون﴾ أى: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم.

ثم قال: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى: الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذى لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُون﴾ أى: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التى لا تخلق شيئا، بل هى مخلوقة منحوتة. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُون﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاء﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَات﴾ أى: من المآكل والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق ـ فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ

(١) المسند (٦٦٧٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

بناءً وأنزلَ منَ السَّماء ماءً فأخرجَ به منَ الثَّمرات رزقًا لكُمْ فلا تجعلُوا للَّه أندادًا وأنتم تعلمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى : لا نظير له ولا عديل له ، ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية.ثم روى عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. روى الإمام أحمد عن محمد بن مسلم بن بدر المكى قال : كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . قال : وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة . ورواه مسلم وأبو داود والنسائى [1] .

ربع

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعْبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أى: هو الذى يقلبكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرا، وشابا، وكهلا قبل الشيخوخة ، كقوله ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج : ٥] وقال هاهنا : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه ،

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٤) من هذه السورة .

﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون فى الحق بالباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ أى: من الهدى والبيان، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ : هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء ،كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥] .

وقوله: ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ ﴾ أى: متصلة بالأغلال، بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾، كما قال: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٤١ـ ٥٦] . وقال : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، أى: قال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم ؟ ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعونا ، ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقوله: ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: فبئس المَنزلُ والمَقيلُ الذى فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُججه.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ وقوله: ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة النساء (١) ، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. وقوله: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ ؟ أى: لا تقدرون على إنكار شىء من آياته،

---

(١) عند الآية (١٦٤) .

إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل فى قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه فى الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدى: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قِبَل لهم به. ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]. و هاهنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أى: هذا حكم الله فى جميع مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[١] أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة ، وعاين الملك ، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾.

---

(١) الترمذى (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) ، وحسنه الألبانى .

تفسير سورة فصلت

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعنى : القرآن منزل من الرحمن الرحيم ، كقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ .عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] .

وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فى حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله: ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شىء مما تقول، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

عن محمد بن كعب القُرَظى قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أَيَّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا. وإن كنت تريد به شرفا

سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد ؟ » . قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم .حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ .ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك »، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم ـ يحلف بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم [١] .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُم يوحىٰ إِلَيَّ أنما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨].

والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٢٢) .

كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١] ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بيِّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب، كقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣] ، وكقوله تعالى: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨] .

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ ربع

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شىء، القاهر لكل شىء، المقدر لكل شىء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أى: نظراء وأمثالا تعبدونها معه، ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩]. فأما قوله: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا .وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء، فالدَّحْىُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال رجل لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ، قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ؛ فقد

كتموا فى هذه الآية ؟ وقال: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ، ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس : ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النفخة الأولى، ثم ينفخ فى الصور ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الأخرى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: « لم نكن مشركين»،فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [الحجر: ٢]. وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله : ﴿ دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ، فَخُلقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام، وخلقت السموات فى يومين. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦] ، سمى نفسه بذلك، وذلك قوله،أى:لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

فقوله : ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى : جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ وهو : ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعنى : يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها. وقال ابن عباس، وقتادة، فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك: فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. واختاره ابن جرير. ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل

بكلامهما. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى : ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أى: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون

عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: متتابعات، ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أي: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أى: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ أي: فى الأخرى ،كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، : بينا لهم. وقال الثورى: دعوناهم. ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَى﴾ أي: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام ،فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار﴿ يُوزَعُونَ﴾ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أي: عطاشا.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ أي: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكْتَم منه حرف. ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء:

﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى : فهو لا يخالف ولا يمانع ، وإليه ترجعون. عن أنس بن مالك، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال: «ألا تسألونى عن أى شيء ضحكت ؟ » قالوا: يا رسول الله، من أى شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقا، عنكن كنت أجادل». أخرجه مسلم والنسائى (١) . وقد تقدم أحاديث كثيرة ، وآثار عند قوله فى سورة يس: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الآية : ٦٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ماكنتم تتكتمون منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أى: هذا الظن الفاسد ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم. روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان ـ أو: ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وكذا رواه الترمذى ومسلم بنحوه والبخارى (٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ » (٣) .

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ، ولا تُقَال لهم عثرات . قال ابن جرير : ومعنى قوله : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا

---

(١) مسلم (٢٩٦٩/١٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) بنحوه .

(٢) المسند (٣٨٧٥) والبخارى (٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥/٥) والترمذى (٣٢٤٩) .

(٣) المسند (٣/ ٣٩٠) .

عنهم: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

ربع ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: حَسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: استوَوا هم وإياهم فى الخسار والدمار. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. قال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعنى: بالمكاء والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله. وقال ابن عباس: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ : عيبوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بشَرِّ أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾. قال سفيان الثورى عن على فى قوله: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه. وقال السدى، عنه : فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما

ثبت فى الحديث: « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » (١).

وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم ، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم. عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ : أخلصوا له العمل والدين. وروى الإمام أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل : ربى الله ، ثم استقم». قلت : يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال : «هذا». رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٢). وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا ، لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » . وذكر تمام الحديث (٣).

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم : يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ أى: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ أى: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (٢٩) من سورة المائدة .

(٢) المسند (٣/ ٤١٣) ، والترمذى (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وصححه الألبانى .

(٣) مسلم (٣٨) والنسائى (١١٤٨٩/ ١).

فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما فى حديث البراء: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان » (١) . وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره ، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، كما اخترتم، ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف. وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر جاءه بما هو صائر إليه من الشر ـ أو: ما يلقى من الشر ـ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه » .

وهذا حديث صحيح، وقد ورد فى الصحيح من غير هذا الوجه (٢) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

يقول عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى: دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وهو فى نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير، وهو فى

---

(١) مضى الحديث وتخريجه عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف .

(٢) المسند (٣/١٠٧) والبخارى (٦٥٠٧) ومسلم (٢٦٨٣/١٤) .

نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك ، كما قال محمد بن سيرين ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء. والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية ؛ لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة ، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه ، فقصه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه ، فالصحيح إذًا أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحا فى إجابته، وقال: إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولى لك حميم، أى: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك. ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى. قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم.

وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده.

وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه» (١) . وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠] ، وفى سورة المؤمنين عند قوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨] .

---

(١) ابن ماجه (٨٠٨) وصححه الألبانى .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ سجدة

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذى لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لايفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامدة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: أنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال ـ عز وجل ـ تهديدًا للكفرة: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا

قال: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال عزوجل: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك فقالوا: أعجمى وعربى؟أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه؟. هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم. وقيل: المراد بقولهم: ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى. هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله : ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو فى التعنت و العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك والريب، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه ، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أى : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم

يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى: كُذّب وأوذى، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشىء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

الجزء ٢٥

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لا يعاقب أحدا إلا بذنبه، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى : لا يعلم ذلك أحد سواه ، كما قال محمد ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ـ حين سأله عن الساعة ، فقال : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) ، وكما قال تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَةٍ (٢) مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أى: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وقال جلت عظمته: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] ، وقال: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أى: يوم القيامة ينادى الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائى الذين عبدتموهم معى؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أى: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أى: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعوهم ، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أى: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ،

---

(١) مسلم (٨ / ١) .

(٢) « ثمرة » : قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك، وإن مسه الشر وهو: البلاء أو الفقر ﴿فيؤوسٌ قَنوط﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿ ولَئِنْ أذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي، ﴿ومَا أظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧]. ﴿ولَئِن رُّجِعْتُ إلَىٰ رَبِّي إنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلى ربي، كما أحسن إلى في هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ولَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿ وإذَا أنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أعْرَضَ ونَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿ وإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي : الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي : يطيل المسألة في الشيء الواحد ، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز: عكسه ، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿ وإذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أوْ قَاعِدًا أوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ الآية [يونس: ١٢] .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : ﴿ أرَأيْتُمْ إن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴾ أي : كيف تَرون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال :

﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ؟ أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم ﴾ أى: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله ،عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الآفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلّت بهم، نصر الله فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبَه. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيَلِه، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى: كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال : ﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء: ١٦٦] .

وقوله: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة. روى ابن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل. ومعنى قوله: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به ، موقن بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل. وقوله : « والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى ـ مقررا على أنه على كل شىء قدير، وبكل شىء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

تفسير سورة الشورى

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيز ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله. روى الإمام مالك عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشده عَلَيّ فيفصم عنّى قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتينى الملك رجُلا فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا. أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى (١) . وقد رواه الطبرانى عن الحارث بن هشام ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ : كيف ينزل عليك الوحى ؟ فقال : «مثل صلصلة الجرس ، فيفصِمُ عنى وقد وعَيتُ ما قاله » قال : « وهو أشده على » قال : «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فأعى ما يقول » (٢).

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِير﴾ [سبأ: ٢٣]، والآيات فى هذا كثيرة. وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدى ، أى فَرَقاً، من العظمة ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

(١) الموطأ (١/ ٢٠٢) والبخارى (٢) ومسلم (٢٣٣٣/ ٢١٠) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٥٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ٢٥٩) : « رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما ثقات » .

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧] . وقوله: ﴿ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى: المشركين، ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: واضحا جليا بينا ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ وهى مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عَدِى بن الحمراء الزهرى : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة : « والله ، إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخْرِجَتْ منك ما خرجت ». وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١) .

وقوله: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فى وقوعه ، وأنه كائن لا محالة ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ، كقوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن:٩] أى: يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣ـ ١٠٥]. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليُمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرِغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة، وإن عَمِلَ أى عَمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: « فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال

---

(١) المسند (٤/ ٣٠٥) والترمذى (٣٩٢٥) والنسائى فى الكبرى (٤٢٥٢) وابن ماجه (٣١٠٨) .

باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير». وهكذا رواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب(١) . وروى الإمام أحمد عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: مايبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى ، قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا (٢) . وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩]. ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع إليه فى جميع الأمور.

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوى: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى الرحم.

---

(١) المسند (٦٥٦٣) والترمذى (٢١٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٧٣). وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) المسند (٤/ ١٧٦) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١٨٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقيل: فى البطن. وقيل: فى هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أى: ليس كخالق الأزواج كلها شىء؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره فى «سورة الزّمر»، وحاصل ذلك: أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ربع

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى لهذه الأمة : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ما وصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم، عليه السلام، وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ الآية [الأحزاب:٧].

والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَى (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفى الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » (٢) أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى: وصى الله تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اختلفوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة.

---

(١) هى قراءة ، كما مضى بيانه .

(٢) البخارى (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥/ ١٤٥) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد ، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعا : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه. قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ﴾ أى : فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان. ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أى: فى الحكم كما أمرنى الله ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من فى العالمين طوعا واختيارا ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نحن براء منكم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:٤١] . وقوله: ﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ قال مجاهد: أى لا خصومة. قال السدى: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجَه ؛ لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، كقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى ـ متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن

بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك. ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو: العدل والإنصاف ، قاله مجاهد ، وقتادة. وهذه كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩] .

وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ : فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أي: يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩] ، وإنما يقولون ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد رُوي من طرق تبلغ درجة التواتر ، في الصحاح والحسان ، والسنن والمسانيد ، وفي بعض ألفاظه : أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِيّ، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبي ﷺ نحوا من صوته «هاؤم ». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها ؟ » . فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت » [(١)] . فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض: أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله : ﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أي : يحاجّون في وجودها ويدفعون وقوعها ، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) انظر مثلا : البخاري (٦١٦٧) ومسلم (٢٦٣٩/ ١٦١) .

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء فى رزقه البرّ والفاجر، كقوله عز وجل: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦]. ولها نظائر كثيرة وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى: لا يعجزه شىء.

ثم قال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شىء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

عن أبى بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بشر هذه الأمة بالسَّنَاء والرفعة ، والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة من نصيب » (١) .

وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحىّ بن قَمعَة يجر قُصْبَه فى النار » (٢). لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجع فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

---

(١) المسند (٥/ ١٣٤) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣١١) وصححه ووافقه الذهبى . ورواه البغوى فى شرح السنة (٤١٤٤) .

(٢) مضى الحديث وتخريجه عند الآية (١٠٣) من سورة المائدة .

أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، فأين هذا من هذا ؟ أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة. روى البخارى عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى. ورواه الإمام أحمد (١). وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وغيرهم. وقول ثان يقول: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى. وروى عن الحسن البصرى مثله .وقول ثالث عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى ، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه ، وعلى وأهل بيته وذريته ، رضى الله عنهم أجمعين . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بغَدِير خُمّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» (٢) . وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب قال:

---

(١) البخارى (٤٨١٨) . وهو فى المسند (٢٠٢٤) .

(٢) مسلم (٢٤٠٨) .

قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبى ﷺ غضباً شديدا ، وقال : « والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»(١). وروى البخارى عن أبى بكر الصديق، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته (٢) . وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى (٣) . وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن مَيْسَرة، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يابن أخى، والله كَبُرت سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلِّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم. وهكذا رواه مسلم (٤) . وروى الترمذى عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرَّقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما » . تفرد بروايته الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٥) . وروى الترمذى أيضا عن جابر بن عبد الله ، قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن

---

(١) المسند (١٧٧٢، ١٧٧٣) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٧١٣) .

(٣) البخارى (٣٧١٢) .

(٤) المسند (٤/٣٦٦) ومسلم (٢٤٠٨/٣٦) .

(٥) الترمذى (٣٧٨٨) وصححه الألبانى .

تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى». تفرد به الترمذى أيضا، وقال: حسن غريب (١) .ثم روى الترمذى عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى». ثم قال: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه(٢) . وقد أوردنا أحاديث أُخَر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى : لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ أى: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه ﴿ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أى بحججه وبراهينه، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠] ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح» (٣) .

---

(١) الترمذى (٣٧٨٦) و صححه الألبانى . (٢) الترمذى (٣٧٨٩) وصححه الألبانى .
(٣) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) .

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى : يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب لهم الدعاء ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] . ثم روى هو وابن أبى حاتم عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعنى أحدُهم عملا ـ قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كقوله: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾ [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك .

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمى فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ : لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وقوله: ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر: مطرتم، ثم قرأ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حَزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها» (١) . عن على، قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا على: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا، فبما كسبت أيديكم ، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّى عليه العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه». رواه الإمام أحمد (٢). وروى الإمام أحمد عن معاوية ـ هو ابن أبى سفيان ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من شيء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته » (٣) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك،

---

(١) البخارى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ومسلم (٥٢/٢٥٧٣) .

(٢) المسند (٦٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

(٣) المسند (٩٨/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٠٤/٢) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

أى: هذه فى البحر كالجبال فى البر، ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ أى: التى تسير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر. وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقَت وهلكت. ولكن من لطف ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم. وقوله: ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أى: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى محقرا لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقى؛ ولهذا قال . ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا ، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى « سورة الأعراف» ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى: سجيتهم تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط،

إلا أن تنتهك حرمات الله [١] . وفى حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: « ماله ؟ تربت جبينه » [٢] .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ، يشاورهم فى الحروب ونحوها ، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] ، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صَلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهى زينب أخت مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ـ التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله.

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

---

(١) البخارى (٦١٢٦) . (٢) البخارى (٦٠٣١) .

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]. وكقوله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ الآية [النحل:١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا» (١). وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم. روى النسائى وابن ماجه عن عروة قال: قالت عائشة: ما علمتُ حتى دخلت علىَّ زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيها ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ النسائى(٢).

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَد المظلوم» (٣). ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع.

ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى: لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة». وكذا رواه أبو داود (٤). وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو مناسب للصديق رضى الله عنه.

---

(١) الترمذى (٢٠٢٩) وقال: «حسن صحيح».

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٤٧٦) وابن ماجه (١٩٨١) وفى زوائد البوصيرى: «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم»، وصححه الألبانى.

(٣) مسلم (٢٥٨٧ / ٦٨).

(٤) المسند (٢/٤٣٦) وأبو داود (٤٨٩٧) وصححه الألبانى.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادى له، كما قال: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف:١٧]. ثم قال عز وجل مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى: يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ، كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مُسَارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم ، فخسروهم، ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أى: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أى: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك

وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢]. وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط ، كما قال رسول الله ﷺ للنساء : « يا معشر النساء ، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة: ولِمَ يارسول الله ؟ قال: «لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط » (١) . وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٢) .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ، و﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ أى : يرزقه البنات فقط ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ أى: يرزقه البنين فقط لم يولد له أنثى، ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أى: لا يولد له. فجعل الناس أربعة أقسام ، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق

---

(١) مسلم (٧٩ ، ٨٠ / ١٣٢) .   (٢) مسلم (٢٩٩٩/ ٦٤) .

سوى عيسى، عليه السلام ، من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ؛ ولهذا قال: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

ربع

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) ﴾

هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب» (١) . وقوله : ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث (٢) ، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا . وقوله: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾، كما ينزل جبريل ،عليه السلام، وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، كقوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ﴿ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وهو الحق القويم، ثم فسره بقوله: ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ أى : ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها .

---

(١) لم أقف عليه عند ابن حبان ، وهو فى شرح السنة للبغوى (١٤/ ٣٠٤) ، رقم (٤١١١) .

(٢) الترمذى (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألبانى .

تفسير سورة الزُّخرف

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) ﴾

يقول تعالى: ﴿حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: أنزلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ﴾ أى: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة : ٧٧ ـ ٨٠] وقال: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦] ؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدثَ لا يمس المصحف؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ .

وقوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ : اختلف المفسرون فى معناها ، فقيل : معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ؟ قاله ابن عباس، ومجاهد والسدى، واختاره ابن جرير. وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ : والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك . وقول قتادة لطيف المعنى جدا ، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم

إلى الخير والذكر الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليتهدى من قدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. ثم قال تعالى ـ مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه، وآمرا له بالصبر عليهم ـ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ أى: فى شيع الأولين، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ أى: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أى: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يامحمد. كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر:٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة. وقوله: ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف:٥٦]. وكقوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [غافر:٨٥] وقال : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٦٢].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ولئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيم ﴾ أى: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَاداً (١) ﴾ أى: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أى: طرقا بين الجبال والأودية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾ أى: فى سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أى: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم. ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

---

(١) « مهادا » : قراءة الجمهور ، وأيضا الحافظ ابن كثير .

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أى: السفن ﴿وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أى: لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أى: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى: مطيقين. ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أى: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الزاد الأخروى فى قوله : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧] ، وباللباس الدنيوى على الأخروى فى قوله تعالى : ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة :

روى الإمام أحمد عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا أتى بدابة، فلما وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ ، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ،ثم ضحك .فقلت: مم ضحكت يارسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى». وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وقال الترمذى: حسن صحيح (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر، أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ . ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى (٢) . وروى أحمد عن محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم» (٣) .

---

(١) المسند (٧٥٣) وأبو داود (٢٦٠٢) والترمذى (٣٤٤٦) والنسائى فى الكبرى (٨٨٠٠) .

(٢) المسند (٦٣١١) ومسلم(١٣٤٢/ ٤٢٥) وأبو داود (٢٥٩٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٣٨٢) والترمذى(٣٤٤٧) .

(٣) المسند (٣/ ٤٩٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ١٣١): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه فى جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم فى سورة «الأنعام»، فى قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] . وكذلك جعلوا له من قسمى البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ثم قال: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ ؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عَيِّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل ؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ أى: بذلك ، ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة . وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط فى الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا ، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال فى هذه الآية ـ بعد أن ذكر حجتهم هذه ـ: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون. وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أى: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٤) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٢٥) ﴾

ربع

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ ؟ أى: من قبل شركهم ، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أى: فيما هم فيه، أى: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥] أى: لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أى: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفى قوله: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم ﴾ أى: وراءهم ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم ، فقالوا مثل مقالتهم : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢ ، ٥٣] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَكَذَلِكَ

ما أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قل﴾ أى: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ؟ أى: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى فى قصصهم، ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أى: هذه الكلمة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهى «لا إله إلا الله » ، أى: جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم فى قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها. ورُوى نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ ﴾ يعنى: المشركين، ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أى: فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين الرسالة والنذارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والرواح كفرا وحسدا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ أى: كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة

والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة ، وقد ذكر غير واحد ، منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى. وقال زيد بن أسلم، والضحاك، والسدى: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفى. وعن مجاهد: عمير ابن عمرو بن مسعود الثقفى. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدى: عنوا الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفى. والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان. قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. وقوله: ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قيل: معناه: ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال ، لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، قاله السدى وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو راجع إلى الأول. ثم قال : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم ﴿ لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى: يصعدون، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾ أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أى: وذهبا قاله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد . ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أى: يعجل لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح (١) . ثم قال سبحانه: ﴿ وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم. وفى الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » (٢) . وإنما خوّلهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا »، قال الترمذى: حسن صحيح (٣) .

---

(١) مسلم (٢٨٠٨/٥٦) . (٢) البخارى (٥٦٣٣) ، ومسلم (٢٠٦٧/٤) .
(٣) الترمذى (٢٣٢٠) وقال : « صحيح غريب من هذا الوجه » وابن ماجه (٤١١٠) .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أى: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ، وكقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وكقوله : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به، ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعنى: القرين والمقارن. والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، . قاله ابن جرير وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم. وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، ويضل من يشاء ، وهو الحكم العدل فى ذلك. ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أى: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير. وفى الحديث : « النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ ، وأنا أمَنَة لأصحابى ، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون » (١) .

---

(١) مسلم (٢٥٣١/٢٠٧) .

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه. و عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى (١). وقيل: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أى: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له. وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أى: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاما، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم

(١) البخارى (٣٥٠٠).

السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يَعدُون موسى ، عليه السلام، إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ ؟ أى: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعنى فرعون ـ عليه اللعنة ـ أنه خير من موسى ، عليه السلام، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعنى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف. وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عيى حصر. قال السدى: أى: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيى اللسان. وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمرة حين وضعها فى فيه وهو صغير. وهذا الذى قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى ، عليه السلام ، بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى ، عليه السلام ، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر أبصار ذوى الألباب.

وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب ، بل هو المهين الحقير خلْقَة وخلقا ودينا . وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة

من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له فى قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقى شىء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته ، فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ (١) مِّن ذَهَبٍ ﴾ أى: وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أى: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، قال ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾ : أسخطونا. وقال الضحاك عنه: أغضبونا. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢) . وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النقمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿ وَمَثَلاً ﴾ أى : عبرة لمن بعدهم.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ ربع

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ

---

(١) « أساورة » : قراءة السبعة سوى حفص ، وهى أيضا قراءة الحافظ ابن كثير .

(٢) المسند (٤/ ١٤٥) غير أن الآية عنده : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [الأنعام : ٤٤] . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٥٦١) وفى السلسلة الصحيحة (٤١٣) وقال : « هو عندى صحيح » .

مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، يضحكون، أى: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: **﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُون ﴾** الآيات [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمى، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُون ﴾** [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: **﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾** الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: **﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون ﴾** أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: **﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾** أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: **﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾** (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى يحيى ـ مولى ابن عقيل الأنصارى ـ قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٢ ـ ١٤).

فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان آلهتهم كما تقولون ؟ قال: فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾. قلت: ما يَصدون ؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة [١] . وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة : يقولون: آلهتنا خير منه. يعنون محمدا ﷺ .
وقوله : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ أى: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها. وقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل» ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير. ثم قال الترمذى: حسن صحيح [٢] .

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعنى: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أى : بدلكم ﴿مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ قال السدى: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضكم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير فى ﴿وَإِنَّهُ﴾ على الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أى : قبل موت ، عيسى ، عليه الصلاة والسلام ، ثم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعَلَم للساعة» أى: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة ، وابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى ، عليه السلام، قبل يوم القيامة إمامًا عادلا ، وحكما مقسطا.

وقوله: ﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أى: لا تشكوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَاتَّبِعُونِ ﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى: عن اتباع الحق ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ

---

(١) المسند (٢٩٢١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) المسند (٥/٢٥٦) والترمذى (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وابن جرير فى التفسير (٢٥ / ٥٣) .

عدوٌ مُبينٌ . ولَمَّا جاءَ عيسىٰ بالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالْحِكْمَةِ﴾ أى: بالنبوة ﴿ولأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذي تَخْتلِفُونَ فِيه﴾ قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية .وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل». وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما جئتكم به، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده. وقوله: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى: اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ـ وهو الحق ـ ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ ؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين، فإذا جاءت إنما تجىء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] . وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وقوله: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُون ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُم ﴾ أى: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى تنعمون وتسعدون.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ أي : زبادى آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهى: آنية الشراب، أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى ، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «تشتهيه الأنفس» ـ ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أى: فى الجنة ﴿خَالِدُونَ ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات. وقوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : من جميع الأنواع ، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُون. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أى: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو: خازن النار. روى البخارى عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (١) أى: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦]. وقال: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. أى: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم. وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا

---

(١) البخارى (٤٨١٩) .

مكرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أى: سرهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ (٨١) سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: لو فرض هذا لعبدته على ذلك؛ لأنى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. و قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الآنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ : الجاحدين، من عبد يعبد. وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم. وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ، فلا ولد له. وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا ﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة ، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيم﴾. وهذه الآية

كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض. ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: فيجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شىء، فهم فى ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الآخرى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخارى: وقرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: « وقال الرسول يارب » (١) . وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، قال: فأبر الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل. وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلامٌ ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب.

---

(١) فتح البارى (٨/٥٦٦) .

تفسير سورة الدّخـان

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله فى ليلة مباركة، وهى ليلة القدر، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] وكان ذلك فى شهر رمضان، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة فى ذلك فى «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان ـ كما روى عن عكرمة ـ فقد أبعد النُّجْعَة، فإن نص القرآن أنها فى رمضان. وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أى: فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أى: محكم، لا يبدل ولايغير؛ ولهذا قال: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال : ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى: إن كنتم متحققين. ثم قال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ الآية [الأعراف:١٥٨].

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون، أى: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومهددًا: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.
عن مسروق قال: دخلنا المسجد ـ يعنى مسجد الكوفة ـ عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] ، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : « الله أعلم »، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ـ وفى رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ـ قال الله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يارسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فَسُقُوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة ، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام.

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين. ورواه الإمام أحمد و الترمذى والنسائى و ابن جرير وابن أبى حاتم (١). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى ، جماعة من السلف كمجاهد ، وأبى العالية ، وإبراهيم النخعى ، والضحاك ، وعطية العوفى ، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما فى حديث أبى حذيفة بن أسيد الغفارى ، قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ أو: تحشر الناس ـ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه(٢).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد : « إنى خبأت لك خَبْأً » ، قال :

---

(١) المسند (٣٦١٣) والبخارى (٤٨٢٠) ومسلم (٣٩/٢٧٩٨) والترمذى (٣٢٥٤) وابن جرير فى التفسير (٦٦/٢٥) .

(٢) مسلم (٣٩/٢٩٠١) .

هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١).. وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقاله له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». وعن عبد الله بن أبى مليكة قال: غدوت على ابن عباس، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التى أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود: إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أى: يتغشاهم ويعُمهم، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾. وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أى: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١ ـ ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) البخارى (٣٠٥٥) ومسلم (٢٩٣٠/ ٩٥).

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد سببه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفى عنه وعن أبى بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. وروى ابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هى يوم القيامة (١) . وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصرى، وعكرمة فى أصح الروايتين، عنه.

ربع

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعنى: موسى كليمه، عليه السلام ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ (٢) مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أى: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا تستكبروا على اتباع

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٥/ ٧٠) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « أن أرسل » وهو خطأ .

آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة .

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: الرجم بالحجارة . أى: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم من أن تصلوا إلىَّ بسوء من قول أو فعل. ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أى: فلا تتعرضوا لى، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. قال ابن عباس: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضهْ. وقال مجاهد﴿ رَهْوًا ﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد .

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾: المنابر. وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ ، قال: كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها.
﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية

والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ أي: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وقوله: ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه.

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ـ قال مجاهد: ﴿اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالما. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي: في زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ أي: الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع ـ وهم سبأ ـ حيث أهلكهم الله وخرَّب

بلادهم، وشردهم فى البلاد، وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ ، وهى مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد . وكذلك هاهنا شبههم بأولئك ، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير ـ وهم سبأ ـ كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعاً، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده ، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية ،فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يَقْرونَه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبى يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاف بها ،وكساها الملاء والوصائل والحِبَر. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه،وكان إذ ذاك دين موسى،عليه السلام،فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الخليل على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن.

وتُبَّع هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْب بن مَلْكيكرب اليمانى، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة،ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام.

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: « هذا قبر حبى ولميس ـ وروى: حبى وتماضر ـ ابنتى تُبَّع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. قال قتادة: ذكر لنا أن كعبًا كان يقول فى تبع: نُعِت نَعْت الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، قال : وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعاً ؛ فإنه قد كان رجلا صالحاً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين وقوله: ﴿ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناوقوله: ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ أي: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ والأثيم: أي في قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به روى ابن جرير عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ ، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أي: ليس له طعام غيرها.

وقوله: ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ أي: من حرارتها ورداءتها. وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خُذُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: سوقوه سحبا ودفعا في ظهره. قال مجاهد: ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه. ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسطها، ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ، كقوله: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠] . وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد، تفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتى تمرق من كعبيه ـ أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال

الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ ، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ـ ولهذا سُمّى القرآن مثانى ـ فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: لله فى الدنيا ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أى: فى الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم، وشرب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالى القماش، ﴿ مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: على السرر، لايجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤] ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

وقوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ معناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم (١) . وعن أبى سعيد وأبى هريرة، قالا: قال رسول الله : «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم (٢).

---

(١) سبق تخريجه عند الآية (٣٩) .

(٢) مسلم (٢٨٣٧/ ٢٢).

وروى أبو بكر البزار عن جابر قال : قيل : يا رسول الله ، هل ينام أهل الجنة ؟ قال : « لا ، النوم أخو الموت » (١).

وقوله : ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم فى دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛ ولهذا قال: ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى: إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:«اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا، إلا أن يتغمَّدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: يتفهمون ويعملون .

ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالي لرسوله مسليا له وواعداً له بالنصر ، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أى: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أى : فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة فى الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

---

(١) كشف الأستار (٣٥١٧) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤١٨) : « رجال البزار رجال الصحيح » .
(٢) البخارى (٦٤٦٧) .

تفسير سورة الجاثية

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله :﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ أى: جنوبا وشمالاً،ودبوراً وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً: ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم﴿يَعْقِلُونَ ﴾ وهو ترقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِ ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله

وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم فى فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعنادا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (١).

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ : وهو المؤلم الموجع.

ربع

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحتملوا الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة فى

---

(١) مسلم (١٨٦٩/ ٩٣).

الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم، ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: وماذا تغنى عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي:

نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ! ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوى بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفى هذه الدار ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾، وقال : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَق ﴾ أى: بالعدل، ﴿ولِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه وعن مالك: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين: أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثانى يستلزم الأول، ولا ينعكس. ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أى: فلا يسمع ما ينفعه، ولايعى شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضىء بها؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦] .

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أى: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولاقيامة وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾، أى: يتوهمون ويتخيلون. فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود ، والنسائى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب ليله ونهاره». وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» (١) قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ: « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله عز وجل ، فكأنهم إنما سبوا، الله عز وجل ؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نُهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ؛ لأن الله هو الدهر الذى

---

(١) البخارى (٤٨٢٦ ، ٦١٨١) ومسلم (٢٢٤٦/ ٥) وأبو داود (٥٢٧٤) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٧) .

يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد ، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] أى: الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن:٩] ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات:١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤] وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، والحاكم فيهما فى الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات. وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثورى المدينة ، فسمع الغاضرى يتكلم ببعض ما يضحك به الناس . فقال له: يا شيخ ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف فى الغاضرى حتى لحق بالله ، عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جىء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك مريم التى ولدتنى. قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على الركب . وقال عِكْرِمة : ﴿جَاثِيَةً﴾ : متميزة على ناحيتها ، وليس على الركب . والأول أولى.

وقوله: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر:٦٩] ؛ ولهذا قال:﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٣ ـ ١٥].

ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى : يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولانقص، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهى الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء » (١) . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا

---

(١) البخارى (٤٨٥٠) .

مُجْرِمِينَ﴾ فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ﴾ أى: إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أى: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾. وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا . فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتنى» (١).

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أى: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أى: من النار ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ ﴾ أى: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِين ﴾. ثم قال: ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى: هو العظيم الممجد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى » . رواه مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد بنحوه (٢) . وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

---

(١) مسلم (٢٩٦٨/١٦) .

(٢) مسلم (٢٦٢٠/١٣٦) .

تفسير سورة الأحقاف
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الجزء ٢٦

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه نَزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام، والحكمة فى الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابا وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غبّ ذلك.

ثم قال: ﴿ قُلْ ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أى: أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا الله، عز جل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾ أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أى: دليل بيِّن على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أَثَرَة من علم» أى: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثُر علما. قال ابن عباس: أو بينة من الأمر. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ ﴾: شىء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ يعنى الخط. وقال قتادة : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم .

وكل هذه الأقوال متقاربة ، وهى راجعة إلى ما قلناه ، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد، حجارة، صُمّ. وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أى: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

يقول عز وجل مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أى: فى حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون : محمدا ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى ـ وليس كذلك ـ لعاقبنى أشد العقوبة ، ولم يَقْدِرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرنى منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد. وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أى: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر لكم ورحم. وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أى: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلى، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا بعثتى إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك. ﴿وَمَا أَدْرِي مَا

يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ ﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا ؟ فأنزل الله: ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ** ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال ، والذى هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: ﴿**وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ**﴾: ما أدرى بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا ؟

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿**وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ**﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلى ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤُول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ؟

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أم العلاء ـ وهى امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفى أدْرَجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحدًا بعده أبدا. وأحزننى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله». فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به » (١) .

وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزننى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿**إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ**﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله علىَّ من الوحى، ﴿**وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ أى: بين النّذَارة، وأمرى ظاهر لكل ذى لب وعقل.

---

(١) المسند (٦/٤٣٦) والبخارى (١٢٤٣ ، ٢٦٨٧) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ أى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله علىَّ لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ، ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ أى:وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله: ﴿ فَآمَنَ ﴾ أى: هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه.وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] قال مسروق، والشعبى: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم، واختاره ابن جرير .

وعن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والنسائى(١). وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدِّى، والثورى، ومالك بن أنس وابن زيد ؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أى: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون: بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: ٥٣] أى :

---

(١) البخارى (٣٨١٢) ومسلم (٢٤٨٣/١٤٧) والنسائى فى الكبرى (٨٢٥٢) .

يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة : هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى : بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أى : كذب ﴿ قَدِيمٌ ﴾ أى :مأثور عن الأقدمين ، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول ﷺ: «بطر الحق، وغمط الناس» (١) .

ثم قال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: فصيحا بينا واضحا، ﴿ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: مشتمل على النّذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة » (٢). ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال هاهنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا (٣)﴾ أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وروى أبو داود الطيالسى يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية .ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه نحوه وأطول منه (٤) .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا، من وحَام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضا

---

(١) مسلم (٩١ / ١٤٧) . (٢) الآية رقم (٣٠) من سورة فصلت .

(٣) « حسنا » قراءة الجمهور ، وبها قرأ الحافظ ابن كثير .

(٤) المسند للطيالسى (٢٠٨) ومسلم (١٧٤٨/٣٣) وأبو داود (٢٧٤٠) والترمذى (٣٠٧٩) .

من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدل على بهذه الآية مع التى فى لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى : قوى وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أى: ألهمنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى : فى المستقبل ، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أى نسلى وعقبى، ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ (١) عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أى: هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.
روى ابن جرير عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له فى الجنة» قال : فدخلتُ على يزداد فَحُدّث بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ .
وهكذا رواه ابن أبى حاتم وزاد : « عن الروح الأمين . قال : قال الرب ، جل جلاله : يؤتى بحسنات العبد وسيئاته» (٢) فذكره، وإسناده جيد لا بأس به.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾

---

(١) « يتقبل ـ يتجاوز » : قراءة الجمهور ، وأيضا الحافظ ابن كثير .
(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٦ / ١٢) .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وإنما هذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عقهما. وروى البخارى عن يوسف بن مَاهَك قال : كان مَرْوان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذرى [1] .

وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى: أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أى : قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ قال الله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَالَّذِى قَالَ ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا. وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وقد تورع عمر بن الخطاب، عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إنى أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقَرَّعهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾. وقال أبو مِجلَز: ليتفقَّدَنَّ أقوامٌ حَسَنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ .

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

---

(١) البخارى (٤٨٢٧) .

ربع ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حقْف وهو: الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال على بن أبى طالب : الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر. روى ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد» (١) .

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حَوْل بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] . ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأنى أنى أبلغكم ما أرسلت به ، ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم ، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: هو العذاب الذى قلتم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿تُدَمِّرُ﴾ أى: تخرّب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالشىء البالى. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لا ترى (٢) إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ أى: قد بادوا كلهم عن

(١) ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٠٤) : « هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب » .

(٢) « ترى » : قراءة الجمهور ، وكذا الحافظ ابن كثير .

آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، روى الإمام أحمد عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَّبْذَة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلى ما قال الأول : « معزَى حَمَلَت حَتْفَها » ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد . قال : « هيه ، وما وافد عاد ؟ » ـ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان»ـ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال : اللهم، إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمددا، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف » (١) .

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيما ـ أو ريحا ـ عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » . وأخرجاه (٢) . وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم ، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به » . قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى

(١) مضى تخريجه هناك عند الآية (٧٣) .

(٢) المسند (٦/ ٦٦) والبخارى (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم (٨٩٩/ ١٤) .

عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ »(١) . وقد ذكرنا قصة هلاك عاد فى سورتى «الأعراف وهود» بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أى: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ يعنى: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا. ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾ أى: بيناها ووضحناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أى: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أى : بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ، ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أى: كذبهم، ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى: وافتراؤهم فى اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا فى عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

(١) مسلم (٨٩٩/ ١٤) .

روى الإمام أحمد والحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب. قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له،فقالوا: هذا ـ والله ـ الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: ياقومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن:١] ، وإنما أوحى إليه قول الجن. رواه البخارى بنحوه، وأخرجه مسلم ورواه الترمذى والنسائى (١) .

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض. رواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح (٢) . وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين. وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم.

وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة،فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ

---

(١) المسند (٢٢٧١) والبيهقى (٢/ ٢٢٥) والبخارى (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩/ ١٤٩) والنسائى فى الكبرى (١١٦٢٤/ ١) .
(٢) المسند (٢٤٨٢) والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى فى الكبرى (١١٦٢٦/ ٤) .

قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى: ﴿ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١). فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج .

فأما ما رواه البخارى ومسلم عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى قال : سألت مسروقا: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود ـ أنه آذنته بهم شجرة (٢) فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس ، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم. قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس إنما هو فى أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه (٣) .

ذكر الرواية عنه بذلك :

روى الإمام أحمد عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم،فلما كان فى وجه الصبح ـ أو قال: فى السحر ـ إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فقلنا : يا رسول الله ـ فذكروا له الذى كانوا فيه ـ فقال : « إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم » . قال : فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبى: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » . وهكذا رواه مسلم نحوه (٤) . وروى مسلم أيضا عن عامر قال : سألت علقمة: هل كان ابن مسعود ، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ؛ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال : « أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ،

---

(١) المستدرك (٢/٤٥٦) من طريق أبى بكر بن شيبة به ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى (٣٨٥٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

(٣) البيهقى فى الدلائل (٢/٢٢٧) .

(٤) المسند (٤١٤٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

فقرأت عليهم القرآن» . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (١) .

فهذه تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدا منه، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقى . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقى ، عن سعيد بن عمرو ، قال : كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوما فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتنى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة » . فأتيته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة ؟ قال: «أتانى وفد جن نصيبين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما». أخرجه البخارى قريبا منه (٢) . فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولا من وجه جيد، فروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم (٣) . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشىء قط: «إنى لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مر به رجل جميل، فقال : لقد أخطأ ظنى ـ أو : إن هذا على دينه فى الجاهلية ـ أو لقد كان كاهنهم ـ على بالرجل ، فدعى له ، فقال له ذلك، فقال : ما رأيت كاليوم اسْتُقْبل له رجل مسلم . قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنِيِّتك. قال: بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرَ الجنَّ وإبْلاسَهَا ... ويَأْسَهَا من بعد إنْكَاسِهَا

ولُحُوقَها بالقِلاص وأَحْلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به

(١) مسلم ٤٥٠/ ١٥٠) .

(٢) البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٣٣) والبخارى (٣٨٦٠) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٦/ ٢٢) .

صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبى. هذا سياق البخارى [1] ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم » [2] . وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى فى سيرة عمر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى : طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أى: استمعوا وهذا أدب منهم. وقوله : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى : فرغ ، كقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ ﴾ [الجمعة: ١٠] ، ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢] ، ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أى: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا ؛ لقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحَى [3] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] ، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فكل نبى بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى الأنعام: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُم ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أى: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبى ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَذَعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ [4] رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:

---

(١) البخارى (٣٨٦٦) .
(٢) البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٤٥) .
(٣) « يوحى » : هى قراءة كما مضى بيانه .
(٤) « كلمات » : قراءه سبعية كما مضى بيانه .

١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ : فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مُؤمِنَهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بِشَىء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ـ وهو مقام عدل ـ فَلأنْ يجازى مؤمنهم بالجنة ـ وهو مقام فَضْل ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] ، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] ، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء.

ثم قال مخبرا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى

رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿أوَ لَمْ يروْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكْرِثْهُ خَلْقُهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال متهددا ومتوعدا من كفر به: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق، أفسحر هذا، أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى آمراً رسولهﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من سُورَتَى «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرّسُل، وتكون ﴿ مِنَ ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم . ﴿ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ أى : لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ، كقوله : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [يونس : ٤٥] . وقوله : ﴿ بَلاغٌ ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لَبْثٌ بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ. وقوله: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

تفسير سورة القتال

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد ﷺ. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم» (١). ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾

---

(١) الترمذى (٢٧٣٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿فَشُدُّوا﴾ وثاق الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه ، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] .

ثم ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفى عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدى، وابن جُرَيْج. وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون: ليست منسوخة. ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت (١). وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرَّرة فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام » ، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » (٢) . وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ : حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] . ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكَال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى «آل عمران» و«براءة» فى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال فى

---

(١) البخارى (٤٣٧٢) .

(٢) أبو داود (٢٤٨٤) ، وصححه الألبانى .

سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] .

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه». وقد أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه (١) . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبى قتادة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شىء إلا الدَّيْن» (٢) . وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود (٣) . والأحاديث فى فضل الشهيد كثيرة جدا.

وقوله: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس:٩] . وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا » (٤) .

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطيفة ، تعس وانتكس، وإذا شيكَ فلا انتقش » (٥) ، أى: فلا شفاه الله. وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

---

(١) المسند (٤/ ١٣١) والترمذى (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩) ، وصححه الألبانى .

(٢) مسلم (١٨٨٦/ ١١٩) .

(٣) أبوداود (٢٥٢٢) .

(٤) البخارى (٦٥٣٥) .

(٥) البخارى (٢٨٨٦) .

ربع

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء كلهم. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعلَ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: « قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم » (١) .

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْما وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى مِعىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » (٢) . ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعنى : مكة ، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]. وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم. عن ابن عباس:

---

(١) البخارى (٤٠٤٣) .

(٢) البخارى (٥٣٩٣) ومسلم (٢٠٦٠/ ١٨٢) .

أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك » (١) . فأعدى الأعداء من عدَا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ ؟ أى: ليس هذا، كهذا ، كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩] ، وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. والعرب تقول: أسِنَ الماء ، إذا تَغيَّر ريحه . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦] ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح ، وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد». ورواه الترمذى . وقال: حسن صحيح (٢) . وفى الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن » (٣) .

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٦/ ٣١) .
(٢) المسند (٥/ ٥) والترمذى (٢٥٧١) .
(٣) مضى تخريجه عند الآية (١٣٣) من آل عمران .

في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حارا شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا ، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أي: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له. قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: ألهمهم رُشْدَهم.

وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي: وهم غافلون عنها، ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ .أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله، كما هو مبسوط فى موضعه. وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبى التوبة، ونبى الملحمة، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبى. وروى البخارى [عن] سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين » (١) . ثم قال تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُم ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢] .

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا ينافى كونه آمرا بعلم

---

(١) البخارى (٤٩٣٦) .

ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى، وخَطَئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى »(١). وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة : «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت »(٢) . وفى الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»(٣) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله .فقلت: أستغفر لك ؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذى شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل. رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائي ، وابن جرير (٤) . والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ (٢٠) طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ (٢١) فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ (٢٢) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ (٢٣) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧]. وقال عز وجل هاهنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى: مشتملة على حكم القتال ؛

---

(١) البخارى (٦٣٩٨) .
(٢) مسلم (٧٦٩/١٩٩) .
(٣) البخارى (٦٣٠٧) .
(٤) المسند (٥/ ٨٤) ومسلم (٢٣٤٦/ ١١٢) والترمذى فى الشمائل (ص ٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٤٩٦/ ١) وابن جرير فى التفسير (٢٦/ ٣٤) .

ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي : أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى. قال : فذاك » . قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. ورواه مسلم (١). وروى الإمام أحمد عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: هذا حديث صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: « من سره النَّساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه». تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح (٣). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » ، رواه البخارى (٤) . وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طُلَقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها » (٥) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».وقد رواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٦) .

---

(١) البخارى (٤٨٣٠، ٤٨٣١) ومسلم (٢٥٥٤/١٦) .
(٢) المسند (٥/٣٨) وأبو داود (٤٩٠٢) والترمذى (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) .
(٣) المسند (٥/ ٢٧٩) . وشاهده رواه البخارى (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧/ ٢٠) .
(٤) المسند (٦٥٢٤) والبخارى (٥٩٩١) .
(٥) المسند (٦٧٧٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٦) المسند (٦٤٩٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . وأبو داود (٤٩٤١) والترمذى (١٩٢٤) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطْبَقَة لا يخلص إليها شىء من معانيه. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم ﴾ أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أى: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أى: غرهم وخدعهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ أى: مالؤوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أى: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾أى: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح فى أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بالضرب ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ ؟ أى: أيعتقد المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى فى ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك

أشخاصهم، فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾

ربع

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال جل علا لعباده المؤمنين: ﴿ فَلَا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عدَدكم وعُددكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.
وقوله: ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحوجكم تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ قال قتادة: قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه . وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره .

تفسير سورة الفتح
وهى مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته. أخرجاه (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرهٍ من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب،كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.وقال جابر : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وروى البخارى عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس عل شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا (٢) . وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ـ ثلاث مرات ـ فلم يرد على،قال:فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتى فتقدمت مخافة أن يكون نزل فى شىء ، قال : فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال:فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء،قال:فقال النبى ﷺ:« نزلت على البارحة سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا**

(١) المسند (٥/ ٢٤) والبخارى (٤٨٣٥) ومسلم (٧٩٤/ ٢٣٧) .
(٢) البخارى (٤١٥٠) .

تَأَخَّرَ ﴾ ». ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى (١) ، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى جيد لم نجده إلا عندهم. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال: نزلت على النبى ﷺ: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية ، قال النبى ﷺ : « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبى الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٥] ،أخرجاه فى الصحيحين (٢) . وروى ابن جريرعن عبد الله ابن مسعود قال: لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا». فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك من نام أو نسى». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحى، قال: وكان إذا أتاه الوحى اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ . وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائى (٣) . وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبى ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود (٤) . وروى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه .فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذ وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ ». أخرجه مسلم (٥) .

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أى: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ : هذا من خصائصه ﷺ ـ التى لا يشاركه فيها غيره. وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيما لأوامره ونواهيه،

---

(١) المسند (٣/ ٢٠٩) والبخارى (٤٨٣٣) والترمذى (٣٢٦٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٩٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٩٧) والبخارى (٤١٤٨) ومسلم (١٧٨٦/ ٩٧) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٦/ ٤٣) والمسند (٤٤٢١) وأبو داود (٤٤٧) والنسائى فى الكبرى (٨٨٥٣) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٤/ ٥٥) والبخارى (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩/ ٧٩) والترمذى (٤١٢) وابن ماجه (١٤١٩) .

(٥) المسند (٦/ ١١٥) ومسلم (٢٨٢٠/ ٨١) .

قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » (١) . فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة ، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » (٢) . وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عاقبت ـ أى فى الدنيا والآخرة ـ أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك ، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم. وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين ،فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ . ثم قال تعالى: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبدا ، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ ، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ

---

(١) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) مسلم (٢٥٨٨ / ٦٩) .

السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب» (١) ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله ،﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: أول النهار وآخره. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ، كقوله: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى: ثوابا جزيلاً. وهذه البيعة هى بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية ، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك :

روى البخارى عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة. ورواه مسلم (٢) . وأخرجاه عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده فى ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم (٣) . وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعوه فى بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا (٤) .

---

(١) عند الآية (٤٥) .
(٢) البخارى (٤٨٤٠) ومسلم (١٨٥٦/ ٦٧) .
(٣) البخارى (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦/ ٧٢) .
(٤) البخارى (٥٦٣٩) .

وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة (١) . وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة . قلت : فإن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما ، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٢) . قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. الذى رواه البيهقى عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة (٣) . وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء ابن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين (٤) .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة :

قال ابن إسحاق: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب من يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته . فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: « لا نبرح حتى نناجز القوم ». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل (٥) .

---

(١) البخارى (٤١٥٢) ومسلم (١٨٥٦/٧٣) . (٢) البخارى (٤١٥٣) .

(٣) البيهقى فى الدلائل (٤/ ٩٧ ، ٩٨) .

(٤) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (١٨٥٧/ ٧٥) . وفيها : « ألفا وثلاثمائة » .

(٥) سيرة ابن هشام (٣٠/ ٢٦١ ، ٢٦٢) .

وروى البخارى عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم روى البخارى عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ فقال ـ يعنى عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع [1] . وعن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه[2] . وروى مسلم عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر [3] . وروى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد، عن سلمة ابن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت [4] . وروى البخارى أيضا عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تبايع ؟ » قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم [5] . وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت [6] .

وروى البيهقى عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعنى الركى ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة . فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأيضا». قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من

---

(١) البخارى (٤١٨٧) .
(٢) مسلم (١٨٥٦/ ٦٧) .
(٣) مسلم (١٨٥٨/ ٧٦) .
(٤) البخارى (٢٩٦٠).
(٥) مسلم (١٨٦٠/ ٨٠) .
(٦) البخارى (٢٩٥٩) .

أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة ابن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا فى يدى ، ثم قلت : والذى كرم وجه محمد ﷺ، لايرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الفتح: ٢٤] . وهكذا رواه مسلم بنحوه ، أو قريبا منه (١) .

وثبت فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم(٢). وروى أبو بكر الحميدى عن جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره». رواه مسلم(٣). وروى الحميدى أيضا عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم ». قال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه (٤). وعن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: « من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل ». فكان أول من صعد خيل بنى الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة. رواه مسلم (٥). وعن أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها ،فقالت لحفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ : « قد قال الله : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ »

---

(١) البيهقى فى الدلائل (٤/ ١٣٨) ومسلم (١٨٠٧/ ١٣٢) .

(٢) البخارى (٤١٦٤) ومسلم (١٨٥٩/ ٧٧) .

(٣) الحميدى فى المسند (٢/ ٥٣٧) ومسلم (١٨٥٦/ ٦٩) .

(٤) الحميدى فى المسند (٢/ ٥١٤) والبخارى (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦/ ٧١) .

(٥) مسلم (٢٧٨٠/ ١٢) .

[مريم:٧٢]، رواه مسلم (١) . وفيه أيضاعن جابر؛ أن عبدًا لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية » (٢) .

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا رسولهﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا ؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .
ثم قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين.

ثم قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الآية] أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

(١) مسلم (٢٤٩٦/١٦٣) . (٢) مسلم (٢٤٩٤/١٦١)

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية، إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى خيبريفتحونها : أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم . فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعا وقدرا ؛ ولهذا قال : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن جريج : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ يعنى: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: أن نشركم فى المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) ﴾

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. عن سعيد بن جبير أو عكرمة، أو جميعا، وبه يقول قتادة فى رواية عنه. الثانى: ثقيف، قاله الضحاك الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر والزهرى. الرابع: هم أهل فارس. عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير. وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة » . قال سفيان : هم الترك [1] .

وقوله: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا

(١) البخارى (٢٩٢٨ ، ٢٩٢٩) بنحوه .

عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار ﴿ فَإِن تُطِيعُوا ﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ . ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

ربع

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. روى البخارى عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم (١) . وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهى الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾

(١) البخارى (٤١٦٣) .

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: فتح خيبر. وعن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى : صلح الحديبية. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أى: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدى الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: يعتبرون بذلك ، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء ، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى : بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال ابن عباس: هى خيبر. وهذا على قوله فى قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هى مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبى ليلى، والحسن البصرى: هى فارس والروم. وقال مجاهد: هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ : يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى: هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ : هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدن غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان : فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى

والنسائي [١] . وروى أحمد عن عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنِي قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وعلي بن أبي طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي: « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو : هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » . فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ . رواه النسائي [٢] .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي : وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: وصدوا الهدى أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم.

وقوله: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ

(١) المسند (٣/ ١٢٢) ومسلم (١٨٠٨/ ١٣٣) وأبو داود (٢٦٨٨) والترمذي (٣٢٦٤) والنسائي في الكبرى (١١٥١٠) .

(٢) المسند (٤/ ٨٦) والنسائي في الكبرى (١١٥١١) . وقال الهيثمي في الزوائد (٦/ ١٤٥):« رجال أحمد رجال الصحيح ».

فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ ﴾ أى: إثم وغرامة ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا . روى الطبرانى : عن جنيد بن سبع قال : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين (١) . وعن ابن عباس: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ : وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ ، وهى قول: « لا إله إلا الله » . وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ : الإخلاص، وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال على: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما. وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهى رأس كل تقوى . وقال سعيد بن جبير لا إله إلا الله ، والجهاد فى سبيله. وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال الزهرى: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادة: لا إله إلا الله.

﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر. وقد روى النسائى عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦] ، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله (٢) .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن

---

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١١٠) : « رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما ثقات » .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٥٠٥/ ١) .

سفيان الكعبى، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم ، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر الناس ؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، و ما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهرى: وكانت خزاعة فى عَيْبَة نصح لرسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْى»، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَدَّه ، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش ، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم إلىّ والد وأنا ولد، وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيكم بنفسى. قالوا: صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد

لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال:«هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ـ والله ـ لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ:«هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت مَلكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له:«الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش ، حتى أتى رسول الله ﷺ ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة ، فقال : يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، معظما لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردفه خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا تكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال:«قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غرزه حيث كان، فإنى أشهد أنه رسول الله. فقال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال:«بلى». قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا ؟ فقال: « أنا عبد الله ورسوله، لن

أخالف أمره ولن يضيعنى». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل بن عمر: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو ، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب. فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد تمت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع أبى جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها فما قام رجل ، ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكلّمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى

إذا أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه البخارى فى صحيحه، فساقه بسياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فروى فى كتاب الشروط من صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل على عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها، بركت به راحلته فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددنهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره». قال

بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شى». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلاوقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ : «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: أخبرنى أيوب،

عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: «قد سَهُل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابا فدعا النبى ﷺ بعلىّ وقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب: محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ فى قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إلى، فقال النبى ﷺ: «إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبى ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا فى الله عز وجل قال عمر: فأتيت نبى الله ﷺ، فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوِّف به» قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك

وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله ، عز جل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠] . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد ، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال: قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم، فقال النبى ﷺ: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبى ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وهكذا ساقه البخارى هاهنا، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك (١) ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ بذلك (٢) . وهذا أشبه والله أعلم ، ولم يسقه أبسط من هاهنا ، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وروى البخارى فى التفسير عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعنى : الصلح الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ فقال: « بلى » . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا،

(١) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢ ، ٤١٨٠) . (٢) البخارى (٢٧١١) .

ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا بن الخطاب ، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى، وفى بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأى، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته»، وفى رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه (١) .

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن قريشا صالحوا النبى ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبى ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: «باسمك اللهم». فقال ﷺ: «اكتب: من محمد رسول الله». قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبى ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبى ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا ، فقال : يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» . رواه مسلم (٢) . وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: « امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود بنحوه (٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادها (٤) .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام،

(١) البخارى (٣١٨١، ٣١٨٢ ، ٤١٨٩، ٤٨٤٤ ، ٧٣٠٨)و مسلم (١٧٨٥/ ٩٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٠٤).
(٢) المسند (٣/ ٢٦٨) ومسلم (١٧٨٤/ ٩٣) .
(٣) المسند (٣١٨٧)وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح » وأبو داود (٤٠٣٧) .
(٤) المسند (٢٨٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب ، فى ذلك، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا» قال: لا ، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ : هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شيء. وقوله: ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى: فى حال دخولكم . وقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال مقدرة ؛ لأنهم فى حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: « رحم الله المحلقين ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة (١) .

وقوله: ﴿ لا تَخَافُونَ ﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ: «وما ذاك؟». قال: دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها

---

(١) البخارى (١٧٢٧) ومسلم (١٣٠١/٣١٨) .

عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينُه	باسم الذى محمدٌ رسوله
خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيله	اليوم نضربكم على تَأْويله
كما ضربناكم على تنزيله	ضربًا يزيل الهام عَنْ مَقِيله
ويذهل الخليل على خليله	قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تُتلى على رسوله	بأن خير القتل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقُزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع (١). وروى أحمد أيضا عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه فى الصحيحين (٢). وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن

(١) المسند (٢٧٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح ».
(٢) المسند (٨٦٨٦) والبخارى (٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/ ٢٤٠).

يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ لعامه الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان [(١)]. وعن ابن عباس قال: إنما سعى النبى ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته [(٢)] . ورواه مسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به [(٣)] . وروى أيضا عن ابن أبى أوفى قال : لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم ؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم [(٤)] .

وروى البخارى أيضا عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا ، أمروه أن يخرج فخرج. وهو فى صحيح مسلم [(٥)] .

وروى البخارى أيضا عن البراء، قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة ، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد وجعفر، فقال علىّ: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: « أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه[(٦)].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم ، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ

---

(١) فى المطبوعة حرفت إلى : « قينقاع » . (٢) البخارى (٤٢٥٧) .

(٣) البخارى (١٦٤٩ ، ٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/ ٢٤٠) والنسائى فى الكبرى (٣٩٧٣) .

(٤) البخارى (٥٢٥٥) .

(٥) البخارى (٤٢٥٢) ولم يعزه صاحب التحفة (٦/ ١٩٣) إلا للبخارى .

(٦) البخارى (٤٢٥١) .

ذَلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى ، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى : بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى : على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا (٢٩) ﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ ، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار، رحيما براً بالأخيار، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر» (١) ، وقال: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه (٢) . كلا الحديثين فى الصحيح.

وقوله: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعنى: السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع. وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقال بعضهم: إن

(١) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٦٦/٢٥٨٦) . (٢) البخارى (٤٨١) ومسلم (٦٥/٢٥٨٥) .

للحسنة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه. والغرض: أن الشيء الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما كان » (١) .
وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير، به (٢) .

فالصحابة رضى الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم. وقال مالك: بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا فى ذلك، فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أى: فراخه، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى: شده ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أى: شب وطال، ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ فى رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم ﴾ «من» هذه لبيان الجنس ﴿مَغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل . روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » (٣) .

---

(١) المسند (٢٨١٣) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٢٨٨) : « إسناده حسن » .
(٢) المسند (٢٦٩٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٧٧٦) .
(٣) مسلم (٢٥٤٠/ ٢٢١) .

تفسير سورة الحجرات

وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

ربع ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

هذه آداب، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله ، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور. قال ابن عباس: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فيما أمركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أى : لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ : هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ فوق صوته. وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر. وروى البخارى عن ابن أبى مُلَيْكَة قال: كاد الخَيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافى. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبا بكر، . انفرد به دون مسلم (١). ثم قال البخارى عن عبد الله بن الزبير : أنه قَدِم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاعَ بن مَعْبد. وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى. فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ

(١) البخارى (٤٨٤٥) .

اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية [الحجرات: ٥]. وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا (١) .

وروى البخارى عن أنس بن مالك، أن النبى ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل : يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده فى بيته مُنكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبى ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ،ما لك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوِّدون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل (٣).

وروى مسلم عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجارى، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ. فقال ثابت: أُنزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة » (٤) . فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صَوت

(١) البخارى (٤٨٤٧) . (٢) البخارى (٤٨٤٦) .
(٣) المسند (٣/ ١٣٧) ، وهو عند البخارى ، انظر السابق .
(٤) مسلم (١١٩/ ١٨٧) .

رجلين فى مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء ، فقال: أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا (١). وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ، كما كان يكره فى حياته؛ لأنه محترم حيا وفى قبره ﷺ ، دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣].

وقوله عز وجل :﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى، كما جاء فى الصحيح:« إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بَالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقى لها بالا يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض » (٢).

ثم ندب الله عز وجل، إلى خفض الصوت عنده، وحَثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن مجاهد، قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهى بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾. ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى: لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة. ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد ذُكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى، فيما أورده غير واحد، روى الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فقال : يا محمد ، يا محمد ـ وفى رواية: يا رسول الله ـ فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدى لزين، وإن

---

(١) البخارى (٤٧٠) . (٢) البخارى (٦٤٧٨) .

(٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٥٥٢) لأحمد فى الزهد .

ذمي لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل» [١] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليُحتَاطَ له،لئلا يحكم بقوله فيكون ـ فى نفس الأمر ـ كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فعظِّموه ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتَم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى : ﴿ النبي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦]. ثم بَيَّن أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى: لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: حببه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أى: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى: الذنوب الكبار .والعصيان وهى جميع المعاصى. وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.روى الإمام أحمد عن ابن [٢] رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون،قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربى، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: « اللهم، لك الحمد كله.اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إنى أسألك النعيم المقيم

(١) المسند (٣/ ٤٨٨) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١٠٨) : « إسناد أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع بن حابس ، وإلا فهو مرسل » .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « أبى رفاعة » صوابه ما أثبتناه من المسند والنسائى ، وابن رفاعة هو : عُبَيْد .

الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إنى أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم،حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم،قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك.اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق». ورواه النسائى فى اليوم والليلة (١) . وفى الحديث المرفوع:« من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن » (٢) .

ثم قال: ﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى: هذا العطاء الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت فى صحيح البخارى عن أبى بكرة، أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول:«إن ابنى هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (٣) . فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله ، وتسمع للحق وتطيعه ، كما ثبت فى الصحيح عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه » (٤) . وروى الإمام أحمد ، أن أنساً قال: قيل للنبى ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبى الله ﷺ وركب

---

(١) المسند (٣/ ٤٢٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٦/ ١٢٥) : « رجاله رجال الصحيح » .والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٤٥) ، وصححه الحاكم فى المستدرك ووافقه الذهبى (٣/ ٢٣) .

(٢) المسند (١١٤) والترمذى (٢١٦٥) وقال : «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) البخارى (٢٧٠٤) .

(٤) البخارى (٢٤٤٣) .

حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبى ﷺ قال: « إليك عنى، فوالله لقد آذانى ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ورواه البخارى ومسلم بنحوه (١) .

وقوله: ﴿ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض ، بالقسط ، وهو العدل ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . روى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن ، بما أقسطوا فى الدنيا » . ورواه النسائى(٢). وهذا إسناد جيد قوى ، رجاله على شرط الصحيح . عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا » . ورواه مسلم والنسائى(٣).

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٤) . وفى الصحيح: « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» (٥). وفى الصحيح أيضا : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثله» (٦). والأحاديث فى هذا كثيرة ، وفى الصحيح : « مثل المؤمنين فى تَوادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهَر» (٧). وفى الصحيح أيضا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه(٨) . وروى أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما فى الرأس» (٩). تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعنى: الفئتين المقتتلين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾

---

(١) المسند (٣/١٥٧) والبخارى (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩/١١٧) .

(٢) النسائى (٥٣٧٩) .

(٣) مسلم (١٨٢٧/١٨) والنسائى (٥٣٧٩) .

(٤) البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠/٥٨) .

(٥) مسلم (٢٦٩٩/٣٨) .

(٦) مسلم (٢٧٣٢/٨٧) .

(٧) مسلم (٢٥٨٦/٦٦) .

(٨) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٥/٦٥) .

(٩) المسند (٥/٣٤٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/١٩٠) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس» ويروى: «وغمط الناس» (١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة:١]، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١] أى: يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضا. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أى: لا تدعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد عن أبى جَبِيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِىَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ . ورواه أبو داود (٢) .

وقوله: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أى: من هذا ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثير منه احتياطا ، وروى مالك عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله

---

(١) مسلم (٩١/ ١٤٧) .

(٢) المسند (٤/ ٢٦٠) وأبو داود (٤٩٦٢) . ورواه الترمذى (٣٢٦٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .

إخوانا». رواه البخارى ومسلم وأبو داود [(١)] . وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذى ـ وصححه [(٢)].

وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أى: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق فى الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبا فى الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يستعمل كل منهما فى الشر، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا » [(٣)]. وقال الأوزاعى: التجسس: البحث عن الشىء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصرْم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . ورواه الترمذى . وقال: حسن صحيح [(٤)] .
وروى أبو داود عن عائشة قالت : قلت للنبى ﷺ :حسبك من صفية كذا وكذا !ـ قال غير مسدد : تعنى قصيرة ـ فقال: « لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء. البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا ، فقال ﷺ : « ما أحب أنى حكيت إنساناً ، وإن لى كذا وكذا ». ورواه الترمذى . وقال : حسن صحيح [(٥)] .

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر:« ائذنوا له،بئس أخو العشيرة » [(٦)] ، وكقوله لفاطمة بنت قيس ـ وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » [(٧)] . وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ؟ أى: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا ؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها ، كما قال ، عليه السلام ، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقىء ثم يرجع فى

---

(١) الموطأ (٩٠٨/٢) والبخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٨/٢٥٦٣) وأبو داود (٤٩١٧) .
(٢) مسلم (٢٣/٢٥٥٩) والترمذى (١٩٣٥) .
(٣) البخارى (٢٤٤٢) .
(٤) أبو داود (٤٨٧٤) والترمذى (١٩٣٥) .
(٥) أبو داود (٤٨٧٥) والترمذى (٢٥٠٢ ، ٢٥٠٣) .
(٦) البخارى (٣١٣٢) .
(٧) مسلم (٣٦/١٤٨٠) .

قيئه» (١) ، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء » (٢) . وثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال فى خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا » (٣) . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام : ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذى . وقال: حسن غريب (٤). وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتها ـ أو قال: فى خدورها ـ فقال: « يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته» (٥) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عَمّ لأبى هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد زنيت فأعرض عنه ـ قالها أربعا ـ فلما كان فى الخامسة قال: «زنيت»؟ قال: نعم. قال: «وتدرى ما الزنا ؟ » قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا. قال: «ما تريد إلى هذا القول ؟ » قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب المِيل فى المكحلة والرِّشاء فى البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجُمَ رجم الكلب. ثم سار النبى ﷺ حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها » (٦) إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين » (٧) .

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألاّ يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجُهَنِىّ ، عن النبى ﷺ قال: « من حمى

---

(١) البخارى (٢٦٢١) . (٢) البخارى (٢٦٢٢) .

(٣) مسلم (١٢١٨/١٤٧) . (٤) أبو داود (٤٨٨٢) والترمذى (١٩٢٧) .

(٥) أبو يعلى فى مسنده (٣/ ٢٣٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ٩٦) :« رجاله ثقات » .

(٦) أبو يعلى فى مسنده (١٠/ ٥٢٤) .

(٧) المسند (٣/ ٣٥١) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ٩٤) :« رجاله ثقات » .

مؤمنا من منافق يعيبه ،بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال ». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ـ وهو ابن المبارك ـ به بنحوه [١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجهاً، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبا،وهى أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل. فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبها على تساويهم فى البشرية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ أى: ليحصل التعارف بينهم، كلٌّ يرجع إلى قبيلته.

وقوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ أى: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: روى البخارى عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال:«أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال:«فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟ » قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهُوا ». ورواه النسائى [٢] . وروى مسلم عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». ورواه ابن ماجه [٣] . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: إن النبى ﷺ قال له:« انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى ». تفرد به أحمد [٤] . وروى الإمام أحمد عن درة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أى الناس خير؟ فقال ﷺ:« خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، عز وجل، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم » [٥] .

---

(١) المسند (٣/ ٤٤١) وأبو داود (٤٨٨٣) ، وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٤٦٨٩) والنسائى فى الكبرى (١١٢٥٠) .

(٣) مسلم (٢٥٦٤/ ٣٤) وابن ماجه (٤١٤٣) .

(٤) المسند (٥/ ١٥٨) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ٨٧) :« رجاله ثقات » .

(٥) المسند (٦/ ٤٣٢) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ٢٥٧) ، ٢٥٨ (٦٥٧) من طريق شريك به ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢٦٦) :« رجاله ثقات ، وفى بعضهم كلام لا يضر » .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى «كتاب الأحكام» ، ولله الحمد والمنة.

ربع ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص، قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلانا ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبى ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبى ﷺ: «إنى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم». أخرجاه فى الصحيحين (١).

فقد فرق النبى ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا فى

(١) المسند (١٥٢٢) والبخارى (٢٧) ومسلم (١٥٠/ ٢٣٧) .

ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعى، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخارى، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا فى قوله: ﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أى: استسلمنا خوف القتل والسبى. قال مجاهد: نزلت فى بنى أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ. والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون فى سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينقصكم من أجوركم شيئا، كقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] . وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهى التصديق المحض ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى: فى قولهم إذا قالوا: « إنهم مؤمنون »، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أى: أتخبرونه بما فى ضمائركم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى: لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ . ثم قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعنى: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم ذلك، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ ». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ (١) . ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) البخارى (٤٣٣٠) .

تفسير سورة ق
وهى مكية

هذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام: إنه من (عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هى أول المفصل ما رواه أبو داود عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قُبة له ـ قال مسَدَّد: وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ـ قال أبو سعيد: قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ـ فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين ـ قال مُسدَّد: بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذى كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة ! قال: «إنه طرأ على حزبى من القرآن، فكرهت أن أجىء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده. ورواه ابن ماجه والإمام أحمد (١) .

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه، ولله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة (٢).

وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تَنُّورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ،

---

(١) مضى مختصرا (١/ ٤٧) .

(٢) المسند (٥/ ٢١٧) ومسلم (٨٩١/ ١٤) وأبو داود (١١٥٤) .

كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم وأبو داود والنسائى [(١)].
والقصد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.
وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج»[(٢)] فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ـ والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا فى جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه: قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾. وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا

---

(١) المسند (٦/ ٤٣٥) ومسلم (٨٧٣/ ٥٢) وأبو داود (١١٠٠) والنسائى (٩٤٩) .
(٢) البخارى (٣٤٦١) .

بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ؟ أى: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ؟ وأين ذهبت ؟ وإلى أين صارت ؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ ؟ أى: بالمصابيح ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نضر ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أى: نافعاً ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من

بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال ﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أى: منضود ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان». ﴿وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان» بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذبت رسولهم، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

خلق عليم﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم، يقول : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته » (١) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» (٢) .

وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ يعنى: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾، كما قال فى المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ منكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] ، يعنى ملائكته . وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ [الحجر:٩] ، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك،فللملك لَمّة فى الإنسان كما أن للشيطان لمة ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَان﴾ يعنى: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد﴾ أى: مترصد﴿ مَا يَلْفِظ ﴾ أى: ابن آدم ﴿ مِن قَوْل ﴾ أى: ما يتلكم بكلمة ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾ أى: إلا ولها من يراقبها معدٌّ لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾. وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم

---

(١) البخارى (٤٩٧٤) .

(٢) البخارى (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧/ ٢٠٢) .

من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث. ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا بن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء:١٣، ١٤] ثم يقول: عدل ـ والله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك. وقال ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول عز وجل: وجاءت ـ أيها الإنسان ـ سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وعن البهى قال: لما أن ثقل أبو بكر جاءت عائشة، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات» (١). وفى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد ـ بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر ـ قد حل بك ونزل بساحتك. والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور للفزع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم

(١) البخارى (٦٥١٠).

وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل [(١)].

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى عن عثمان بن عفان أنه خطب، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد. عن أبي هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدي. وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: **أحدها**: أن المراد بذلك الكافر. عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. **والثاني**: أن المراد بذلك كل أحد من: بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن عبد الله ابن عباس. **والثالث**: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ ربع

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة. فعند ذلك يحكم الله، تعالى، في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٠٧٩).

جهنم كل كفار عنيد﴾. وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿ألقيا﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عنيد﴾ : معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مناع للخير﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿معتد﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيرته وأمره. ﴿مريب﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿الذي جعل مع الله إلها آخر﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تنطوى عليهم (١) . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن نبى الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس. فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم » (٢) .

﴿قال قرينه﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ أى: ما أضللته ﴿ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لا تختصموا لدي﴾ أى: عندى ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين. ﴿ما يبدل القول لدي﴾ : قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ أى: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

(١) المسند (٣/ ٤٠) والترمذى (٢٥٧٤) وصححه الألبانى .
(٢) المسند (٣/ ٤٠) وصححه الألبانى .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيد﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

روى البخارى عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط » (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمِك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة». ثم رواه مسلم (٢) . وروى البخارى عن أبى هريرة ـ رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ: « يقال لجهنم : هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها، فتقول: قط قط » (٣) .

وروى البخارى، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر» (٤) . وروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما ، فقال للجنة : إنما أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ملؤها » انفرد به مسلم دون البخارى من هذا الوجه (٥) . والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال: عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى،

---

(١) البخارى (٤٨٤٨) .
(٢) المسند (٣/ ٢٣٤) ومسلم (٢٨٤٨/ ٣٨) .
(٣) البخارى (٤٨٤٩) .
(٤) البخارى (٤٨٥٠) .
(٥) مسلم (٢٨٤٧) .

وسعت كل شىء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فيلقى فى النار أهلها فتقول : هل من مزيد ؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء » (١). وعن ابن عباس ، ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزاد فىّ ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾: وهل فى مدخل واحد؟ قد امتلأت. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه، فتنزوى وتقول حينئذ: هل بقى فىّ مزيد ؟ يسع شيئاً. قال ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة. فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أُزْلِفَتْ﴾ : أدنيت وقربت من المتقين ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت قريب . ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أى: رجاع تائب مقلع ﴿حَفِيظٍ ﴾أى: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه. وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله، عز وجل. ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله ﷺ :«ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه » (٢). ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أى : ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه . ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أى: الجنة ﴿ بِسَلامٍ ﴾ قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى: يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولا. وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسنّه فى ساعة واحدة». ورواه الترمذى. وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى» (٣). وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهيب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم (٤) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾

(١) المسند (٣/ ١٣) .
(٢) البخارى (٦٦٠) .
(٣) المسند (٣/ ٩) والترمذى (٢٥٦٣) وصححه الألبانى .
(٤) مسلم (١٨١/ ٢٩٧) .

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أى: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ضربوا فى الأرض .وقال قتادة: فساروا فى البلاد، أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها، ويقال لمن طوف فى البلاد: نقب فيها. وقوله: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أى: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أى: لعبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى: لُبٌّ يَعِى به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ يعنى: لا يحدث نفسه فى هذا بقلب. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثورى وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى. وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله : خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أى: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعنى: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا » . ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ . ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة ، من

حديث إسماعيل، به (١).

وقوله: ﴿ومنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْه﴾ أي: فصل له، كقوله: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلَى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» (٢) . والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنَّخَعى والحسن وقتادة، وغيرهم. روى الإمام أحمد عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والنسائى(٣).

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكا أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿يوم يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَق﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أى: من الأجداث ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِير﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ : وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر

---

(١) المسند (٤/ ٣٦٥) والبخارى (٤٨٥١) ومسلم (٦٣٣/ ٢١١) .
(٢) البخارى (٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥/ ١٤٢) .
(٣) المسند (١٠١٢) وأبو داود (١٢٧٥) والنسائى فى الكبرى (٣٤١) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح ».

الله إسرافيل فينفخ فى الصور، وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٥٢] ، وفى صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض » (١). وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أى: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ .وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ـ ٩٩]. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]،وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار ، يا رحيم .

(١) مسلم (٣/٢٢٧٨) من حديث أبى هريرة .

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾

ثبت من غير وجه، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ ؟ قال: الريح قال : ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾ ؟ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ ؟ قال: السفن. قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ ؟ قال: الملائكة. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدى، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقراً: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء. فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور ـ كما تقدم : أنها السفن، تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هى النجوم تجرى يسرا فى أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أى: لخبر صدق ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ وهو: الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أى: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، وغيرهم. وقال الضحاك، والمنْهَال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق، فذلك الحبك. وعن أبى صالح: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالنجوم. وقال عبدالله ابن عمرو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ يعنى: السماء السابعة. وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة، وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع،

والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفى قول مختلف مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة : إنكم لفى قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غُمْر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ .إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ـ ١٦٣] . قال ابن عباس، والسدى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس:١٧] ، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون. وقال ابن عباس: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أى: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون. وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون. ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ : وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون ،كما يفتن الذهب على النار. وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النَّخَعى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون. ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بَيَّن إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثانى: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير.

وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيدا، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رَجُلٍ كذاب ، فكان أول ماسمعته يقول: « يأيها الناس ، أطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام » (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعرى: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام » (٢). وقال مَعْمَر فى قوله : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ :كان الزهرى والحسن يقولان: كانوا كثيرا من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس: ماينامون .

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار فى صلاة فهو أحسن. وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث

(١) المسند (٥/ ٤٥١) والترمذى (٢٤٨٥) وقال : « حسن صحيح » .
(٢) المسند (٦٦١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » (١) . وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا : أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ : لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة ، فقال: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ أى : جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أما السائل: فمعروف ، وهو الذى يبتدئ بالسؤال ، وله حق .

وأما المحروم: فقال ابن عباس، ومجاهد : هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم . يعنى : لا سهم له فى بيت المال،ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك. وقال أبو قِلاَبة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال قتادة، والزهرى : ﴿الْمَحْرُومِ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئاً، قال الزهرى: وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوَّاف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه» (٢). واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾

(١) مسلم (٧٥٨/١٦٩) . (٢) البخارى (٤٥٣٩) ومسلم (١٠٣٩/١٠١) .

هذه القصة قد تقدمت فى سورة «هود» و«الحجر » [1] أيضا. وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] ، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾. وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود:٦٩] أى : مشوى على الرَّضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾: تلطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

وقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى ، وهو قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى : فى صرخة عظيمة ورنة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وهى قولها : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أى : ضربت بيدها على جبينها ، قاله مجاهد . وقال ابن عباس : لطمت ، أى تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى : كيف ألد وأنا عجوز ، وقد كنتُ فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله.

---

(١) فى هود ، الآيات (٦٩ ـ ٧٣) ، والحجر ، الآيات (٥١ ـ ٥٦) .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾

قال الله مخبرا عن إبراهيم، عليه الصلاة و السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ ـ ٧٦]. وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: ما شأنكم وفيم جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُّسَوَّمَةً﴾ أى: معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففى ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أى: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكبارا وعنادا. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾

أى: بجموعه التى معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. والمعنى الأول قوى كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أى: معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى: لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أى: ألقيناهم فى اليم، وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

ثم قال عز وجل : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى: المفسدة التى لا تنتج شيئا. قاله الضحاك، وقتادة، وغيرهما. ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أى: كالشىء الهالك البالى. قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا: هى الجنوب. وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور »(١) . ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعنى إلى وقت فناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت:١٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أى: من هَرَبٍ ولا نهوض ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أى: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أى: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة فى أماكن كثيرة، من سور متعددة.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى: جعلناها سقفا محفوظا رفيعا ﴿بِأَيْدٍ﴾ أى: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثورى، وغير واحد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أى: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هى ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى: جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى: وجعلناها مهدا لأهلها ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات

---

(١) مسلم (١٧/٩٠٠) .

والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾! قال الله عز وجل: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال ابن عباس: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرهًا، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ أي: إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين». ورواه أبو داود، والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح (١).

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا بن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك». ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب (٢).

---

(١) المسند (٣٧٤١) وأبو داود (٣٩٩٣) والترمذي (٢٩٤٠).

(٢) المسند (٢/٣٥٨) والترمذي (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الألباني.

وقد روى الإمام أحمد عن حَبَّة وسواء ابنى خالد يقولان : أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبنى بناء ـ وقال أبو معاوية : يصلح شيئا ـ فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » [١] .

وقوله : ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أى : نصيبا من العذاب ﴿ مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُون ﴾ أى : فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقع لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعنى : يوم القيامة .

---

(١) المسند (٣/٤٦٩) .

تفسير سورة الطـور
وهى مكية

عن جُبَير بن مطعم، قال: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو: قراءة ـ منه. أخرجاه [١] ، وروى البخارى عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: « طُوفى من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور[٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل. ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء ـ بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» [٣] يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه بانى الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة،

---

(١) البخارى (٤٨٥٤) ومسلم (٤٦٣/ ١٧٤) . وسيأتى عند الآية (٣٦) من هذه السورة مطولا .

(٢) البخارى (٤٨٥٣) .

(٣) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٢/ ٢٥٩) .

ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سِمَاك، عن خالد بن عَرْعَرَة ، عن على: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جُرَيْج، وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل الله منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أى: أضرمت فتصير نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب، ورُوى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جُبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الحوض مسجور»، تعنى: فارغا. وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: لواقع بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن» عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما [(١)].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها فى بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتنسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وقال مجاهد، والشعبى، والسدى، وغيرهم: يدفعون فيها دفعا ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد ص ٦٤ .

أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أي: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السرر فى الحجال. ومعنى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾

ربع

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل

العمل، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته ، للتساوى بينه وبين ذاك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ (١) وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾. وهكذا يقول الشعبى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة. وهو اختيار ابن جرير. وقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن على قال: سألتْ خديجة النبى ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما فى النار». فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » . قالت : يا رسول الله، فولدى منك. قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ الآية (٢) .

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقدروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول : يا رب ، أنى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » (٣) . إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » (٤).

وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ : لما أخبر عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٤١]. وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ أى: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أى: هَذَيَان، ولا إثم، أى: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثيم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان. فنزه الله خمر

---

(١) « ذرياتهم » بالجمع : قراءة ثابته أيضا . وانظر تخريج القراءتين فى تعليق الشيخ شاكر على الحديث رقم (١١٣١) من المسند .

(٢) المسند (١١٣١) وقال الشيخ شاكر :« إسناده حسن » والحديث من زيادات عبد الله بن الإمام أحمد . وانظر تخريجه مفصلا هناك ، وكذا توجيه القراءتين « ذرياتهم » و « ذريتهم » . وقد أشار أيضا إلى ذلك عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام .

(٣) المسند (٢/٥٠٩) وابن ماجه (٣٦٦) وفى الزوائد : « إسناده صحيح رجاله ثقات » .

(٤) مسلم (١٦٣١/١٤) .

الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها ـ كما تقدم ـ صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: إخبار عن خَدَمهم وحَشَمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]. وقوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسولهﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتيه الرِّئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء﴿وَلا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرا عليهم فى قولهم فى الرسول ﷺ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ أى: قوارع الدهر. والمنون : الموت ، يقولون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَه ﴾ أى: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن، قال الله: ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: كفرهم هو الذى يحملهم على هذه المقالة﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِه إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أى: إن كانوا صادقين فى قولهم: «تَقَوَّله وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أى : لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا . روى البخارى عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبى أن يطير. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا ، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ أى: أهم خلقوا السموات والأرض ؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ أى: أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك، بل الله ، عز وجل ، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ ؟ أى: مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد

---

(١) مضى فى مقدمة هذه السورة مختصرا ، وخرج هناك .

جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أى: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أى: فهم من أدنى شىء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ، فالذين كفروا هم المكيدون ، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ؟ وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أى: عليهم يعذبون به ، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أى: دعهم ـ يا محمد ـ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ولامكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] ، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر : أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة [1] . ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد

---

(١) مسلم (٣٩٩/٥٢) .

وغيره، عن النبى ﷺ أنه كان يقول ذلك (١). وقال أبو الجوزاء : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لى ـ أو قال: ثم دعا ـ استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن (٢) . وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس. وقال أبو الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » . رواه الترمذى ـ وهذا لفظه ـ والنسائى فى اليوم والليلة، وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناد على شرط مسلم (٣). وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جُبَير بن مطعم(٤). ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ .وقد أفردت لذلك جزءا على حِدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. وقوله: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أى: عند جنوحها للغيبوبة. وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر (٥). وفى لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » (٦) .

---

(١) المسند (٣/ ٥٠) وأبو داود (٧٧٥) والترمذى (٢٤٢) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٥/ ٣١٣) والبخارى (١١٥٤) وأبو داود (٥٠٦٠) والترمذى (٣٤١٤) .

(٣) الترمذى (٣٤٣٣) والنسائى (١٠٢٣٠) والحاكم(١/ ٥٣٦) .

(٤) أبو داود (٤٨٥٧) والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٧) .

(٥) البخارى (١١٦٩) ومسلم (٧٢٤/ ٩٤) .

(٦) مسلم (٧٢٥/ ٩٦) .

تفسير سورة النَّجم
وهى مكية

روى البخارى عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدة: ﴿ والنَّجم ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تُرَاب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً، وهو أمية بن خلَف. وقد رواه مسلم وأبو داود والنسائى(١) وقوله فى الممتنع: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خَلْقه، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق. واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ فقال مجاهد: يعنى بالنجم: الثُّريَّا إذا سقطت مع الفجر. وكذا رُوى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة. وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾: إذا رُمى به الشياطين. وعن مجاهد [أيضاً]: يعنى: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، ﷺ بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وهى علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو ﷺ وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أى: ما يقول قولا عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثلُ الحيين ـ أو: مثل أحد الحيين : رَبِيعة ومُضَر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما

(١) البخارى (١٠٧٠، ٣٨٥٣ ، ٣٩٧٢ ، ٤٨٦٣) ومسلم (٥٧٦/ ١٠٥) وأبو داود (١٤٠٦) والنسائى (٩٥٩).

أقول ما أقول » (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتنى قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ، ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « اكتب ، فوالذى نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق » . ورواه أبو داود (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقا». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال: «إنى لا أقول إلا حقا » (٣).

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علَّمه الذى جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبى هريرة وابن عمرو(٤) أن النبى ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغنىٍّ، ولا لِذِى مرّة سَوِىّ » (٥).

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقتادة، والربيع بن أنس ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ يعنى: جبريل، استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذى يأتى منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذى يأتى منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم. روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سَدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم. انفرد به أحمد (٦) .

---

(١) المسند (٥/ ٢٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٨٤): « رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة ».

(٢) المسند (٢/ ١٦٢) وأبو داود (٣٦٤٦) .

(٣) المسند (٢/ ٣٤٠) والترمذى (١٩٩٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) فى المطبوعة والمخطوطة : « ابن عمر » صوابه ما أثبتناه .

(٥) أبو داود (١٦٣٤) والترمذى (٦٥٢) عن ابن عمرو ، وابن ماجه (١٨٣٩) عن أبى هريرة .

(٦) المسند (٣٧٤٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

وروى أحمد عن ابن عباس قال: سأل النبى ﷺ جبريل أن يراه فى صورته، فقال: ادع ربك. فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبى ﷺ صعِق، فأتاه فَنَعَشَه ومسح البزاق عن شِدْقه. انفرد به أحمد (١).

وقوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أى: بقدرهما إذا مُدَّا. قاله مجاهد، وقتادة. وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كبدها. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أى: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقترب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين » (٢) . فجعل هذه إحداهما.

وعن عائشة قالت: كان أولَ شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجياد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يمينا وشمالا فلم ير شيئا ـ ثلاثاً ـ ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريلُ ـ يُسكنّه ـ فهرب النبى ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئا، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ يعنى جبريل إلى محمد ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (٣) . وروى البخارى عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح (٤) .

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح.

---

(١) المسند (٢٩٦٧) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » . وسيأتى عند تفسير الآية (١٣) .
(٢) مسلم (١٧٦/ ٢٨٥) . (٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧/ ٢٧) .
(٤) البخارى (٤٨٥٧) .

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ روى مسلم عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين (١) . وكذا قال أبو صالح والسّدى وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفى رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهى محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح فى ذلك شيء عن الصحابة. وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيتَ ربك ؟ فقال: «نور أنى أراه». وفى رواية: «رأيت نورا» (٢).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾: هذه هى المرة الثانية التى رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التى خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الإسراء بطرقها وألفاظها فى أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين وغيرهم. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدرّ والياقوت» (٣). وهذا إسناد جيد قوى. وروى أحمد أيضا عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصما عن الأجنحة ، فأبى أن يخبرنى، قال: فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب(٤) . وهذا أيضا إسناد جيد. وروى أحمد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل، عليه السلام، فى خُضر معلق به الدر» (٥) . إسناد جيد أيضا.

وروى أحمد أيضا عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها ، فقال : « إنما ذاك جبريل». لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض ، سادّا عُظْمُ خلقه ما بين السماء والأرض . أخرجاه فى الصحيحين (٦). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله ؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه، عز وجل؟ فقال: إنى قد سألته فقال: «قد رأيته نورا ، أنى أراه» (٧). وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وعن

(١) مسلم (١٧٦/ ٢٨٥). (٢) مسلم (١٧٨/ ٢٩٢).
(٣) مضى تخريجه عند الآية (٧) من السورة .
(٤) المسند (٣٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .
(٥) المسند (٣٨٦٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٦) المسند (٦/ ٢٤١) والبخارى (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧/ ٢٨٧)
(٧) المسند (٥/ ١٤٧) .

عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أى شىء كنت تسأله ؟ قال : قلت : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال : «رأيت نورا » (١) . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، أنه قال فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾، قال: رأى جبريل ، عليه السلام (٢) .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ :روى الإمام أحمد عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا: أُعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقحمات .انفرد به مسلم (٣) .

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ قال ابن عباس : ما ذهب يمينا ولا شمالا ، ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ : ما جاوز ما أمر به. وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ ، كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ (٤) مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [طه: ٢٣] أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، أنه قال: إن محمدا لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يُريه نفسه فى صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صَعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال: فلما أحسَّ (٥) جبريل ربه، عز وجل، عاد فى صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ .عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ .مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال: خَلْقَ جبريل، عليه السلام (٦).

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

ربع

(١) مسلم (١٧٨/ ٢٨٣) . (٢) مسلم (١٧٥/ ٢٨٣) .
(٣) المسند (١١٠٤) ومسلم (١٧٣/ ٢٧٩) . (٤) فى المخطوطة : « لنريه » وهو خطأ .
(٥) فى المخطوطة و المطبوعة :« أخبر» والمثبت من المسند .
(٦) المسند (٣٨٦٤) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح » .

يقول تعالى مُقَرِّعا للمشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن، عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ﴾ ؟ وكانت «اللات» صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنَة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وروى البخارى عن ابن عباس فى قوله: ﴿اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ قال: كان اللات رجلا يلت السَّويق ،سويق الحاج (١) .

قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز.وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهى بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزَّى لكم فقال رسول الله ﷺ : « قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم» (٢) . وروى البخارى من حديث الزهرى، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقَامِرْك، فليتصدق» (٣) . وهذا محمول على من سبق لسانه إلى ذلك.

وأما «مناة» فكانت بالمُشَلَّل ـ عند قُدَيد، بين مكة والمدينة ـ وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخارى عن عائشة نحوه (٤). وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . قال ابن إسحاق فى السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطَوَفَاتِها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم،عليه السلام، ومسجده. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ ؟.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾ ؟ أى: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أى: جورا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها. ثم قال منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿ مَّا أَنزَلَ

---

(١) البخارى (٤٨٥٩) .
(٢) البخارى (٤٠٤٣) .
(٣) البخارى (٤٨٦٠) .
(٤) البخارى (٤٨٦١) .

اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أى: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أى: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئا يحصل له. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد (١).

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ أى: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف فى الدنيا والآخرة ، فهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣]، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩] ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: لا يجدى شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» (٢) .

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا﴾ أى: أعرض عن الذى أعرض عن الحق وهجره ﴿وَلَمْ

---

(١) المسند (٢/٣٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/١٥٤) :« رجاله رجال الصحيح » .

(٢) البخارى (٥١٤٣) ومسلم (٢٥٦٣/٢٨) .

يُردْ إلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أى: طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (١) وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مَبْلَغَ علمنا». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أى: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذى لا يجور أبداً، لا فى شرعه ولا فى قَدَره.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغنى عما سواه، الحاكم فى خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أى: يجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أى: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾. وهذا استثناء منقطع ؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمَم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ، قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنَا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمنَّى وتَشْتَهى، والفرج يُصدِّق ذلك أو يُكذِّبه». أخرجاه فى الصحيحين (٢). وعن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشى، ويُصدّق ذلك الفرج أو يُكذّبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللَّمَم. وكذا قال مسروق، والشعبى. وقال عبد الرحمن بن نافع ـ الذى يقال له: ابن لبابة الطائفى ـ قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال ابن عباس: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم. وقال مجاهد فى هذه الآية: ﴿إِلاَّ

---

(١) المسند (٦/ ٧١)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٢٩١): «رجاله رجال الصحيح غير زويد بن نافع وهو ثقة».
(٢) المسند (٥ ٠ ٧٧) والبخارى (٦٦١٢) ومسلم (٢٦٥٧/ ٢٠).

﴿اللَّمَمَ﴾ قال: الذى يلم بالذنب ثم يَدَعه. وعن ابن عباس: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾** قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جما　　　وأى عبد لك ما ألما؟!»

رواه الترمذى، ثم قال : هذا حديث حسن صحيح غريب (١). وعن الحسن قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود وعنه. قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها. وعن ابن الزبير: **﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾** قال: ما بين الحدين: حد الدنيا وعذاب الآخرة. وقال ابن عباس فى قوله: **﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾**: كل شىء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شىء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: **﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾** أى: رحمته وَسِعَت كل شىء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** [الزمر:٥٣]. وقوله: **﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾** أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة ، وفريقا للسعير. وكذا قوله: **﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾**: قد كتب الملك الذى يُوكَّل به رزقَه وأجلَه وعمله، وشقى أم سعيد .

وقوله: **﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾** أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم **﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾**، كما قال: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾** [النساء:٤٩]. وروى مسلم فى صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى بَرَّة، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت بَرَّة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها ؟ قال: «سموها زينب» (٢) . وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى بكْرَة، قال: مدح رَجُلٌ رجلاً عند النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك ـ مراراً ـ إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا ـ والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدا ـ أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك». وكذا رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه (٣) . وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه، قال: فجعل

---

(١) الترمذى (٣٢٨٤) .　　(٢) مسلم (١٨/٢١٤٢) .

(٣) المسند (٥/ ٤١، ٤٥) والبخارى (٢٦٦٢) ومسلم (٣٠٠٠/ ٦٥) وأبو داود (٤٨٠٥) وابن ماجه (٣٧٤٤) .

المقداد بن الأسود يحثو فى وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو فى وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود (١) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى ذَامًا لمن تولى عن طاعة الله، ﴿فلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ. وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد ابن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ ؟ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا ؟! أى: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ قال سعيد بن جبير، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به. وقال ابن عباس: ﴿وَفَّىٰ﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَفَّىٰ﴾ ما أمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّىٰ﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهى، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يُقتَدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. وروى الترمذى عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره » (٢).

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شىء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَن

---

(١) المسند (٦/ ٥) ومسلم (٣٠٠٢/ ٦٨) وأبو داود (٤٨٠٤) .

(٢) الترمذى (٤٧٥) وقال : « حديث حسن غريب » ، وصححه الألبانى .

﴿لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ أى: كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما (١).

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به » (٢) ، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله، كما جاء فى الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه » (٣) . والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ الآية [يس:١٢]. والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضا من سعيه وعمله، وثبت فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا » (٤).

وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى: فيخبركم به ، ويجزيكم عليه أتم الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ أى: الأوفر.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ

---

(١) وللإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ جواب شاف ، فى بيان هذه المسألة ، وقد سئل عنها فأجاب :« أما الصدقة عن الميت فإنه ينتفع بها باتفاق المسلمين . وكذلك ينفعه الحج عنه ، والأضحية عنه ، والعتق عنه ، والدعاء والاستغفار له بلا نزاع بين الأئمة . وأما الصيام عنه وصلاة التطوع عنه ، وقراءة القرآن عنه ، فهذا فيه قولان للعلماء : أحدهما : ينتفع به ، وهو مذهب أحمد وأبى حنيفة وغيرهما ، وبعض أصحاب الشافعى وغيرهم . والثانى : لا تصل إليه وهو المشهور فى مذهب مالك والشافعى . وأما الاستئجار لنفس القراءة والإهداء فلا يصح ذلك » (مجموعة الفتاوى ٢٤/ ١٧٥ط. الوفاء).

وفى موضع آخر قال :« والأئمة اتفقوا على أن الصدقة تصل إلى الميت ، وكذلك العبادات المالية كالعتق. وإنما تنازعوا فى العبادات البدنية كالصلاة والصيام والقراءة » ثم رجح الإمام ابن تيمية بالدليل قول من قال بوصول العبادات البدنية إلى الميت . (انظر بالتفصيل : مجموعة الفتاوى ٢٤/ ١٧٠ ـ ١٧٤ ط . الوفاء) .

(٢) مسلم (١٦٣١/ ١٤) .

(٣) أحمد (٦/ ٣١) والترمذى (١٣٥٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .

(٤) مسلم (٢٦٧٤/ ١٦) .

ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى : ﴿وأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أى: المعاد يوم القيامة. عن عمرو بن ميمون الأودىّ قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بنى أود، إنى رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أى : خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ، كقوله: ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك :٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ. أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦ ـ ٤٠] .

وقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ أى: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أى: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَغْنَىٰ﴾: مَوَّل ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أخدم. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس، ومجاهد : ﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رَضّى.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له: «مرزَم الجوزاء»، كانت طائفة من العرب يعبدونه. ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ﴾ وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر:٦ ـ ٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ أى: دمرهم فلم يبق منهم أحدا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أى: أشد تمردا من الذين من بعدهم، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعنى: مدائن لوط، قَلَبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يعنى: من الحجارة التى أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]. ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أى: ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى؟ قاله قتادة. وقال ابن جُرَيْج: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ سجدة

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمدا ﷺ ﴿مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ أى: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]. ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، وهى القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه. ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿تَعْجَبُونَ﴾ من أن يكون صحيحا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ أى: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال ابن عباس: الغناء، هى يمانية، اسمدْ لنا: غن لنا. وكذا قال عكرمة. وفى رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن على بن أبى طالب. وفى رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدى. ثم قال آمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا. روى البخارى عن ابن عباس قال: سجد النبى ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم (١).

(١) البخارى (٤٨٦٢).

تفسير سورة القمر
وهى مكية

قد تقدم فى حديث أبى واقد (١) : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، فى الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] ، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ والشمس على قُعَيْقِعان بعد العصر ، فقال : « ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى» (٢) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعثتُ والساعة هكذا »، وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه (٣) . وروى الإمام أحمد عن خالد ابن عمير قال: خطب عتبة بن غزْوَان ـ قال بهز: وقال قبل هذه المرة ـ خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بَصرْمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعرًا ، والله لتملؤنه ، أفعجبتم ! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مِصْرَاعَى الجنة مسيرة أربعين عاما ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام » وذكر تمام الحديث ، انفرد به مسلم (٤) .

وقوله: ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ : قد كان هذا فى زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس

---

(١) وذلك عند تفسير سورة « ق » فى أولها .

(٢) المسند (٥٩٦٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٥/ ٣٣٨) والبخارى (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠/ ١٣٢) .

(٤) المسند (٤/ ١٧٤) ومسلم (٢٩٦٧/ ١٤) .

قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر» [(١)] . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . ورواه مسلم [(٢)] . وروى البخارى عن أنس بن مالك؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما [(٣)] . وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه [(٤)] . وروى البخارى عن ابن عباس قال : انشق القمر فى زمان رسول الله ﷺ . ورواه مسلم [(٥)]. وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلْقَتَين: فِلْقَة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد». رواه مسلم والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح[(٦)]. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». رواه البخارى ومسلم[(٧)].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال قتادة : معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: يوم القيامة. وقال السدى: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعنى: أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ

---

(١) البخارى (٤٧٦٧) .
(٢) المسند (٣/ ١٦٥) ومسلم (٢٨٠٢/ ٤٦) .
(٣) البخارى (٣٨٦٨) .
(٤) المسند (٤/ ٨١) .
(٥) البخارى (٣٦٣٨ ، ٤٨٦٦) ومسلم (٢٨٠٣/ ٤٨) .
(٦) البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٦٧) ومسلم (٢٨٠١) والترمذى (٣٢٨٨) .
(٧) المسند (٣٥٨٣) والبخارى (٤٨٦٤) ومسلم (٢٨٠٠/ ٤٣) .

﴿الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي (١) الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أى: إلى شىء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أى: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ وهى: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فى الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ ، لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى: يوم شديد الهول عَبُوس قَمْطَرِير ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

ربع

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أى: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: انتهروه وزجروه وتواعدوه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أى: إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَانتَصِرْ﴾ أنت لدينك.

قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قال السدى: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ أى : نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التى هى محال النيران نبعت عيونا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: من السماء والأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى: أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ

---

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: « فما تغنى » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

﴿أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظى، وقتادة، وابن زيد: هى المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسير. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذى يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ (١). وهكذا رواه البخارى عن عبد الله قال: قرأت على النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّذَّكِرٍ﴾. فقال النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (٢). وعن أبى إسحاق؛ أنه سمع رجلا يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أو: ﴿مُّذَّكِرٍ﴾ ؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه(٣). وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: كيف كان عذابى لمن كفر بى وكذب رسلى ولم يتعظ بما جاءت به نُذُرى، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أى: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعنى: هَوّنّا قراءته. وقال السدى: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تَقدّم عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» (٤) .

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟وقال محمد بن كعب القرظى: فهل من منزجر عن المعاصى؟وعن مَطَر الوراق فى قوله

---

(١) المسند (٣٧٥٥) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٤٨٦٩ ، ٤٨٧٤) .

(٣) البخارى (٤٨٧١) ومسلم (٨٢٣/ ٢٨٠) وأبو داود (٣٩٩٤) والترمذى (٢٩٣٧) .

(٤) البخارى (٤٩٩٢) .

تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيُعَان عليه؟ وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهى الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أى: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسدّى ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صمّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن. ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدَار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فتعاطى﴾أى: خسر ﴿فعقر . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: فعاقبتهم، فكيف كان عقابى لهم على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يبَيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر قال السدى : هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويخترق وتسفيه الريح . وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشى من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهى: الحجارة ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسَسْه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ .وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام ،وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعنى: نساءهم﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١] ، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: ليس لنا فيهن أرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩] ، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على

أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي : لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي: فأبادهم الله ولم يُبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً. ثم قال تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أي: أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ﴾ يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم معكم من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟

ثم قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: سيتفرق شملهم ويغلبون. عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال ـ وهو في قبة له يوم بدر: « أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدا » . فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يارسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ . رواه البخاري والنسائي(١).

وروى البخاري عن يوسف بن ماهَكَ قال : إني عند عائشة أم المؤمنين ، قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة ـ وإني لجارية ألعب ـ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصراً (٢). ورواه في فضائل القرآن مطولا (٣) ، ولم يخرجه مسلم.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

(١) البخاري (٢٩١٥ ، ٣٩٥٣ ، ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) والنسائي في الكبرى (١١٥٥٧) .
(٢) البخاري (٤٨٧٦) . (٣) البخاري (٤٩٩٣) .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أى: كما كانوا فى سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، يسبحون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣] أى: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد فى معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا فى أواخر عصر الصحابة. ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: روى أحمد عن أبى هُرَيرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. رواه مسلم والترمذى وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر، فإياك أن تكتب إلىّ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر». ورواه أبو داود (٢). وروى أحمد عن طاوس اليمانى قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شىء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم (٣).

وفى الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٤). وفى حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف» (٥). وروى الإمام أحمد عن الوليد بن عبادة، قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت: يا أبتاه، أوصنى واجتهد لى. فقال: أجلسونى. فلما أجلسوه قال: يا بنى، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بنى، إنى

(١) المسند (٢/ ٤٤٤) ومسلم (٢٦٥٦) والترمذى (٣٢٩٠) وابن ماجه (٨٣) .
(٢) المسند (٥٦٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » وأبو داود (٤٦١٣) .
(٣) المسند (٥٨٩٣) ومسلم (٢٦٥٥/ ١٨) . (٤) مسلم (٢٦٦٤/ ٣٤) .
(٥) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » يابنى ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار . ورواه الترمذى . وقال : حسن صحيح غريب (١) . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب (٢).

وقوله: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ : وهو إخبار عن نفوذ مشيئته فى خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلا موجودا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا». ورواه النسائى وابن ماجه (٣).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو (٤) ـ يَبْلُغُ به النبى ﷺ ـ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائى(٥).

---

(١) المسند (٥/ ٣١٧) والترمذى (٣٣١٩) . (٢) مسلم (٢٦٥٣/١٦) والترمذى (٢١٥٦) .

(٣) المسند (٦/ ١٥١) وابن ماجه (٤٢٤٣)، وفى الزوائد : « إسناده صحيح، رجاله ثقات » ، وعزاه صاحب التحفة (١٢/ ٢٥٠) للنسائى فى الكبرى وابن ماجه ، ولكنه استدرك وقال : حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم .

(٤) فى المطبوعة : « عبد الله أبى عمرو » وهو خطأ .

(٥) المسند (٦٤٩٢) ومسلم (١٨٢٧/١٨) والنسائى (٥٣٧٩) .

تفسير سورة الرحمن
وهى مكية

روى الإمام أحمد عن زرٍّ، أن رجلا قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن »؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إنى لأقرأ المفصل؛ أجمع فى ركعة واحدة. فقال: أهذًّا كهذِّ الشعر، لا أبالك ؟ قد علمت قرائن النبى ﷺ التى كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ (١). وروى أبو عيسى الترمذى عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، قالوا: لا بشىء من نعمك ـ ربنا ـ نكذب، فلك الحمد » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعنى: النطق. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعنى: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى : يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَاعِلُ (٣) اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:

---

(١) المسند (٣٩١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) الترمذى (٣٢٩١) ، وحسنه الألبانى . (٣) هى قراءة كما سبق بيانه .

٩٦]. وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون فى معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض ـ يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، وسفيان الثورى. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ يعنى: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أى: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أى: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال: ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ أى: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، فى سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ : أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطبا ويابسا. والأكمام قال ابن عباس: هى أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذى يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرا، ثم رطبا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه. وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذى على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة. ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعنى: التبن. وقال العوفى عن ابن عباس: ورق الزرع الأخضر الذى قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبنه. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ ﴾ يعنى: الورق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ ﴾: خضرة الزرع. ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها. وقيل: العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلا. والريحان: الورق، يعنى: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أى: فبأى الآلاء ـ يا معشر الثقلين، من الإنس والجن ـ تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أى: النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد » (١). وكان ابن عباس يقول: «لا ، بأيها

(١) سبق تخريجه فى أول السورة .

يا رب». أي: لا نكذب بشيء منها. روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١).

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: من لهب النار، من أحسنها. وقال: من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه مسلم(٢).

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن عباس: أي أرسلهما. وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أي: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما. والمراد بقوله: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبزى. قال

(١) المسند (٦/ ٣٤٩)، وقال الهيثمي في الزوائد (٧/ ١٢٠): «فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٦/ ١٦٨) ومسلم (٢٩٩٦/ ٦٠).

ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغى هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أى: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] . والرسل إنما كانوا فى الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد وقتادة . وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. وحكاه عن السدى عمن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. عن عبد الله [ابن مسعود] قال: المرجان: الخرز الأحمر .قال السدى وهو البُسَّذ بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢] ، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، إنما هى من الملح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهها، فما وقع فيها ـ يعنى: من قطر ـ فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح. ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت، وقال قتادة: ﴿الْمُنشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشئآت ـ بكسر الشين ـ يعنى: البادئات. ﴿كَالأَعْلامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات،

إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب ـ تعالى وتقدس ـ لا يموت، بل هو الحى الذى لا يموت أبدا. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان. وفى الدعاء المأثور: يا حى، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك (١) . وقال الشعبى: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ . وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم فى هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ : ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو فى شأن. وقال مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا. وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم. وعن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ » قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين» (٢) . قلت : وقد روى موقوفا، كما علقه البخارى بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبى الدرداء (٣) ، فالله أعلم.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال

(١) الترمذى (٣٥٢٤) وحسنه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٠٢) وفى زوائد البوصيرى :« هذا إسناد حسن » ، وحسنه الألبانى .

(٣) البخارى (٨/ ٦٢٠ فتح) .

ابن جريج: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنقضى لكم . وقال البخارى: سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف فى كلام العرب، يقال: «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غرتك». وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلان﴾ الثقلان: الإنس والجن ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾.

ثم قال: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَان ﴾ أى: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا فى مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلاَّ بِسُلْطَان ﴾ أى : إلا بأمر الله ، ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ .كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ـ ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧] ؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَان﴾. قال ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار. وقال: الشواظ: الدخان. وقال مجاهد: هو : اللهب الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهب الذى فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ : سيل من نار.

وقوله: ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قال ابن عباس: دخان النار. وروى مثله عن أبى صالح، وسعيد بن جبير، وأبى سنان. قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا ـ بضم النون وكسرها ـ والقراء مجمعة على الضم. وقال مجاهد: النحاس: الصُّفْر، يذاب فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال الضحاك: ﴿وَنُحَاسٌ ﴾ : سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا؛ ولهذا قال: ﴿ فَلا تَنتَصِرَان. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ ؟.

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة فى معناها، كقوله: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٦] ، وقوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلا ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَان ﴾ أى: تذوب كما يذوب الدُّرْدى والفضة فى السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء

وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تَطش عليهم» (١) . قال الجوهرى: الطش: المطر الضعيف. وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبوكُدَيْنة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفى، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبِرْذَون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وقال الحسن البصرى: تكون ألوانا. وقال السدى. تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردى الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ : كألوان الدهان. وقال عطاء الخراسانى: كلون دُهْن الوَرْد فى الصفرة. وقال قتادة: هى اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ . وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا فى حال، وثَمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذه قال قتادة: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد فى هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرَفُون بسيماهم. وهذا قول ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أى: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه فى النار كذلك. وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره وقال السدى: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا. وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: تارة يعذبون فى الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿آنٍ﴾ أى: حار، وقد بلغ الغاية فى الحرارة، لايستطاع من شدة ذلك. قال ابن

---

(١) المسند (٣/ ٢٦٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٣٧ ، ٣٣٨) : « فيه عبد الرحمن بن أبى الصهباء ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحا ، وبقية رجاله ثقات » .

عباس فى قوله: ﴿ حَميمٍ آن ﴾ : قد انتهى غليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثورى، والسدى. وقال قتادة: قد أنَى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظى: يؤخذ العبد فيحرّكُ بناصيته فى ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان فى الرأس. وهى كالتى يقول الله تعالى: ﴿في الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ . والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظى رواية أخرى: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر، لا ينافى ما روى عن القرظى أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الاحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾

قال ابن شَوْذب، وعطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فى أبى بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخارى عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود (١). وهذه الآية عامة فى الإنس والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: أغصان نَضِرَة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا قال عطاء الخراسانى وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجَر، يمس بعضُها بعضا. وحكى البغوى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبى: أنه الغصن المستقيم. وعن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : ذواتا ألوان. وقد روى عن سعيد بن جبير، والحسن مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس:

(١) البخارى (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠/٢٩٦) والترمذى (٢٥٢٨) .

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : واسعتا الفناء. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ينبئ بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى: تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسبيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أى: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة. وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء، يعنى: أن بين ذلك بونًا عظيما، وفرقًا بينا فى التفاضل.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعنى: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربّع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة. وقال أبو عمران الجونى: هو الديباج المزين بالذهب. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى . وعن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من نور . وقال ابن شوذب ، عن أبى عبد الله الشامى: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله . ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى : ثمرها قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه، على أى صفة كانوا ، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراسانى، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ، ولا فى الجنة شيء أحب إلى منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك. ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد

قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة. قال أرطاة ابن المنذر: سئل ضَمْرَةَ بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه. وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أَضْوَءِ كوكب دُرّى فى السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزب ». وهذا الحديث مُخَرّجٌ فى الصحيحين (١). وروى الإمام أحمد عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولَقَابُ قوس أحدكم ـ أو موضع رقدّه ـ يعنى: سوطه ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ، ولطاب ما بينهما ، ولنَصِيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ». ورواه البخارى بنحوه (٢) .

وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ أى: ما لمن أحسن فى الدنيا العمل إلا الإحسان إليه فى الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ولما كان فى الذى ذُكرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

---

(١) المسند (٨٥٢٣) والبخارى (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤/ ١٤) .

(٢) المسند (٣/ ١٤١) والبخارى (٢٧٩٦) .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » (١) فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما فى الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما فى الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى من الماء. قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قال: خضراوان. ورُوى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أوْفَى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن البصرى نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضخ. وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . ثم قال : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفى الحديث: أن الحور العين يغنين : نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام . ولهذا قرأ بعضهم: « فيهن خيِّرات »، بالتشديد ﴿حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخارى عن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، فى كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون » (٢) . وأخرجه مسلم به، ولفظه: «إن للمؤمن فى

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (٤٦) من السورة .

(٢) البخارى (٤٨٧٩) .

الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا » (١).

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌ﴾: تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هى المحابس. وقال العلاء بن زيد: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى. وقال عاصم الجحدرى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعنى: الوسائد. وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه. وقال سعيد بن جبير: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدى: العبقرى: الزرابى. وقال سعيد بن جبير: هى عتاق الزرابى، يعنى: جيادها. وقال مجاهد: العبقرى: الديباج. وسئل الحسن البصرى عن قوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هى بسط أهل الجنة ـ لا أبالكم ـ فاطلبوها. وعن الحسن رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو العالية: العبقرى: الطنافس المخْمَلَة، إلى الرقة ما هى. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى. وقال الخليل بن أحمد: كل شىء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريا. ومنه قول النبى ﷺ فى عمر: «فلم أر عبقريا يفرى فريه » (٢). وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما فى حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين.

ثم قال : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ أى : هو أهل أن يجل فلا يعصي ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى . وقال ابن عباس : ﴿ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ : ذى العظمة والكبرياء . وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظوا بذى الجلال والإكرام » . ورواه النسائى (٣) . قال الجوهرى : ألظ فلان بفلان : إذا لزمه. وقال ابن مسعود : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام » أى : الزموا . ويقال : الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر ـ والله أعلم ـ وهو المداومة

---

(١) مسلم (٢٨٣٨/ ٢٣) . (٢) البخارى (٣٦٨٢) ومسلم (٢٣٩٣/ ١٩) .

(٣) المسند (٤/ ١٧٧) والنسائى فى الكبرى (١١٥٦٣) ، وصححه الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٨) وأقره الذهبى .

واللزوم والإلحاح . وفى صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ـ يعنى: بعد الصلاة ـ إلا قدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام » (١) .

(١) مسلم (٥٩٢/١٣٦) وأبو داود (١٥١٢) والترمذى (٢٩٨) والنسائى (١٣٣٨) وابن ماجه (٩٢٤) .

تفسير سورة الواقعة
وهى مكية

قال ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتنى هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذى وقال: حسن غريب (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ﴾ ربع

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها ، كما قال تعالى: ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ [الحاقة: ١٥] . وقوله: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أى: ليس لوقوعها ـ إذا أراد الله كونها ـ صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ [الأنعام: ٧٣]. ومعنى ﴿كاذبة﴾ ـ كما قال محمد بن كعب ـ: لابد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة.

وقوله: ﴿خافضة رافعة﴾ أى: تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا فى الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا فى الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن، وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس: ﴿خافضة رافعة﴾: تخفض أناسًا وترفع آخرين. وقال محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا فى الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا فى الدنيا مخفوضين. وقال السُّدِّى: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين. وقال العَوْفىّ، عن ابن عباس: ﴿خافضة رافعة﴾: أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾ أى : حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى قوله: ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾ أى:

(١) الترمذى (٣٢٩٧) وصححه الألبانى .

زلزلت زلزالا . وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. وقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى: فُتّتت فَتًّا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم. وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ قال على رضى الله عنه: كرهَج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء. وقال ابن عباس : الهباء الذى يطير من النار، إذا اضطرمت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا. وقال عكرمة: المنبث: الذى ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: ﴿هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾: كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها ـ أى قلعها ـ وصيرورتها كالعهن المنفوش.

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ أى: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السُّدِّى: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار ـ عياذاً بالله من صنيعهم ـ وطائفة سابقون بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين فى الظالم لنفسه كما تقدم بيانه. قال سفيان الثورى عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ قال: هى التى فى سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون فى آخر السورة وفى سورة الملائكة. وقال مجاهد: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ يعنى: فرقا ثلاثة. وقال ميمون بن مِهْرَان: أفواجا ثلاثة. وقال عثمان بن سراقة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾: اثنان فى الجنة، وواحد فى النار. روى أحمد عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق، قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » (١). وقال محمد بن كعب وأبو حَزْرَة يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السُّدِّى: هم أهل عليين. وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل «يس»، سبق إلى عيسى، وعلى

---

(١) المسند (٦/٦٧) .

ابن أبى طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. وقال ابن سيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: الذين صلوا للقبلتين. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أى: من كل أمة.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثُلَّة﴾ أى: جماعة ﴿مِنَ الأَوَّلِين. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا فى المراد بقوله: ﴿الأَوَّلِين﴾ و﴿الآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير. وهذا الذى اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثانى فى هذا المقام ،هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِين﴾ أى: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ أى: من هذه الأمة.

قال عبد الله بن بكر المزنى سمعت الحسن أتى على هذه الآية : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُون. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُون ﴾ فقال: أما السابقون ، فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمين. ثم قرأ الحسن ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِين﴾ قال : ممن مضى من هذه الأمة. وعن محمد بن سيرين، أنه قال فى هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِين. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها، من غير وجه ، أن رسول الله ﷺ قال: « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (١) الحديث بتمامه.

---

(١) البخارى (٣٦٥١) .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: « مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره » (١) ، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذى يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى، ولكن العمدة الكبرى على الأول،واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت فى الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال عليه السلام:«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق،لا يضرهم من خذلهم،ولا من خالفهم،إلى قيام الساعة». وفى لفظ:«حتى يأتى أمر الله وهم كذلك» (٢). والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم،والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وفى لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفا». وفى آخر: «مع كل واحد سبعون ألفا » (٣).

وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أى مرمولة بالذهب، يعنى: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم.وقال السدى: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سمى وضين الناقة الذى تحت بطنها؛ لأنه مضفور، وكذلك السرر فى الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ. وقال: ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: مخلدون على صفة واحدة،لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، أما الأكواب، فهى: الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التى جمعت الوصفين. والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أى: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة.وروى الضحاك، عن ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال.وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطية، وقتادة، والسدى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس . وقالوا فى قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أى: لا تذهب بعقولهم. وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار. وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها. روى الإمام أحمد وأبو يعلى عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أثنى

---

(١) المسند (٣٢٩/٤)، والترمذى (٢٨٦٩) وقال : « حسن غريب » .
(٢) البخارى (٣٦٤١) . (٣) البخارى (٦٤٧٢) .

عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنى أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وَجبَة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسَمَّتْ اثنى عشر رجلا، كان النبى ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجىء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ ـ أو: البيذخ ـ قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بُسر فأكلوا من بسره ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان. حتى عد اثنى عشر رجلا، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصى رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجىء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبى يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم(١).

وقوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، ترعى فى شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أكَلَتَها أنعم منها ـ قالها ثلاثا ـ وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه(٢). وعن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربى، عز وجل، فى الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «آكلها أنعم منها». رواه الترمذى وقال: حسن (٣).

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ﴾، كما قال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وكما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. والاحتمال الثانى: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك فى القصور، لا بين بعضهم بعضا، بل فى الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أى: كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وصفائه؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: هذا الذى أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل. ثم قال: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلامًا سَلامًا﴾ أى: لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغيا،

---

(١) المسند (٣/ ١٣٥) وأبو يعلى فى مسنده (٦/ ٤٤) (٣٢٨٩) . وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١٧٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٣/ ٢٢١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٤١٧) : «رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة » .

(٣) الترمذى (٢٥٤٢) .

أي: غثا خاليا عن المعنى، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف ، كما قال: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ [الغاشية : ١١] أي : كلمة لاغية ﴿ وَلا تَأْثِيمًا ﴾ أى : ولا كلاماً فيه قبح ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ أي : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال : ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم:٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين ـ وهم المقربون ـ عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين ـ وهم الأبرار ـ كما قال ميمون بن مِهْرَان : أصحاب اليمين منزلة دون المقربين ، فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي : أي شيء أصحاب اليمين ؟ وما حالهم ؟ وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم: هو الذى لا شوك فيه . وعن ابن عباس: هو المُوقَر بالثمر . وهو رواية عن عكرمة ، ومجاهد . وكذا قال قتادة أيضا : كنا نُحدَّث أنه المُوقَر الذى لا شوك فيه .والظاهر أن المراد هذا وهذا ؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على عكس من هذا ، لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله . عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يا رسول الله، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله ﷺ:« وما هى ؟ » . قال: السِّدر ، فإن له شوكاً موذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ، خَضَد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تَفَتَّق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر » (١) .

وعن عُتْبة بن عبد السلمى قال : كنت جالساً مع رسول الله ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يا رسول الله ، أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها ؟ يعنى : الطلح ، فقال رسول الله ﷺ: « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَة التيس الملبود ، فيها سبعون لوناً من الطعام ،لا يشبه لون آخر» (٢) .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، من شجر العضَاه، واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ،قال مجاهد : ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أى : متراكم الثمر ، يذكر

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٧٦) عن سليم بن عامر عن أبى أمامة، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .
(٢) الطبرانى الكبير (١٧/ ١٣٠) (٣١٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤٤٧) :« رجاله رجال الصحيح » .

بذلك قريشاً؛ لأنهم كانوا يعجبون من وَجّ، وظلاله من طلح وسدر .وقال السدى: ﴿مَنضُودٍ﴾: مصفوف. قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .قال الجوهرى : والطلح لغة فى الطلع . وعن أبى سعيد :﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال :الموز .قال:وروى عن ابن عباس،وأبى هريرة،والحسن ، وعكرمة ، وقسامة بن زهير ،وقتادة ، وأبى حَزْرَة ، مثل ذلك ، وبه قال مجاهد، وابن زيد ـ وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح .ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة ـ يبلُغُ به النبى ﷺ ـ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ». ورواه مسلم(١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ » .وكذا رواه البخارى، وعبد الرزاق والترمذى (٢). وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس، عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل:﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾، قال: « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » .وكذا رواه البخارى (٣). وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد وسهل بن سعد ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر السريع مائة عام ما يقطعها » (٤) . فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيده ، وثقة رجاله . فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث ، مع ثبوته وصحته ورفعه إلى رسول الله ﷺ . وروى الترمذى عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » . ثم قال : حسن غريب(٥) . وقال الضحاك ، والسدى فى قوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ : لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر .وقال ابن مسعود : الجنة سَجْسَج ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقد تقدمت الآيات كقوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء:٥٧] ، وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد :٣٥] ، وقوله : ﴿ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات:٤١] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال الثورى : يجرى فى غير أخدود .وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ الآية [محمد:١٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) البخارى (٤٨٨١) ومسلم (٦/٢٨٢٦) .

(٢) المسند (١٠٢٠٨) والبخارى (٣٢٥٢) والترمذى (٣٢٩٢) وعبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٨٧٧) .

(٣) أبو يعلى فى مسنده (٢٣٧/٢٩٩٢) والبخارى (٣٢٥١) ، وفى مسند أبى يعلى :« كان فى كتاب أبى يعلى ألف عام » .

(٤) البخارى (٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣) ومسلم (٢٨٢٧ ، ٨/٢٨٢٨) .

(٥) الترمذى (٢٥٢٥) وصححه الألبانى .

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة:٢٥] أى : يشبه الشكلُ الشكلَ ، ولكن الطعم غيرُ الطعم. وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلالَ هجر» [(١)]. وفيهما أيضاً عن ابن عباس قال: خُسِفَت الشمس، فصلى رسولُ الله ﷺ والناس معه، فذكر الصلاة. وفيه: قالوا : يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت . قال : « إنى رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » [(٢)] . وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : بينا نحن فى صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبيّ بن كعب : يا رسول الله ، صنعتَ اليومَ فى الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ؟ قال : «إنه عُرِضَتْ علَىَّ الجنة، وما فيها من الزَّهْرَة والنُّضْرَة، فتناولت منها قِطْفاً من عنب لآتيكم به ، فحِيلَ بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه».وروى مسلم نحوه [(٣)]. وروى الإمام أحمد عن عامر بن زيد البكَالى : أنه سمع عُتْبَةَ بن عَبْد السلمى يقول: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابى : فيها فاكهة ؟ قال : «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى » ، فذكر شيئاً لا أدرى ما هو ، قال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : « ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك » . فقال النبى ﷺ : « أتيتَ الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجَوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : «لو ارتحلت جَذَعَة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً » . قال : فيها عنب ؟ قال: « نعم ». قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ، ولا يفتر » . قال : فما عظَم الحَبَّة ؟ قال : «هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم . قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، فقال : اتخذى لنا منه دلواً ؟ » . قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : « نعم وعامَّة عشيرتك » [(٤)] .

وقوله : ﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبدا ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء . وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعدٌ . وقوله : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أى: عالية وطيئة ناعمة . وقوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾: جرى الضمير على غير مذكور.

---

(١) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٢/ ٢٥٩) . (٢) البخارى (١٠٥٢) ومسلم (٩٠٧/ ١٧) .

(٣) انظر : مسلم (٩٠٧) .

(٤) المسند (٤/ ١٨٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٤١٦) : « فيه عامر بن زيد البكالى وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله ثقات » .

لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش ، على النساء اللاتى يضاجعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن، كما فى قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص:٣١ ، ٣٢] يعنى : الشمس ، على المشهور من قول المفسرين .قال الأخفش فى قوله : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ : أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك . وقال أبو عبيدة : ذكرن فى قوله: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة:٢٢ ،٢٣] .

فقوله : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أى : أعدناهن فى النشأة الآخرة بعدما كُنَّ عجائز رُمْصاً ، صرن أبكاراً عرباً ، أى : بعد الثيوبة عدن أبكاراً عُرُباً ، أى : متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة. وقال بعضهم : ﴿ عُرُبًا ﴾ أى : غَنِجات . وفى حديث الصور الطويل المشهور : أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله: قد شفعتك وأذنت لهم فى دخلوها. فكان رسول الله ﷺ يقول : « والذى بعثنى بالحق ، ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشئ الله ، وثنتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب مُكَلَّل باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجاً من سُنْدُس وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت ، كبده لها مرآة ــ يعنى : وكبدها له مرآة ــ فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذَكَره ولا تشتكى قُبُلها إلا أنه لا منى ولا مَنِيَّة ، فبينما هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما فى الجنة شىء أحسن منك ، وما فى الجنة شىء أحب إلىّ منك » (١) .

وروى أبو داود الطيالسى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى النساء » . قلت : يا رسول الله، ويُطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة » . ورواه الترمذى وقال : صحيح غريب (٢) . وروى أبو القاسم الطبرانى عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، هل نصل إلى نسائنا فى الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل فى اليوم إلى مائة عذراء » (٣) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسى : هذا الحديث عندى على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عُرُبًا ﴾ قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعنى متحببات إلى أزواجهن ،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام ، وتخريجه هناك .

(٢) أبو داود فى مسنده (٢٠١٢) والترمذى (٢٥٣٦) .

(٣) الروض الدانى (٢/٦٨) (٧٩٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٤٢٠):« ورجال هذه الرواية رجال الصحيح غير محمد بن ثواب وهو ثقة » .

ألم تر إلى الناقة الضبعة ، هى كذلك. وقال الضحاك ، عن ابن عباس : العُرُب : العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وغيرهم. وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ عُرُبًا ﴾ قال: هى الملِقَةُ لزوجها . وعن عكرمة : هى الغَنِجة. وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: العُرُب: حسنات الكلام. وقوله: ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قال ابن عباس يعنى: فى سن واحدة ،ثلاث وثلاثين سنة. وقال مجاهد : الأتراب : المستويات. وفى رواية عنه : الأمثال . وقال عطية : الأقران . وقال السدى : ﴿أَتْرَابًا﴾ أى : فى الأخلاق المتواخيات بينهن ، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعنى : لا كما كن فى الدنيا ضرائر متعاديات . وقوله : ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى: خلقنا لأصحاب اليمين ، أو : ادخرن لأصحاب اليمين ، أو: زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ، فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين . وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : فى أسنانهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرّىّ فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوّة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْقِ رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء » (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ جُرداً مُرداً بيضاً جعَاداً مُكَحّلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع» (٢) . وروى الترمذى عن مُعَاذ بن جَبَل؛ أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة ». ثم قال: حسن غريب (٣) .

وقوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى: جماعة من الأولين، وجماعة من الآخرين. عن عبد الله بن مسعود، قال ـ وكان بعضهم يأخذ عن بعض: أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه ، فقال : « عُرِضت علىّ الأنبياء وأتباعها بأممها ، فيمر علىّ النبى ، والنبى فى العصابة ، والنبى فى الثلاثة ، والنبى ليس معه أحد ـ وتلا قتادة هذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود:٧٨] ـ قال: حتى مَرّ علىّ موسى بن عمران فى كَبْكَبَة من بنى إسرائيل ، قال :

---

(١) البخارى (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤/١٥) .

(٢) المسند (٧٩٢٠) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح » . قوله : « جعاداً » : هو بكسر الجيم وفتح العين المهملة مخففة ، جمع « جعد » وهو الذى شعره غير سبط ، وهى صفة مدح ؛ لأن جعودة الشعر هى الصفة الغالبة على شعور العرب . وسبوطته هى الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وأمثالهم من الأعاجم .

(٣) الترمذى (٢٥٤٥) .

« قلتُ : ربى ، من هذا ؟ . قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بنى إسرائيل » . قال : « قلت : رب ، فأين أمتى ؟ قال : انظر عن يمينك فى الظراب » . قال : « فإذا وجوه الرجال » . قال : « قال : أرضيت ؟ » . قال : قلت :« قد رضيت ، رب » . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك . فإذا وجوه الرجال . قال : أرضيت؟ قلت : « رضيت ، رب ». قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفا ،يدخلون الجنة بغير حساب ». قال : وأنشأ عُكَّاشة بن محْصَن من بنى أسد ـ قال سعيد : وكان بَدْرياً ـ قال : يا نبى الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : فقال : « اللهم اجعله منهم ».قال : أنشأ رجل آخر، قال : يا نبى الله، ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة » . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم ـ فداكم أبى وأمى ـ أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الظراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فإنى قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشَّبوا حوله ». ثم قال: « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » . قال : فكبرنا ، قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » . قال : فكبرنا . ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾. قال: فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفاً ؟ فقلنا : هم الذين ولدوا فى الإسلام ، ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك ، فقال: «بل هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون » . روى ابن جرير نحوه [١] . وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه فى الصحاح وغيرها [٢] .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال،فقال: ﴿وأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أى : أى شىء هم أصحاب الشمال ؟ ثم فَسَّر ذلك فقال: ﴿فِى سَمُومٍ﴾ وهو : الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو : الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ قال ابن عباس : ظل الدخان . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة والسُّدِّى، وغيرهم . وهذه كقوله تعالى : ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلاثِ شُعَبٍ . لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات:٢٩ـ٣٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَظِلٍّ

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧/ ١٠٩) . (٢) البخارى (٦٤٧٢) .

مِّن يَحْمُومٍ ﴾ وهو الدخان الأسود ﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ أى: ليس طيب الهبوب ولا حَسَن المنظر، كما قال الحسن وقتادة : ﴿وَلا كَرِيمٍ﴾ أى : ولا كريم المنظر . وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أى : كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل. ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ أى : يُصَمّمون ولا ينوون توبة ﴿ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله .قال ابن عباس : ﴿ الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ : الشرك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة، وقتادة ، وغيرهم. وقال الشعبى : هو اليمين الغموس . وكانوا يقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ ؟ يعنى : أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم سيجمعون إلى عَرَصات القيامة ، لا نغادر منهم أحداً ، كما قال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٣ـ ١٠٥] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : هو موقت بوقت مُحَدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ : وذلك أنهم يقبضون ويُسجَرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم ، حتى يملؤوا منها بطونهم، ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ وهى الإبل العطاش ، واحدها أهيم ، والأنثى هيماء ، ويقال : هائم وهائمة .قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير، وعكرمة : الهيم : الإبل العطاش الظماء. وعن عكرمة أنه قال: الهيم: الإبل المراض، تمص الماء مصاً ولا تَرْوَى .وقال السدى : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تَرْوى أبداً حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال فى حق المؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:١٠٧] أى : ضيافة وكرامة .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى مُقرراً للمعاد، ورادّا على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من الذين قالوا:

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات:١٦] ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أى: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ؛ فلهذا قال : ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى : فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أنتم تقرونه فى الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ أى : صرفناه بينكم .وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى : نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من الصفات والأحوال .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ـ وهى البَداءة ـ قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأحرى، وكما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] ، وقال: ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم:٦٧] ، وقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٧ـ ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ .أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ [القيامة:٣٦ـ ٤٠] .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُون ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ أَأَنتُم تَزْرَعُونَه﴾ ؟ أى: تنبتونه فى الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين نقره قراره وننبته فى الأرض . وقوله: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ، أى : لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ،﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : لو جعلناه حطاماً لظَلْتُم تفكهون فى المقالة ، تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أى : لَمُلْقَون .

وقال مجاهد ، وعكرمة : إنا لمولع بنا . وقال قتادة : معذبون. وتارة تقولون: بل نحن محرومون. وقال مجاهد أيضاً : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ ملقون للشر ، أى: بل نحن مُحَارَفون ، قاله قتادة ، أى: لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح .وقال مجاهد : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : محدودون ، يعنى : لا حظ لنا . قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تعجبون. وقال مجاهد أيضاً: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم.وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذى من أجله أصيبوا فى مالهم . وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تلاومون . وقال الحسن ، وقتادة ، والسدى : تندمون . ومعناه إما على ما أنفقتم ، أو على ما أسلفتم من الذنوب .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ يعنى: السحاب . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون. ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى : زُعاقاً مُرّاً لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ! ﴿ لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أى: تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها، ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين جعلناها مودعة فى موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المرخ ، والأخرى : العَفَار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران ، فحُك أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار . وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة : أى تُذَكِّر النارَ الكبرى . روى الإمام أحمد فى مسنده : عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) . وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ». فقالوا : يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » . رواه البخارى ومسلم وفى لفظ : «والذى نفسى بيده ، لقد فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرها » (٢) . وروى الطبرانى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٣) . قال الضياء المقدسى : وهو عندى على شرط الصحيح .

وقوله : ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والنضر بن

---

(١) المسند (٧٣٢٣) وقال الشيخ شاكر: « إسناده صحيح » .
(٢) البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣/ ٣٠) .
(٣) الطبرانى فى الأوسط (١/ ١٥٥) (٤٨٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

عربى : يعنى بالمقوين : المسافرين ، واختاره ابن جرير . وقال غيره : القىّ والقَوَاء : القفر الخالى البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوى هنا الجائع . وقال ليث ابن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار . وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد قوله : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : المستمتعين ، الناس أجمعين . وكذا ذكر عن عكرمة . وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها فى الأحجار ، وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات . فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً فى حق الناس كلهم . وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى خِدَاش حَبَّان بن زَيد الشَّرعَبى الشَّامى ، عن رجل من المهاجرين من قَرَن ، أن رسول الله ﷺ قال : «المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكلأ والماء » (١) . وروى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يُمنعن : الماء والكلأ والنار » (٢) .

وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء العذب الزلال البارد ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة . وخلق النار المحرقة ، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم فى معاش دنياهم ، وزاجراً لهم فى المعاد .

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ ربع

هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. ثم قال بعض المفسرين: « لا » هاهنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم. ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبير. ويكون جوابه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ . وقال آخرون : ليست « لا » زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها فى أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى ، وتقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية: معنى قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ : فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد فقيل : أقسم .

واختلفوا فى معنى قوله : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، فقال ابن عباس : نزل القرآنُ جملة من

---

(١) المسند (٥/ ٣٦٤) وأبو داود (٣٤٧٧) وصححه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٤٧٣) .

عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا ، فنجَّمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة، فهو قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ : نجوم القرآن. وكذا قال عكرمة ، ومجاهد، والسدى .وقال مجاهد أيضا : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فى السماء ، ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن أيضاً : أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة . وقال الضحاك : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ يعنى بذلك : الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا مُطِروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : إن هذا القرآن الذى نَزَل على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أى : معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر . عن ابن عباس : ﴿ لا يَمَسُّهُ ﴾ قال : الكتاب الذى فى السماء﴿ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ يعنى : الملائكة . وكذا قال أنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَير ، وغيرهم . وقال قتادة : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما فى الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس، والمنافق الرجس .وقال ابن زيد:زَعَمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين،فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢] . وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التى قبله . وقال آخرون : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أى : من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو (١) .

وقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر ، أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مِرْية فيه ، وليس وراءه حق نافع . وقوله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس: أى مكذبون غير مصدقين . وكذا قال الضحاك، والسُّدِّى .وقال مجاهد : ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ أى : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم . ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال بعضهم : يعنى : وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أى : تكذبون بدل الشكر .وعن ابن عباس قال : ما مُطِر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ، يقولون : مُطِرْنا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: « وتجعلون شكركم أنكم تكذبون » .وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وروى مالك فى الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنِى أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل

(١) مسلم (١٨٦٩/ ٩٢) ، ورواه البخارى (٢٩٩٠) .

تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » .أخرجاه فى الصحيحين، وأبو داود ، والنسائى (١) . وروى مسلم عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزلُ الغيث ، فيقولون: بكوكب كذا وكذا » .تَفرّدَ به مسلم من هذا الوجه (٢) .

وقال مجاهد : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال : قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله ، وهو رزقه . وهكذا قال الضحاك وغير واحد . وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بئس ما أخذ قوم لأنفسهم ، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب. فمعنى قول الحسن هذا : وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ؛ ولهذا قال قبله: ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أى : الروح ﴿ الْحُلْقُومَ ﴾ أى:الحلق ، وذلك حين الاحتضار، كما قال : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة:٢٦ ـ ٣٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أى : بملائكتنا ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ أى : ولكن لا ترونهم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا ﴾ معناه : فهلا تَرجِعُون هذه النفس التى بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها فى الجسد إن كنتم غير مدينين .قال ابن عباس : يعنى محاسبين. وروُى عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة ، والضحاك ، والسدى مثله . وقال سعيد بن جُبَير، والحسن البَصْرىّ : ﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون ، فردوا هذه النفس .وعن مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غيرموقنين .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ

(١) مالك فى الموطأ (١/ ١٩٢) والبخارى (٨٤٦) ومسلم (٧٢/ ١٢٥) وأبو داود (٣٩٠٦) والنسائى (٣/ ١٦٤) .
(٢) مسلم (٧٢/ ١٢٦) .

ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

هذه الأحوال الثلاثة هى أحوال الناس عند احتضارهم : إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين . وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ أى : المحتضر ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات و المكروهات وبعض المباحات ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ أى : فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم فى حديث البراء : أن ملائكة الرحمة تقول : « أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » (١) . قال ابن عباس:﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان، يقول : مستراحة. وكذا قال مجاهد: إن الروح : الاستراحة .وقال سعيد بن جبير ، والسدى : الروح : الفرح . وعن مجاهد : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾: جنة ورخاء. وقال قتادة: فروح : فرحمة . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير: ﴿وَرَيْحَانٌ ﴾ : ورزق . وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرباً حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ .وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم :٢٧] .

وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية:روى الإمام أحمد عن أم هانئ:أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تكون النَسمُ طيراً يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها» (٢). هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى «يعلق»: يأكل، ويشهد له بالصحة أيضا ما رواه الإمام أحمد عن كعب بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: « إنما نَسَمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» (٣). وهذا إسناد عظيم، ومتن قويم. وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش » (٤) الحديث.

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، ﴿فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ، أى: لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة ، وابن زيد :

(١) مسند أحمد (٨٧٥٤) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » وابن ماجه (٤٢٦٢) .
(٢) المسند (٦/ ٤٢٤) .
(٣) المسند (٣/ ٤٥٥) .
(٤) مضى الحديث عند تفسير الآية (١٦٩) من آل عمران ، وتخريجه هناك .

سَلِم من عذاب الله ، وسلَّمت عليه ملائكة الله . كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] . وقال البخارى : ﴿ فَسَلامٌ لَّكَ ﴾ أى: مُسلم لك ، إنك من أصحاب اليمين . وألغيت « إنَّ » وبقى معناها .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أى : فضيافة ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذى يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أى : إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذى لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ وروى البخارى عن أبى هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم » . ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود مثله (١) .

(١) البخارى (٧٥٦٣) ومسلم (٣١/٢٦٩٤) والترمذى (٣٤٦٧) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٦٦) وابن ماجه (٣٨٠٦).

تفسير سورة الحديد

وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما فى السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [الإسراء :٤٤] . وقوله: ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أى : الذى قد خضع له كل شىء ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ **لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحيى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث العرباض بن سارية : أنها أفضل من ألف آية . وروى أبو داود عن أبى زُمَيل قال :سألت ابن عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى ؟ قال:ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : أشىء من شك ؟ قال ـ وضحك ـ قال : ما نجا من ذلك أحد . قال: حتى أنزل الله : ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** ﴾ الآية [يونس:٩٤] قال: وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (١) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولا . وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شىء علماً ، والباطن على كل شىء علماً (٢) . وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » . ورواه مسلم عن سُهَيل (٣) قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام :

---

(١) أبو داود (٥١١٠) وصححه الألبانى . (٢) البخارى (١٣ / ٣٦١ فتح) .

(٣) فى المطبوعة : « سهل » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه كما عند مسلم وأحمد وفى المخطوطة .

أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم ، ربّنا وربّ كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر ». وكان يَروْى ذلك ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ (١) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها فى سورة « الأعراف (٢) » بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ **وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا** ﴾ من زرع ونَبات وثمار ، كما قال : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقوله : ﴿ **وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ أى : من الأمطار ، والثلوج والبرَد ، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم فى سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى . ﴿ **وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا** ﴾ أى : من الملائكة والأعمال ، كما جاء فى الصحيح : « يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل» (٣) .

وقوله : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ أى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال: ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [هود : ٥] . وقال: ﴿ **سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** ﴾ [الرعد : ١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

---

(١) المسند (٢ / ٤٠٤) ومسلم (٢٧١٣ / ٦١) .
(٢) عند الآية (٥٤) .
(٣) مسلم (١٧٩ / ٢٩٣)
(٤) البخارى (٥٠) ومسلم (٨ / ١) .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إذَا ما خَلوتَ الدهرَ يوماً فَلا تَقلْ   خَلَوتُ ولكن قُــل : عَلىّ رَقيبُ
وَلاَ تَحسَبَنّ اللهَ يَغفَــلُ سَاعَـةً   وَلا أنّ ما يَخفَــى عَلَيــه يَغيـبُ

وقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال : ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل:١٣] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبا:١] . فجميع ما فى السموات والأرض ﴿ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣ــ٩٥] . ولهذا قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم فى خلقه بما يشاء ،وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] .كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقوله : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل،والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله: ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعيت فى معاونته على الإثم والعدوان . روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشّخّير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر:١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ ». ورواه مسلم ، وزاد : « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » (١) .

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ،يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا فى الحديث من طُرُق فى أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى: أن رسول ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أىّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة. قال: « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟» قالوا: فالأنبياء. قال:« وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟». قالوا : فنحن ؟ قال: « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيؤون بعدكم ، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها ».وقد ذكرنا طرفاً من هذا فى أول سورة « البقرة » (٢) عند قوله: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣] . وقوله: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كما قال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة:٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ .وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى :حججاً واضحات ،ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ،﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى: فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العلل وإزالة الشُبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ،ثم حثهم على الإيمان،وبين أنه قد أزال عنهم موانعه،حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى: أنفقوا ولا تخشَوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩] ،وقال: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه .

وقوله: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أى: لا يستوى هذا ومن لم يفعل

---

(١) المسند (٤/ ٢٤) ومسلم (٢٩٥٨ / ٤).

(٢) ومضى تخريجه هناك .

كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيمًا، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ؛ ولهذا قال : ﴿ **أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى** ﴾ . والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبى وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد : عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبى ﷺ فقال: « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده، لو أنفقتم مثل أحد ـ أو : مثل الجبال ـ ذهباً ، ما بلغتم أعمالهم » (١) . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جَذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: « صبأنا ، صبأنا » ، فلم يحسنوا أن يقولوا: « أسلمنا »، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما. فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك (٢) . والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه » (٣) .

وقوله : ﴿ **وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ يعنى: المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء ، كما قال: ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء:٩٥] . وهكذا الحديث الذى فى الصحيح : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير» (٤) ، وإنما نَبَّه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ،ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه فى حال الجهد والقلة والضيق . وفى الحديث: « سبق درهم مائة ألف » (٥). ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيِّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقوله: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق فى سبيل الله،

---

(١) المسند (٣/٢٦٦). وهو عند البخارى بلفظ قريب منه (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠ / ٢٢١).

(٢) البخارى (٧١٨٩) .

(٣) البخارى (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١ / ٢٢٢).

(٤) مسلم (٢٦٦٤ / ٣٤) .

(٥) فى المخطوطة :« أضعافا كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ،صوابه ما أثبتناه .

وقيل: هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق فى سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أى : جزاء جميل ، ورزق باهر ــ وهو الجنة ــ يوم القيامة .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم فى عَرصات القيامة بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله : ﴿ **يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم مَن نوره مثل النخلة ،ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَن نوره فى إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نُوره من المدينة إلى عَدَن أبين وصنعاء فدون ذلك ،حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه » (١) . وقال سفيان الثورى ، عن حُصَين ، عن مجاهد عن جُنَادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسيماكم وحُلاكم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ **يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ .وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفِئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا، أتمم لنا نورنا . وقال الحسن فى قوله : ﴿ **يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ : يعنى : على الصراط .

وقوله :﴿ **وَبِأَيْمَانِهِم** ﴾ قال الضحاك: أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال:﴿ **فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الإسراء: ٧١]. وقوله: ﴿ **بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أى: يقال لهم : بشراكم اليوم جنات، أى: لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ،﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ .

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١٢٨) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر . قال سليم بن عامر: خرجنا على جنازة فى باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا ـ يشير إلى القبر ـ بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية. يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق . وقال ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ: ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾، فإنا كنا معكم فى الدنيا. قال المؤمنون: ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور .

وقوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾: قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :هو الذى قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]. وهكذا رُوى عن مجاهد وغير واحد ، وهو الصحيح . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما. قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سورُ بيت المقدس عند وادى جهنم. ثم روى عن عبادة بن الصامت، وكعب الأحبار، وعلى بن الحسين زين العابدين، نحو ذلك. وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وإنما المراد بذلك : سورٌ يُضرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا

استكملوا دُخولهم أغلق الباب وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة . ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ،ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين:بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أى فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة :﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى: بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى: قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ اى : مازلتم فى هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أى: الشيطان .قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكنتم تُراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً . قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويُماز بينهم حينئذ . وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول وهو أصدق القائلين:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٣٨ ــ ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨] ، كما قال تعالى هاهنا: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله :﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ، وبئس المصير .

ربع ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾

يقول الله تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال:إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية، رواه ابن أبى حاتم ، ثم روى هو ومسلم عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية إلا أربع سنين [١].

وقوله : ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ،لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ،وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى: فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ،وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣]، أى: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا مانهوا عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: فيه إشارة إلى أنه ، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويَهدى الحَيَارى بعد ضَلَتها ، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدقين والمُصَّدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى: دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك،﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أى: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب حسن.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾: هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين

(١) مسلم (٣٠٢٧ / ٢٤) .

بالله ورسله بأنهم صديقون. قال ابن عباس قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾: هذه مفصولة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾. وقال أبو الضحى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾. وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان، وغيرهم . وقال الأعمش عن أبى الضحى، عن مسروق، عن عبد الله فى قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصديقين ، والشهداء ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩] ، ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ». قالوا : يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: « بلى ، والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . اتفق البخارى ومسلم على إخراجه (١) . وقال آخرون : بل المراد من قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد .

وقال عمرو بن ميمون فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيؤون يوم القيامة معاً كالإصبعين.

وقوله : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خُضْر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتلنا أول مرة . فقال: إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » (٢) . وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال .

كما روى الإمام أحمد عن أبى يزيد الخولانى قال: سمعت فضالة بن عُبَيد يقول :سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى ﷺ يقول: « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك الذى ينظر الناس إليه هكذا ــ ورفع رأسه حتى سقطت قَلَنسُوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر ــ والثانى مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح، جاءه سهم غَرْب فقتله، فذاك فى الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك فى الدرجة الثالثة، والرابع رجل مؤمن أسرف

---

(١) لم أعثر عليه فى الموطأ ورواه البخارى (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١ / ١١).

(٢) مسلم (١٨٨٧/ ١٢١) ولم يعزه صاحب التحفة (٧/ ١٤٥) للبخارى.

على نفسه إسرافاً كثيراً، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الرابعة » (١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى مُوهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو: المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس، كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وقوله : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضرا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير يَبَساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤]. ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حَذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان.

---

(١) المسند (١٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فانٍ غارٌ لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . روى ابن جرير : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » . اقرؤوا : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ » . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة (١) ، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلْجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله، والنار مثل ذلك » . انفرد بإخراجه البخارى (٢) . ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال هاهنا : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما قدَّمنا فى الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يارسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعتقون ولا نُعْتِق . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم: تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال: فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فَعَلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣) .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال :﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة. وقال بعضهم: ﴿ من قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ عائد على النفوس. وقيل: عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ لدلالة الكلام عليها، وقال

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧/ ١٣٤) والبخارى (٦٤١٥) .

(٢) المسند (٣٦٦٧) والبخارى (٦٤٨٨) .

(٣) البخارى (٨٤٣) رمسلم (٥٩٥ / ١٤٢) .

قتادة : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ قال: هى السنون . يعنى : الجَدْب ، ﴿ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قَدَم، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق ـ قبحهم الله ـ وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ».ورواه مسلم : « وكان عرشه على الماء ». ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح (١) . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ أى: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شىء لكان ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ أى :جاءكم ، ويقرأ :« أتاكُم » أى :أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أى: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أى: مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفَرَح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨].

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو: النقل الصدق ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو: العدل. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧] ، وقال: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧] ؛ ولهذا قال فى هذه

---

(١) المسند (٦٥٧٩) ومسلم (٢٦٥٣ / ١٦) والترمذى (٢١٥٦) .

الآية : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذى جاؤوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق، كما قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ (١) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام:١١٥] أى: صدقاً فى الإخبار، وعدلاً فى الأوامر والنواهى. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف:٤٣] .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أى :وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثتُ بالسيف بين يَدَى الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له ، وجُعِل رِزقِى تحت ظِلِّ رُمْحِى ، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى ، ومن تَشَبَّه بقوم فهو منهم » (٢) . ولهذا قال تعالى: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعنى: السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال، والدروع، ونحوها ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصرة الله ورسله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم، عليه السلام، خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالته ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى

---

(١) هى قراءة كما مضى بيانه .

(٢) المسند (٥١١٤، ٥١١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٠٣١).

ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ وهم الحواريون ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى : رأفة وهى الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أى: ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله: ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان ،أحدهما :أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة .والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى: فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما : الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى: فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ، عز وجل . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلاً جاءه فقال: أوصنى. فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ،وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد (١) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص (٢) ، وكما فى حديث عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَوَاليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ». أخرجاه فى الصحيحين.ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير . وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أى: ضعفين، وزادهم: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى: هدى يُتَبصَّر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم. فضلهم بالنور والمغفرة .

---

(١) المسند (٣/ ٢٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤/ ٢١٥) : « رجال أحمد ثقات » .

(٢) وهى رقم (٥٤) .

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حَبراً من أحبار يهود: كم أفضل ما ضعفت لكم حسنة ؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة . قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين . [ثم] ذكر سعيد قول الله ، عز وجل :﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان في الجمعة مثل ذلك. رواه ابن جرير (١) . ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذى عملتم . فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا: لا . قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء ».انفرد بإخراجه البخارى (٢).

وروى البخارى عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال: « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبو وتَركُوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعملنا باطل ،ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ؛ فإن ما بقى من النهار شىء يسير . فأبوا ، فأستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قَبلوا من هذا النور » انفرد به البخارى (٣) .

ولهذا قال تعالى﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى : ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدّ ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١٤١). (٢) المسند (٥٩٠٢) والبخارى (٢٢٦٨) .
(٣) البخارى (٣٤٥٩) .

تفسير سورة المجادلة
وهى مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجزء ٢٨

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذى وَسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخارى. وأخرجه النسائى ،وابن ماجة ، وابن جرير. وفى رواية: أنها قالت: تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى على بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ،وهى تقول : يا رسول الله ، أكَلَ شبابى ، ونَثَرت له بطنى ، حتى إذا كَبُرَت سِنِّى ، وانقطع ولدى ، ظَاهَر منِّى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ (١) . وقال عروة :وكان أوس امرأ به لمم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ،وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: فىَّ ــ والله ــ وفى أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة « المجادلة » ، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل علىَّ يوماً فراجعته بشىء فغضب فقال : أنت علىَّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠) من سورة الرعد .

نادى قومه ساعة ، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدنى عن نفسى. قالت : قلت : كلا ، والذى نفس خويلة بيده ، لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت: فواثبنى وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى، قالت : ثم خرجتُ إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجتُ حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيتُ منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « ياخويلة ، ابنُ عمك شيخ كبير، فاتقى الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّيَ عنه ، فقال لى : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك » . ثم قرأ عليَّ : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ ، قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : «مُريه فليعتق رقبة» . قالت : فقلت: يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال: « فليصم شهرين متتابعين ». قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وَسْقًا من تَمر». قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بعَرَق من تمر». قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بعَرَقٍ آخر ، قال: « فقد أصبت وأحسنْت، فاذهبى فتصدقى به عنه، ثم استوصى بابن عمك خيراً ». قالت: ففعلت. ورواه أبو داود (١) وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خُوَيلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سَلَمة بن صَخْر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله فى هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما روى الإمام أحمد عن سلمة بن صخر الأنصارى قال : كنتُ امرأ قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان تظهَّرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فَرَقاً من أن أصيب فى ليلتى شيئاً فأتابع فى ذلك إلى أن يدركنى النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينا هى تخدمنى من الليل إذ تكشف لى منها شىء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحتُ غدوتُ على قومى فأخبرتهم خبرى وقلت: انطلقوا معى إلى النبى ﷺ فأخبره بأمرى. فقالوا : لا، والله لا نفعل ؛ نتخوف أن ينزل فينا أو يقول فينا رسول الله ﷺ ـ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال: فخرجتُ حتى أتيتُ النبى ﷺ ، فأخبرته خبرى. فقال لى : « أنت بذاك ». فقلت : أنا بذاك. فقال: « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك. قال « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض فىّ حكم الله تعالى ، فإنى صابر له . قال : « أعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتى بيدى وقلت : لا ، والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: « فصم شهرين ». قلت: يا رسول الله ، وهل أصابنى ما أصابنى

---

(١) المسند (٦/ ٤١٠) وأبو داود (٢٢١٤ ، ٢٢١٥)، وقال الألبانى : « حسن دون قوله :« والعرق » .

إلا فى الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذى بعثك بالحق ، لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَى مالنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زُريق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال: فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيقَ وسوءَ الرأى، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعَة والبركة، قد أمر لى بصدقتكم ، فادفعوها إلىَّ . فدفعوها إلىَّ . وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجة ، واختصره الترمذى وحَسَّنه [١] . وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خُوَيلة بنت ثعلبة ، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت عَلَىَّ كَظَهْرِ أمى ، ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه فى جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل فى هذه الآية بقوله : ﴿ مِنكُم ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ،ولا تدخل فى هذا الخطاب.

وقوله :﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : «أنت علىَّ كأمى » أو « مثل أمى » أو « كظهر أمى » ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التى ولدته ؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : عما كان منكم فى حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم .

وقوله :﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾: اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم. وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق.وقال أحمد بن حنبل:هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة.

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه أنه الجماع .وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد . عن سعيد بن جبير: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعنى : يريدون أن يعودوا فى الجماع الذى

(١) المسند (٤/ ٣٧) وأبو داود (٢٢١٣) وابن ماجه (٢٠٦٢) والترمذى (٣٢٩٩) .

حرموه على أنفسهم . وقال الحسن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر. وقال ابن عباس : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر. وقد رَوى أهل السنن عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله ، إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أُكَفِّر. فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ ». قال: رأيت خلخالها فى ضوء القمر. قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله، عز وجل ». وقال الترمذى: حسن غريب صحيح [(١)] . ورواه أبو داود والنسائى من حديث عكرمة مرسلاً . قال النسائى : وهو أولى بالصواب [(٢)] .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعى ما أطلق هاهنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم السلمى ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه [(٣)] . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أى : تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم .

وقوله: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾: وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله :﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : محارمه فلا تنتهكوها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم ، أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى :

---

(١) أبو داود (٢٢٣) والترمذى (١٩٩٠) .

(٢) أبو داود (٢٢١ ، ٢٢٢) والنسائى (٣٤٥٩) ، وصححه الألبانى .

(٣) الموطأ (٢/ ٧٧٧) والمسند (٥/ ٤٤٧) ومسلم (٣٣/٥٣٧) .

أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه . ثم قال: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى :فيخبرهم بالذى صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ ﴾ أى: من سر ثلاثة ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أى: يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨] . وقال :﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو، سبحانه ، مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شىء . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾

قال مجاهد :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ﴾ قال: اليهود .وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : كان بين النبى ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبى ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ــ أو : بما يكره المؤمن ــ فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبى ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. وقوله: ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أى: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص

بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يُصِرون عليها ويتواصون بها .

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾: عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام . قالت: فقال رسول الله ﷺ:«يا عائشة،إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك ؟ فقال رسول الله : « أو ما سمعت أقول :وعليكم ؟ » . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (١) . وفى رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة. وأن رسول الله ﷺ قال: « إنه يستجاب لنا فيه ، ولا يستجاب لهم فينا » (٢) . وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهودى فسلَّم عليهم، فردوا عليه، فقال نبى الله ﷺ: «هل تدرون ما قال ؟». قالوا: سلم يا رسول الله . قال: « بل قال : سام عليكم ، أى : تسامون دينكم » . قال رسول الله: « ردوه ». فردوه عليه . فقال نبى الله: «أقلت : سام عليكم ؟ » . قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت .وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة، بنحوه (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى: يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم فى الباطن، ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى: جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾. وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو ؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون فى أنفسهم: ﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه (٤).

ثم قال الله مُؤدّباً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها . وروى الإمام أحمد : عن صفوان بن مُحْرِز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله

---

(١) مسلم (٢١٦٥ / ١٠) . (٢) البخارى (٦٠٣٠) ومسلم (٢١٦٦ / ١٢) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١١) ومسلم (٦/٢١٦٣) .

(٤) المسند (٦٥٨٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قَرّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعْطَى كتابَ حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » . أخرجاه فى الصحيحين [١] .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى : إنما النجوى ـ وهى المُسَارّة ـ حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شىء بإذن الله. وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذٍ على مؤمن،كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَيَنَّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». أخرجاه [٢]. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه ». انفرد بإخراجه مسلم [٣] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ وقرئ : « فى المَجْلِسِ » ، ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « من بَنَى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة » [٤] وفى الحديث الآخر: « ومن يَسَّر على مُعْسِر يَسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» [٥]. ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: « لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسه فيجلس فيه،

---

(١) المسند (٥٤٣٦) والبخارى (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨ / ٥٢) .
(٢) المسند (٤٠٩٣) والبخارى (٦٢٩٠) ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧).
(٣) مسلم (٢١٨٣/ ٣٦) .
(٤) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣/ ٢٤) .
(٥) مسلم (٢٦٩٩/٣٨) .

ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا ». وأخرجاه في الصحيحين (١) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم » (٢) . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أَحَبَّ أن يَتَمثَّلَ له الرجال قياماً ، فَلْيَتبوأْ مَقْعَدَه من النار » (٣) ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . وفي الحديث المروي في السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلي ؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم عن أبي مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لِيَلِيني منكم أولو الأحلام والنُّهَى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٤) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه . وروى الإمام أحمد : عن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم». قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً . وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذي (٥) .

وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة . ولهذا كان أبي بن كعب ــ سيد القراء ــ إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ». وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه . ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع ، وفي الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ: « ألا

---

(١) المسند (٤٧٣٥) والبخاري (٦٢٦٩) ، ومسلم (٢١٧٧/ ٢٨).

(٢) البخاري (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨ / ٦٤) .

(٣) أبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٦٦) وقال :« إسناد حسن » .

(٤) مسلم (٤٣٢ / ١٢٢) .

(٥) المسند (٤/ ١٢٢) ومسلم (٤٣٢/ ١٢٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦) .

أنبئكم بخبر الثلاثة، أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه» (١) . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » . ورواه أبو داود والترمذى . وحسنه الترمذى (٢).

وقوله : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره ، ونَشَر ذكره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه . وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال :وما ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال: يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » . وهكذا رواه مسلم (٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٣) ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ؛ ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾. ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ أى: إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أى: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل

---

(١) البخارى (٦٦) ومسلم (٢١٧٦ / ٢٦).

(٢) المسند (٦٩٩٩) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح »، وأبو داود (٤٨٤٥) ، والترمذى (٢٧٥٢) .

(٣) المسند (٢٣٢) ومسلم (٨١٧/ ٢٦٩) .

بهذه الآية قبل نسخها سوى على بن أبى طالب، رضى الله عنه. قال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبى ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا على بن أبى طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبى ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا . وقال قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ،حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبى الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ربع

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعنى : اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود . ثم قال: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ،وهى اليمين الغموس ،ولا سيما فى مثل حالهم اللعين، عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى :أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى:فى مقابلة ما امتهنوا

من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة .

ثم قال: ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ، ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثم قال :﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى: يحلفون بالله ، عز وجل ،أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس فى الدنيا ؛ لأن من عاش على شىء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ ولهذا قال : ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل .

ثم قال منكراً عليهم حسبانهم :﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . عن سعيد بن جُبَير ؛ أن ابن عباس حدثه: أن النبى ﷺ كان فى ظل حجرة من حُجَره، وعنده نفر من المسلمين قد كان يَقلصُ عنهم الظل ، قال :« إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه ، فقال ؛ «علام تشتمنى أنت وفلان وفلان ؟ » ــ نفر دعاهم بأسمائهم ــ قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله ، عز وجل:﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ . رواه الإمام أحمد وابن جرير بنحوه (١). إسناد جيد ولم يخرجاه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٣، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطانُ حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه؛ ولهذا روى أبو داود عن أبى الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من ثلاثة فى قرية ولا بَدْو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة (٢) .

ثم قال تعالى:﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال :﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ

---

(١) المسند (٢١٤٧) وقال الشيخ أحمد شاكر « إسناده صحيح » وابن جرير فى التفسير(١٧/٢٨).

(٢) أبو داود (٥٤٧) ، وصححه الألبانى .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعنى: الذى هم فى حَدٍّ والشرع فى حَدٍّ ، أى: مجانبون للحق مشاقون له،هم فى ناحية والهدى فى ناحية ، ﴿ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ أى: فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين فى الدنيا والآخرة. ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أى: قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقَدَره الذى لا يُخالَف ولا يُمانع ، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥١، ٥٢] . وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه . وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أى: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ الآية [آل عمران:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] . وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة: «ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته » .

وقيل فى قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾:نزلت فى أبى عبيدة ،قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: فى الصديق ، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾: فى مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾: فى عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم . قلت :ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ،ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله ، هل تمكنى من فلان ــ قريب لعمر ــ فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين . . . القصة بكاملها .

وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى: كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته. وقال السدى :﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ : جعل فى قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس:﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى: قواهم. وقوله: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة . وفى قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عوّضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم، والفضل العميم . وقوله:﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أى: هؤلاء حزبُ الله ،أى: عباد الله وأهل كرامته ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾: تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال: ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

تفسير سورة الحشر

وهى مدنية

وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير . عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال: أنزلت في بنى النضير. رواه البخارى ومسلم (١) . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال : قُل : سورة النَّضير (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ، ويصلى له ويوحده ، كقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: منيع الجناب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى قَدره وشرعه . وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى: يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصَدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم؛ ولهذا قال: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم

---

(١) البخارى (٤٨٨٢) ومسلم (٣١/٣٣١) . (٢) البخارى (٤٨٨٣) .

بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ، ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مُقَاتلتكم ونسبى نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبى ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم ، فقال :« لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ »، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شىء ــ وهى الخلاخيل ــ فلما بلغ كتابهم النبى ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ:اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم ، قال لهم: « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغَد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضر ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقى منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدى بنى فاطمة [1] .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان :

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسيَر : أنه لما قُتل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر، وكان معهما عهد من رسول الله

---

(١) أبو داود (٣٠٠٤) ، وصححه الألبانى .

ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين، لأدينّهما » . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين ،وكان منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال ابن إسحاق فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، فيما حدثنى يزيد بن رُومان ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عَقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ــ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ــ فَمَن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ابن كعب أحدُهم ، فقال : أنا لذلك ، فصَعَد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ،وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها . فنادوه:أن يا محمد،قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه،فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووديعة ، ومالك ابن أبى قوقل ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَنَّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرَجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سماك بن خَرَشَة ذكرا فَقْرًا ، فأعطاهما رسول الله ﷺ . قال: ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمَير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم

تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأنى » . فجعل يامين بن عُمَير لرجل جُعِل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها (١) .

فقوله : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى: بنى النضير ﴿ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال :من شك فى أن أرض المحشر هاهنا ـ يعنى الشام فليقرأ هذه الآية: ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال: « إلى أرض المحشر » (٢) . وقوله : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصَرِها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الآخرى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦]. وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى: الخوف والهَلَع والجَزَع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نُصر بالرعب مسيرةَ شهر ، صلوات الله وسلامه عليه. وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ،وتَحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرْب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال. وكان اليهود إذا علَوا مكاناً أو غلبوا على دَرْب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء،وهو النفى من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى، ونحو ذلك، قاله الزهرى، عن عُرْوَة ، والسُّدِّى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم. قال عروة بن الزبير: ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ،وأن لهم ما أقَلَّت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قِبَل الشام. قال: والجلاء أنه كُتب عليهم فى آى من التوراة، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله فيهم: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .وقال قتادة : الجلاء: خروج الناس من البلد إلى البلد.وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء . وقوله:﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ أى: حتم لازم لا بد لهم منه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٤٥ ، ١٤٦) . (٢) الدر المنثور (٦/ ١٨٧) .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: إنما فَعلَ الله بهم ذلك وسَلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنـزل الله على رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ اللين: نوع من التمر ، وهو جيد .قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبَرْنىّ من التمر . وقال كثيرون من المفسرين: اللينة : ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير: هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد: وهو البُوَيرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ،وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعث بنو النضير[1] يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته ورضاه، وفيه نكاية العدو، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد:نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين. فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم،وإنما قطعه وتركه بإذنه. وروى الإمام أحمد عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحَرّق. وأخرجه صاحبا الصحيح بنحوه [2] ، ولفظ البخارى عن ابن عمر قال:حارب النضيرُ وقريظة،فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحق بالنبى ﷺ فأمَّنهم وأسلموا،وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع،وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بنى حارثة ،وكلّ يهود بالمدينة . ولهما عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع ـ وهى البُوَيرةُ ـ فأنزل الله ،عز وجل فيه: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [3] . قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة. وحكى البخارى، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر [4].

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) فى المطبوعة : « بنو قريظة » وهو خطأ .

(٢) المسند (٥٤٣٢) والبخارى (٣٠٢١) ومسلم (١٧٤٦ / ٢٩) .

(٣) البخارى (٤٨٨٤) ومسلم (١٧٤/ ٢٩) .

(٤) البخارى (٧/ ٣٢٩ فتح) .

يقول تعالى مبيناً ما الفيء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيء: كلّ مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أى: من بنى النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعنى: الإبل ، ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

ثم قال: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى: جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير؛ ولهذا قال: ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارفُ أموال الفيء ووجوهه . روى الإمام أحمد : عن عمر ، قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته وقال مرّة : قوت سنته ـ وما بقى جعله فى الكُرَاع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل . هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم إلا ابن ماجة (١) ـ حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهرى ، به.

وقد رويناه مطولاً ،فروى أبو داود عن مالك بن أوس قال: أرسل إلىَّ عمر بن الخطاب، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مُفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه: يا مالِ ، إنه قد دَفّ أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشيء ، فاقسم فيهم . قلت: لو أمرت غيرى بذلك ؟ فقال: خذه. فجاءه يرفا، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال: نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا ـ يعنى: علياً ـ فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وأرحهما .

قال مالك بن أوس: خُيِّل إلىَّ أنهما قَدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر: اتئدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ،هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: « لا نُورَث، ما تركنا صدقة ». قالوا: نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال: أنشدكُما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : «لا نورث ، ما تركنا صدقة » . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص

(١) المسند (١٧١) والبخارى (٤٨٨٥) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٨) وأبو داود (٢٩٦٥) والترمذى (١٧١٩).

بها أحداً من الناس ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة ــ أو: نفقته ونفقة أهله سنة ــ ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل علىَّ أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىٍّ والعباس فقال : أنشدُكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم . فلما تُوفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر: « أنا ولىّ رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنتَ ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وَلِىّ رسول الله ﷺ وولىّ أبى بكر ، فَوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا ، وأنتما جَميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك. والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عَجَزتُما عنها فَرُدّاها إلى أخرجوه (١).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، عن نبىّ الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ،حتى فُتحَت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدّ بعد ذلك ، قال: وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبى الله ﷺ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبى ﷺ فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوبَ فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكَهُنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول: كلا ، والله . قال: ويقول: « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول: لك كذا وكذا » . قال: حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال .رواه البخارى ومسلم (٢) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خُمس الغَنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد .

وقوله: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى: جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء . وقوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر . وروى الإمام

(١) أبو داود (٢٩٦٣) والبخارى (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٩) والنسائى (٤١٤٨) والترمذى (١٦١٠).
(٢) المسند (٣/ ٢١٩) والبخارى (٣١٢٨، ٤٠٣٠، ٤١٢٠) ومسلم (١٧٧١/ ٧٠) .

أحمد عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمُتفلّجات للحُسْن ، المغيرات خلق الله ،عز وجل. قال: فبلغ امرأة فى البيت يقال لها: « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت: بلغنى أنك قلت كيتَ وكيتَ . قال: ما لى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ ؟ قالت: بلى. قال: فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت: إنى لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبى فانظرى. فذهَبت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئاً . قال: لو كانت كذلك لم تُجَامعنا . أخرجاه فى الصحيحين [(١)] . وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هُرَيرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [(٢)] .

وروى النسائى عن ابن عُمَر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّبَّاء والحَنْتَم والنَّقير والمزفَّت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾. وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : اتقوه فى امتثال أوامره وترك زواجره؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفىء أنهم: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صَدَقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تَبوّؤوا الدار والإيمان

(١) المسند (٤١٢٩) والبخارى (٤٨٨٧) ومسلم (٢١٢٥ / ١٢٠) .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧/ ٤١٢) .

من قبل ، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا (١) .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم ، يُحبّون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كَفَونا المُؤنة ، وأشركونا فى المهنأ،حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله! قال: « لا ، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُمُ الله لهم » (٢). وروى البخارى عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] أثرة » . تفرد به البخارى من هذا الوجه (٣) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا. فقالوا : تكفونا المؤنَةَ ونَشركَكُم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم (٤) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى:ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة .قال الحسن البصرى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى: الحسد. ﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعنى: فيما أعطى إخوانهم. وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا جُلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تَعَلّق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إنى لاحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلتُ . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعارّ وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَب ولا هَجْر ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرَار : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرار ، فأردت أن آوى إليك لأنظر

(١) البخارى (٤٨٨٨) .
(٢) المسند (٣/ ٢٠٠) ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٦١٧) .
(٣) البخارى (٣٧٩٤) وما بين المعقوفتين منه .
(٤) البخارى (٢٣٢٥) .

ما عملكَ فأقتدى به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجدُ فى نفسى لأحد من المسلمين غِشّا ، ولا أحسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك، وهى التى لا تطاق. رواه النسائى وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين (١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى: ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ :المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال: وقال رسول الله: « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله (٢) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعنى: حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك . وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ » (٣) . وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَفَ اللهُ بقوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [الإنسان:٨] . وقوله: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] . فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ: « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله (٤) . وهكذا الماء الذى عُرِض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وروى البخارى : عن أبى هُرَيرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهدُ ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُضَيّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضَيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونَطوى بطوننا الليلة . ففعلَت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: « لقد

---

(١) المسند (٣/١٦٦) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٩٩) .
(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨/٢٨) .
(٣) أحمد (٣/٤١١) وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٦٦) : « إسناد جيد رجاله ثقات على شرط مسلم » .
(٤) أبو داود (١٦٧٨) ، وصححه الألبانى .

عجب الله ، عز وجل ــ أو : ضحك ــ من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طرق وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه (١) .

وقوله : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . روى أحمد : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلّم ، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشُحَّ ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سَفكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم » . انفرد بإخراجه مسلم (٢) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظُّلْم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفُحْش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التَّفَحُّشَ ، وإياكم والشُحَّ ؛ فإنه أهلكَ من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » . رواه أحمد وأبو داود والنسائى (٣) . وعن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخانُ جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » (٤) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان ، كما قال فى آية براءة : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى : قائلين : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . رواه البغوى (٥) .

---

(١) البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى (٣٣٠٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٨٢) .

(٢) المسند (٣/٣٢٣) ومسلم (٢٥٧٨/٥٦) .

(٣) المسند (٦٤٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٩٨) والنسائى فى الكبرى (١١٨٣) .

(٤) النسائى (٣١٠٩) ، وصححه الألبانى .

(٥) البغوى فى معالم التنزيل (٨/ ٨٠) ورواه مسلم (٣٠٢٢/ ١٥) بنحوه .

ربع

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعدُونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أي : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أي : قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى: ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ؛ ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال: ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ يعني: أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي: عداوتهم بينهم شديدة، كما قال: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥]؛ ولهذا قال: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدي، ومقاتل بن حيان : يعني: كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر. وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : يهود بني قينقاع . وكذا قال قتادة، وابن إسحاق . وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنك ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجَدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان ــ والعياذ بالله ــ الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقوله: ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أى : فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له ، مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) ﴾

روى الإمام أحمد ، عن جرير ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابى النمار ــ أو : العَبَاء ــ مُتَقَلِّدى السيوف عامتهم من مُضَر ، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية [النساء:١] . وقرأ الآية التى فى الحشر: ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ، تَصَدَّق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرِّه ، من صاع تمره ــ حتى قال : ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تَعجز عنها ، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَن سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء ، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . انفرد بإخراجه مسلم(١) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر . وقوله: ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى:حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ،﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقوله: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل

---

(١) المسند (٣٥٨/٤) ومسلم (١٠١٧ / ٦٩) .

الصالح الذى ينفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال: ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩] . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن نعيم بن نَمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله، عز وجل، فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم (١) . هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات.

وقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى: لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة، كما قال: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٨] . وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨] ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله تعالى ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ،

---

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٦٠) .

وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي: فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله، عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ إلى آخرها ، يقول: لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حَمّلته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع .
ثم قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير .
وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبى ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنّ الجذع [1] وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يُسكَّن، لما كان يُسمَع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع ». وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ الآية [الرعد:٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا. والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وقال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤] ، وقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] ،ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أى: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة﴿الْقُدُّوسُ ﴾ قال وهب بن منبه: أى الطاهر. وقال مجاهد، وقتادة : أى المبارك وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام﴿ السَّلَامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ لكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال ابن عباس: أمن

(١) رواه البخارى (٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥) .

خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمَّن بقوله: إنه حق. وقال ابن زيد : صدّق عبادَه المؤمنين فى إيمانهم به ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى: الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى: هو رقيب عليهم ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩] ، وقوله: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦] ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد:٣٣] .

وقوله: ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى: الذى قد عزّ كل شيء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه؛ولهذا قال: ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى: الذى لا تليق الجَبْرِيّة إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما فى الصحيح: « العَظَمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما عَذَّبته » (١) . وقال قتادة: الجبار: الذى جَبَر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء .ثم قال: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخلق: التقدير ، والبَرَاء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله، عز وجل. ومنه يقال: قدر الجلاد ثم فَرَى، أى: قطع على ما قدره بحسب ما يريده. وقوله تعالى: ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى: الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد، والصورة التى يختار. كقوله: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٨] ولهذا قال: ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

وقوله : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾: قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضا ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر» ـــ واللفظ للترمذى ـــ : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح، العليم ، القابض، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى، المتين ، الولى ، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال

---

(١) مسلم (٢٦٢٠/١٣٦) .

والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا [1] .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جَنَابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره .

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٨٠) من سورة الأعراف .

تفسير سورة الممتحنة
وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبى ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم ، عَمِّ عليهم خبرنا » . فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً ، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، استجابة لـدعائه. فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين فى الحديث المتفق على صحته .

روى الإمام أحمد عن [علىٍّ ، قال] بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظَعينة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقنا تَعَادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب. قالت : ما معى كتاب. قلنا: لتخرجن الكتاب أو لنُلقين الثياب . قال : فأخرجت الكتاب من عِقَاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » . قال : لا تعجل علىَّ ، إنى كنت امرأ مُلصَقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى

ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إنه صَدَقكم » . فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لَعَلّ الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه [١] . وزاد البخارى فى كتاب « المغازى » : فأنزل الله السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [٢] . وقال فى كتاب التفسير : قال عمرو : ونزلت فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قال : « لا أدرى الآية فى الحديث أو قال عمرو » . قال البخارى : قال على ـ يعنى: ابن المدينى ـ : قيل لسفيان فى هذا : نزلت ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؟ فقال سفيان : هذا فى حديث الناس ، حفظته من عمرو ، ما تركت منه حرفاً ، وما أرى أحداً حفظه غيرى [٣] . وقد أخرجاه فى الصحيحين عن على قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَد ، والزبير بن العوام، وكلنا فارس ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين : فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتابُ ؟ فقالت: ما معى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ ! لتخرجن الكتاب أو لنُجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حُجْزتها وهى مُحتَجِزة بكساء فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فَدعنى فلأضْرِب عنقه . فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردت أن تكون لى عند القوم يَدٌ يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: « صدق ، لا تقولوا له إلا خيراً ». فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر؟ » فقال : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو: قد غفرت لكم » . فدَمعت عينا عُمر ، وقال : الله ورسوله أعلم . هذا لفظ البخارى فى « المغازى » فى غزوة بدر[٤] .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير ، فقال ابن إسحاق فى السيرة :حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُرْوَة بين الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ـ زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها : سارة ، مولاة لبنى عبد المطلب ـ وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قُريشاً فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به. وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع

---

(١) المسند (٦٠٠) والبخارى (٣٠٠٧، ٤٨٩٠) ومسلم (٢٤٩٤/ ١٦١) وأبو داود (٢٦٥٠) والترمذى (٣٣٠٥) .

(٢) البخارى (٤٢٧٤) (٣) البخارى (٤٨٩٠) .

(٤) البخارى (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١) .

حاطب ، فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم » . فخرجا حتى أدركاها بالخُلَيْقة ــ حليفة (١) بنى أبى أحمد ــ فاستنزلاها بالحليفة ، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا، ولتُخرجِنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنَّك. فلما رأت الجدّ منه قالت : أعرض . فأعرض، فحلت قُرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطباً فقال : «يا حاطب ما حملك على هذا ؟ ». فقال : يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله، ما غَيَّرت ولا بَدّلت،ولكن كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولَد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله،دعنى فَلأضربْ عنقه، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ». فأنزل الله ، عز وجل، فى حاطب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة (٢) .

وروى عن عُرْوَة نحو ذلك . وهكذا ذكر مقاتل بن حيان : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة : أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاها عشرة دراهم ، وأن رسول الله ﷺ بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فأدركاها بالجحفة ، وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم. وعن السدى قريب منه. وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ، وغير واحد: إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ يعنى: المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين،الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٥٧]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ؛ ولهذا قَبِل رسول الله ﷺ عُذْرَ حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش،لأجل ما كان له عندهم من الأموال

(١) « بالحليفة » : بالحاء المهملة ـ وبالخاء أيضًا ـ وكلاهما صحيح : اسم موضع (انظر معجم البلدان) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٣٩ ، ٤٠) .

والأولاد. ويذكر هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن حُذيفة قال: ضَرَب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً : واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر ـ قال : فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرها، قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ، قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعَمَدوا إلى عَدُوهم فاستعملوهم وسلّطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه » [١] .

وقوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُم ﴾ : هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُم ﴾ أى : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨] ، وكقوله : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أى: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم فلا توالوا أعدائى وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ أى : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾ أى: لو قدروا عليكم لما أبقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى : ويحرصون على ألا تنالوا خيراً ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً .

وقوله : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخَسِر وضَلّ عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبى من الأنبياء .روى الإمام أحمد عن أنس ، أن رجلاً قال : يا رسول الله : أين أبى؟ قال : « فى النار » فلما قَفَّى دعاه فقال: « إن أبى وأباك فى النار » .ورواه مسلم وأبو داود [٢] .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا

---

(١) المسند (٥/ ٤٠٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٥/ ٢٣٢): « وفيه الأجلح الكندى وهو ثقة وقد ضعف ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) المسند (٣/ ٢٦٨) ومسلم (٢٠٣ ، ٣٤٧) وأبو داود (٤٧١٨) .

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرى منهم : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أى: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ﴾ أى : تبرأنا منكم ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : بدينكم وطريقكم ، ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ يعنى : وقد شُرِعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أى : إلى أن تُوحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان .وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن مَوعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يَدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه ، فأنزل الله، عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٣، ١١٤] . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى : ليس لكم فى ذلك أسوة ، أى : فى الاستغفار للمشركين،هكذا قال ابن عباس ، وغير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه ، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم ، فلجؤوا إلى الله وتضرّعوا إليه فقالوا : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور ، وسلّمنا أمورنَا إليك ، وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المعاد فى الدار الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال الضحاك .وقال قتادة لا تُظْهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله : ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : الذى لا يُضَام من لاذ بجنابك ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ : وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هى الأولى بعينها . وقوله :

﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ : تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أى : عما أمر الله به ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨] . وقال ابن عباس : ﴿الْغَنِيُّ﴾ : الذى قد كمل فى غناه ، وهو الله ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار. ﴿الْحَمِيدُ﴾ : المستحمد إلى خلقه ، أى: هو المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ربع

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أى : محبة بعد البغْضَة ، ومودة بعد النَّفرة ، وألفة بعد الفرقة ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أى: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الآية [آل عمران:١٠٣] . وكذا قال لهم النبى ﷺ: «ألم أجدْكُم ضُلالاً فهداكم الله بى، وكنتم متفرقين فألَّفكُم الله بى؟ » (١). وقال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢، ٦٣]. وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه ، من أىّ ذنب كان .

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أى: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ، كالنساء والضعفة منهم، ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أى : تعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ . روى الإمام أحمد عن أسماء ــ هى بنت أبى بكر ــ قالت : قَدِمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيتُ النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلى أمك » أخرجاه (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير ، قال:

(١) رواه البخارى (٤٣٣٠) .

(٢) المسند (٦ / ٣٤٤ ، ٣٤٧) والبخارى (٢٦٢٠ ، ٣١٨٣ ، ٥٩٧٨) .

قدمت قُتَيلة على ابنتها أسماء ابنة أبى بكر بهدايا: ضباب وقَرَظ وسمن ، وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى ﷺ ، فأنزل الله، عز وجل : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ إلى آخر الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها (١). وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الحجرات » ، وأورد الحديث الصحيح: « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم، وأهاليهم ، وما وَلُوا » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾: أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

تقدم فى سورة « الفتح » ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : « على ألا يأتيك منا رجل ــ وإن كان على دينك ــ إلا رددته إلينا » . وفى رواية: «على أنه لا يأتيك منا أحد ــ وإن كان على دينك ــ إلا رددته إلينا». وهذا قول عروة، والضحاك، وعبد الرحمن ابن زيد ، والزهرى ، ومقاتل ، والسدى . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله،عز وجل، أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن عَلِموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن . وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : كان امتحانهن أن يَشهدْن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وقال مجاهد : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : فاسألوهن ، ما جاء بهن ؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سَخْطة أو غيره ، ولم

---

(١) المسند (٤ / ٤) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٩) من الحجرات .

يؤمنّ فارجعوهن إلى أزواجهن . وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ؟ وما جاء بك عشق رجل منا، ولا فرار من زوجك ؟ فذلك قوله: ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ . وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله : ما أخرجكن النشوز ؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحِرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قُبِل ذلك منهن .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً .وقوله : ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ : هذه الآية هى التى حَرّمَت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ؛ ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبى ﷺ زينب ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقّ لها رقَّةً شَديدَةً ،وقال للمسلمين:« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا ». ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبى العاص ، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صَدَاقاً.ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجة [1]. ومنهم من يقول:« بعد سنتين » ، وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . وقال الترمذى : « ليس بإسناده بأس » ولا نعرف وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين . وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث ، وحديث ابن الحجاج ــ يعنى ابن أرطاة ــ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده، أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبى العاص ابن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . فقال يزيد : حديث ابن عباس أجودُ إسناداً ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب .

قلت : وقد رَوَى حديث الحجاج بن أرطاة ، عن عمرو بن شعيب الأمامُ أحمد والترمذى وابن ماجة [2] ، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد ، والله أعلم . وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عِدّتها منه؛ لأن الذى عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخَ نِكاحُها منه . وقالَ آخرون : بل إذا انقضت العدة هى بالخيار، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس، والله أعلم.

---

(١) المسند (٢٣٦٦) ثم مختصرا برقم (١٨٧٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٢٢٤٠) والترمذى (١١٤٣) وابن ماجه (٢٠٠٩) .

(٢) المسند (٦٩٣٨) والترمذى (١١٤٢) وابن ماجه (٢٠١٠) .

وقوله : ﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ يعنى : أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذى غرموه عليهن من الأصدقة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهرى ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يعنى : إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أى : تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ : تحريم من الله ، عز وجل ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن . وفى الصحيح عن المسور ومَرْوان بن الحكم : أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساءٌ من المؤمنات، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية [(١)] . وقال الزهرى : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، وقال: ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك ، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد .

وقوله : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ أى: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتى يذهبن إلى الكفار ، إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتى هاجرن إلى المسلمين .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أى : فى الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى ذلك .

ثم قال: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ قال مجاهد، وقتادة : هذا فى الكفار الذين ليس لهم عهد ، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شىء ، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها. وقال الزهرى قال : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله للمؤمنين به : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين ، ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التى أنفق عليها من العَقب الذى بأيديهم ، الذى أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التى أنفقوا على أزواجهم اللاتى آمن وهاجرنَ ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقى لهم.

---

(١) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

والعقب : ما كان بقى من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن . وقال ابن عباس فى هذه الآية : يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق . وهكذا قال مجاهد : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ يعنى : مهر مثلها . وهكذا قال مسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ،ومقاتل، والضحاك ، وسفيان ابن حسين ، والزهرى أيضاً . وهذا لا ينافى الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى ، وإلا فمن الغنائم اللاتى تؤخذ من أيدى الكفار . وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

روى البخارى عن عروة ،أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قَطّ فى المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك ». هذا لفظ البخارى (١) . وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت رُقَيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن: ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ الآية، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : «إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة » . هذا إسناد صحيح،وقد رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس ــ وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار ــ قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه فى نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا: ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ــ قال: « ولا تغشُشْن أزواجكن». قالت: فبايعناه ، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن : ارجعى فسلى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال :« تأخذ ماله ، فتحابى به غيره » (٣) .

وروى البخارى عن أم عطية قالت : بايَعْنَا رسولَ الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ

---

(١) البخارى (٤٨٩١) .

(٢) المسند (٦ / ٣٥٧) والترمذى (١٥٩٧) والنسائى (٤١٨١) وابن ماجه (٢٨٧٤) .

(٣) المسند (٦/ ٣٧٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٣٨) : « رجاله ثقات » .

شَيْئًا ﴾، ونهانا عن النّياحة ، فقبضت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتنى فلانة أريد أن أجزيها . فما قال لها رسول الله شيئا، فانطلقت ورجعت فبايعها . ورواه مسلم. وفى رواية : « فما وفى منهن امرأة غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان » (١). وللبخارى عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح ، فما وَفّت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ ، وامرأتان ــ أو : ابنة أبى سَبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى (٢) .

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهدُ النساءَ بهذه البيعة يوم العيد ، كما روى البخارى عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بَعدُ ، فنزل نبى الله ﷺ ، فكأنى أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجالَ بيده ، ثم أقبل يَشقّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ، حتى فرغ من الآية كلها . ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » . فقالت امرأة واحدة ، لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله ــ لا يدرى الحسن من هى ــ قال : « فتصدقن » ، قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتَخَ والخواتيم فى ثوب بلال (٣) . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام ، فقال : « أبايعك على ألا تشركى بالله شيئاً ، ولا تسرقى ، ولا تزنى ، ولا تقتلى ولدك ، ولا تأتى ببهتان تفترينه بين يَديك ورجليك ، ولا تنوحى ، ولا تبرجى تبرج الجاهلية الأولى » (٤) . وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس فقال : « تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ـ قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ ـ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به ، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله،إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه ». أخرجاه فى الصحيحين (٥) .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا ، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ ، فذكر بقيته كما تقدم وزاد : فلما قال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، قالت هند : ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى .

فقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أى: من جاءك منهن يبايع على هذه

---

(١) البخارى (٤٨٩٢) ومسلم (٩٣٦ / ٣١) . (٢) البخارى (١٣٠٦) .
(٣) البخارى (٤٨٩٥) .
(٤) المسند (٦٨٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٥) المسند (٥ / ٣١٤) والبخارى (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) .

الشروط، فبايعها ، ﴿ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ ﴾ أى : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان بغير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شَحِيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنى ، فهل علىَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك». أخرجاه فى الصحيحين (١) . وقوله : ﴿ وَلا يَزْنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:٣٢] . وفى حديث سَمُرة ذكرُ عقوبة الزناة بالعذاب الأليم فى نار الجحيم (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت:جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبى ﷺ فأخذ عليها : ﴿ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ ﴾ الآية ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقِرّى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا . قالت : فنعم إذاً . فبايعها بالآية (٣) . وقوله : ﴿ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ﴾ : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه . وقوله : ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس : يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل . وقوله : ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ يعنى : فما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر . روى البخارى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شَرَطه الله للنساء (٤) . وقال ميمون بن مِهْرَان : لم يجعل الله لنبيه طاعة إلا لمعروف ، والمعروف : طاعة .وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله ، وهو خِيَرة الله من خلقه فى المعروف . وقد قال غيره عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسالم بن أبى الجَعْد ، وأبى صالح ، وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح .

وروى ابن جرير عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشتُرط علينا من المعروف حين بايعنا ألا ننوح ، فقالت امرأة من بنى فلان : إن بنى فلان أسعدونى ، فلا حتى أجزيهم فانطلقت فأسعَدتَهم، ثم جاءت فبايعت ، قالت : فما وفى منهن غيرها ، وغير أم سليم ابنة مِلْحان أم أنس بن مالك. وقد روى البخارى هذا الحديث (٥). وروى ابن جرير عن أم سلمة،عن رسول الله ﷺ فى قوله:﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾، قال : «النوح» .ورواه الترمذى وابن ماجة . وقال الترمذى : حسن غريب (٦).

---

(١) البخارى (٧١٨٠) ومسلم (١٧١٤ / ٧) .
(٢) المسند (٥ / ١٥) . والحديث رواه مسلم (٢٢٧٥ / ٢٣) .
(٣) المسند (٦ / ١٥١) وذكر الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٤٠) أن رجاله رجال الصحيح .
(٤) البخارى (٤٨٩٣) .
(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٥٢) والبخارى (٤٨٩٢) .
(٦) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٥٣) والترمذى (٣٣٠٧) وابن ماجه (١٥٧٩) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر « هذه السورة » كما نهى عنها فى أولها فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة، أى: من ثواب الآخرة ونعيمها فى حكم الله عز وجل .

وقوله : ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين فى القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه .قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة ، يعنى : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عز وجل .وقال الحسن البصرى: ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات . وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . وكذا قال الضحاك . رواهن ابن جرير .

والقول الثانى : معناه : كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير .

قال ابن مسعود : ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه. وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، ومقاتل ، وابن زيد ، والكلبى ، ومنصور . وهو اختيار ابن جرير .

تفسير سورة الصّف

وهى مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا: أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلينا رجلا ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها . هكذا رواه الإمام أحمد (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) ﴾

تقدم الكلام على قوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يَعد وعدا، أو يقول قولا لا يفى به ، ولهذا استد بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا ، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث :إذا حَدَّث كذب ،وإذا وَعَد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » (٢) . وفى الحديث الآخر فى الصحيح: « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصْلَة من نفاق حتى يَدَعها » (٣) فذكر منهن إخلاف الوعد. ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُون ﴾ . وذهب الإمام مالك ،رحمه الله ، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره: « تزوج ولك على كل يوم كذا ». فتزوجَ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمى، وهو مبنى على المضايقة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضيَّة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾

---

(١) المسند (٥ / ٤٥٢) والحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٨٧) وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى (٣٣) ومسلم (٥٦ / ١٠٧) . (٣) البخارى (٣٤) ومسلم (٥٨ / ١٠٦) .

[النساء : ٧٧، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ الآية [محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَددْنا أن الله ـ عز وجل ـ دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعملَ به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ . وهذا اختيار ابن جرير . وقال مقاتل بن حيّان :قال المؤمنون : لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لعملنا به. فدلهم الله على أحب الأعمال إليه، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾، فبين لهم، فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبى ﷺ مدبرين ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل فى سبيلى .

ومنهم من يقول : أنزلت فى شأن القتال ، يقول الرجل : قاتلت،ولم يقاتل . وطعنت، ولم يطعن وضربت، ولم يضرب وصبرت، ولم يصبر. وقال قتادة، والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا» . ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن يزيد : نزلت فى قوم من المنافقين ، كانوا يَعدون المسلمين النصرَ ، ولا يَفُون لهم بذلك. وقال زيد بن أسلم :﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ، قال : فى الجهاد. وقال مجاهد : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ إلى قوله :﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فما بين ذلك : فى نفر من الأنصار ،فيهم عبد الله ابن رواحة ، قالوا فى مجلس : لو نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى اللّه ، لعملنا بها حتى نموت . فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح حبيسا فى سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيداً .

ولهذا قال الله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾، فهذا إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله فى حومة الوغى، يقاتلون فى سبيل الله مَن كفر بالله ،لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان. وروى ابن أبى حاتم عن مُطرِّف قال:كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أشتهى لقاءه ، فلقيته فقلت: يا أبا ذر ، كان يبلغنى عنك حديث ، فكنت أشتهى لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالنى أكذب على خليلى ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا فى سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه فى كتاب الله المنزل، ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ وذكر الحديث . وقد أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى ذَرّ بأبسط من هذا السياق وأتم (١) .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال .وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .وقال ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ : مُثَبّت ، لا يزول ، ملصق بعضه ببعض . وقال قتادة : ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾: ألم تر إلى صاحب البنيان ،كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره ،وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفَّهم فى صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : لم توصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» (٢) . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى ﷺ أو يُوصّلوا إليه أذى ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب :٦٩] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقال ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ يعنى : التوراة قد بَشَّرَت بى ، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشّر بمن بعدى،وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد. فعيسى، عليه السلام،

---

(١) الترمذى (٢٥٦٨) وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » والنسائى (٢٥٧٠) .

(٢) البخارى (٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢ / ١٤٢) .

هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخارى عن جُبَير بن مُطعم، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يَمحُو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » . ورواه مسلم (١). وروى أبو داود الطيالسى عن أبى موسى قال: سَمَّى لنا رسول الله ﷺ نَفسه أسماءَ ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، والتوبة ، والملحمة » . ورواه مسلم (٢).

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١] . قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حى ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه. وقال محمد بن إسحاق عن خالد بن مَعْدَانَ ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال: « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (٣) . وهذا إسناد جيد. ورُوى له شواهد من وجوه أخر ، فروى الإمام أحمد عن العِرْباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجَدلٌ فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَين » (٤) .

وروى أحمد أيضا عن أبى أمامة قال: قلتُ يا نبى الله، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام » (٥).

وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَة] (٦) ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشى ، وبعثَت قريش عَمرو بن العاص ، وعمارة

---

(١) البخارى (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤ / ١٢٤) .

(٢) أبو داود الطيالسى فى مسنده (٤٩٢) ومسلم (٢٣٥٥ / ١٢٦) .

(٣) الحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٠٠) .

(٤) المسند (٤ / ١٢٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٦) « رواه أحمد بأسانيد وأحد رجالها رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان » .

(٥) المسند (٥/ ٢٦٢) وحسنه الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٥) .

(٦) فى المطبوع : « رواحة » ومكانها بياض بالمخطوطة ، والمثبت من المسند .

ابن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشى سَجَدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له: إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم فى أرضك، فابعث إليهم. فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد ، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول ، التى لم يمسها بَشَر ولم يَفْرضْها ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمَرَ بهدية الآخرَين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً ، وزعم أن النبى ﷺ استغفر له حين بلَغه موته (١) .

وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما ،وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: « أخبرنا عن بَدْء أمرك » يعنى : فى الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر فى أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ قال ابن جريج وابن جرير :﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم**﴾ أحمد، أى : المبشر به فى الأعصار المتقادمة ، المنَّوه بذكره فى القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩)** ﴾

يقول تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ** ﴾ أى : لا أحد

(١) المسند (٤٤٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

أظلم ممن يفترى الكذب على الله ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون أن يَرُدُّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه ،وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة » ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة (١).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذا الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها. ثم قال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات ؛ ولهذا قال: ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى: إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] . وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) الآيتان (٣٢ ، ٣٣) .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ أى : من مُعينى فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج: « من رجل يُؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى؟ »[1]. حتى قيَّض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ،وصار ذلك علما عليهم، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره مَن وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم،وهم اليهود ــ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ــ وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ،وافترقوا فِرَقا وشِيَعاً ، فمن قائل منهم :إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب ، والابن، وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء . وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ ، كما روى جرير . عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا ، من عين فى البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشر مرة بعد أن آمن بى. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا. قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى عليه السلام من روزَنة فى البيت إلى السماء ،قال : وجاء الطلَبُ من اليهود ، فأخذوا شِبْهَه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتفرقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ، ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾

(١) المسند (٣ / ٣٢٢) والحاكم فى المستدرك (٢ / ٦٢٤) وصححه ، ووافقه الذهبى .

يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسرائيل فى زمن عيسى ، والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾. هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة. وهكذا رواه النسائى (١) .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٦٠) والنسائى فى الكبرى (١١٥٩١) .

تفسير سورة الجمعة

وهى مدنية

عن ابن عباس ، وأبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين . رواه مسلم فى صحيحه (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ ربع

يخبر تعالى أنه يُسبّح له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . ثم قال تعالى: ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أى: هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو المقدّس، أى : المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ الأميون هم : العرب كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفى من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وآكد ، كما فى قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤] ، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به . وكذا قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ، وقوله إخبارا عن القرآن: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود :١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك فى سورة الأنعام ، بالآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

وهذه الآية هى مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فبعثه الله سبحانه وتعالى

---

(١) مسلم (٨٧٧ / ٦١) عن أبى هريرة (٨٧٩ / ٦٤) عن ابن عباس .

وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل ، وطُمُوس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهلَ الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ـ أى : نزرا يسيرا ـ ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه ، وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله ، حاكم ، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب فى الأصول والفروع . وجمعَ له تعالى ، وله الحمد والمنة ، جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يُعطِ أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقوله : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: « لو كان الإيمان عند الثُّرَيَّا لناله رجال ــ أو: رَجُلٌ ــ مِن هؤلاء » . ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى وابن أبى حاتم ، وابن جرير [١]. ففى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، وإلى اتباع ما جاء به ؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبى ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَ فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب»، ثم قرأ: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [٢]. يعنى: بقية من بقى من أمة محمد ﷺ. وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره. وقوله: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعنى: ما أعطاه الله محمدا ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته ﷺ .

---

(١) البخارى (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦ / ٢٣٠) والترمذى (٣٣١٠) وابن جرير فى التفسير (٢٨/ ٦٢) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٦ / ٢٠١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٤٠٨) : « إسناده جيد »، وقال الألبانى : « إسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات » انظر : ظلال الجنة فى تخريج أحاديث السنة (٣٠٩) .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾

يقول تعالى ذامّا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها ، مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ،أى : كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حَملا حسيا ولا يدرى ما عليه . وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظا ولم يتفهموه ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهمَ له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . وقال هاهنا: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:« من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذى يقول له « أنصت » ، ليس له جمعة » (١).

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ،وأن محمدا وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تزعمونه . قال الله تعالى:﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم ﴾ أى: بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وقد قدمنا فى سورة « البقرة » الكلام على هذه المباهلة لليهود ، حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٦] . وقد أسلفنا الكلام هناك،وبينا أن المراد أن يدعوا على الضلاّل من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى فى آل عمران : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ومباهلة المشركين فى سورة مريم : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم :٧٥] . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيتُ محمدا عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنُقه . قال : فقال رسول الله ﷺ :« لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن

(١) المسند (٢٠٣٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

اليهود تَمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » .رواه البخارى والترمذى والنسائى(١).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾

إنما سميت الجمعة جُمعة ؛ لأنها مشتقة من الجَمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه فى كل أسبوع مَرّةً بالمعابد الكبار وفيه كَمُل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض. وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة. وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح (٢) .

وقد كان يقال له فى اللغة القديمة يوم العروبة . وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَلّوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذى لم يقع فيه خلق ،واختار النصارى يومَ الأحد الذى ابتدئ فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذى أكمل الله فيه الخَلِيقَةَ ،كما أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . ثم هذا يَومُهم الذى فَرض الله عليهم ، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد » (٣) . لفظ البخارى. وفى لفظ لمسلم: « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا . فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد. فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضى بينهم قبل الخلائق » (٤) .

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة ، فقال :﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى: اقصدوا واعمدوا واهتموا فى مَسيركم إليها ، وليس المراد بالسعى هاهنا المشى السريع،وإنما هو الاهتمام بها ،كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء:١٩] . وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود يقرآنها:«فامضوا إلى

(١) المسند (٢٢٢٥) والبخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) .
(٢) انظر ـ على سبيل المثال ما رواه مسلم (٨٥٢ / ١٣) عن أوس بن أوس ،(٨٥٤/ ١٧) عن أبى هريرة .
(٣) البخارى (٨٧٦ ، ٨٩٦) ومسلم (٨٥٥/ ١٩) . (٤) مسلم (٨٥٦ / ٢٢) .

ذكر الله». فأما المشى السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه ، لما أخرجاه فى الصحيحين ، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار، ولا تُسرِعوا ، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتموا ». لفظ البخارى (١) . وعن أبى قتادة قال : بينما نحن نُصَلى مع النبى ﷺ إذ سمع جَلَبة رجال، فلما صلى قال : «ما شأنكم ؟ » . قالوا: استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » . أخرجاه (٢) . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعى على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينةُ والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة فى قوله: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعنى: أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المشى إليها، وكان يتأولُ قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصافات:١٠٢] أى: المشى معه. روى عن محمد ابن كعب ، وزيد بن أسلم ، وغيرهما نحو ذلك .

ويستحَب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله ابن عُمَر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدُكم الجمعةَ فَلْيغتسل » (٣) . ولهما عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل مُحتَلِم » (٤) . وعن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام ، يغسل رأسه وجسده » . رواه مسلم (٥) . وروى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من غَسَّل واغتسل يوم الجمعة ،وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها » . وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحَسَّنَهُ الترمذى (٦) . وعن أبى هُرَيرة ، أن رسول الله ﷺ قال: « من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ،ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » أخرجاه (٧) .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر . وفى حديث أبى سعيد المتقدم : « غسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواكُ ، وأن يَمَس من طيب أهله » . وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومَس من طيب أهله ـ إن كان عنده ـ ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج

---

(١) البخارى (٦٣٦) ومسلم (٦٠٢ / ١٥١) .
(٢) البخارى (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣ / ١٥٥) .
(٣) البخارى (٨٧٧) ومسلم (٨٤٤ / ١).
(٤) البخارى (٨٧٩) ومسلم (٨٤٦ / ٥ ، ٧).
(٥) البخارى (٨٩٧) ومسلم (٨٤٩ / ٩) .
(٦) المسند (٤/ ١٠٤) والترمذى (٤٩) وابن ماجه (١٠٨٧) .
(٧) البخارى (٨٨١) ومسلم (٨٥٠ / ١٠) .

حتى يأتى المسجد فيركع ـ إن بدا له ـ ولم يُؤذ أحدا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » (١). وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ، فرأى عليهم ثياب النّمار، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعَةَ أن يتخذ ثوبين لجمعته، سوى ثوبى مهنته». رواه ابن ماجة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ ﴾ : المراد بهذا النداء هو النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذى زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخارى عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أولهُ إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن ، وكثر الناس، زاد النداء الثانى على الزوراء (٣) . يعنى : يؤذن به على الدار التى تسمى بالزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة ، بقرب المسجد. وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقَيّم المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر فى كتب الفروع . وقوله : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودى للصلاة : ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثانى . واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر فى موضعه، والله أعلم. وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم ، أى : فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ ﴾ أى: فُرغ منها ، ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ : لَمَّا حَجَرَ عليهم فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله. كان عرَاك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم، أجبتُ دعوتَك ، وصليتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتنى، فارزقنى من فضلك ،وأنت خير الرازقين. وروى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة، لقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . وقوله: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطَائكم ، اذكروا الله ذكرا كثيرا ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة وقال مجاهد :لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا ، حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

---

(١) المسند (٥/ ٤٢٠).

(٢) ابن ماجه (١٠٩٦) وفى الزوائد للبوصيرى :« هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٩١٢).

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التى قدمت المدينة يومئذ ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أى : على المنبر تخطب. هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم : أبو العالية ، والحسن ، وزيد ابن أسلم ، وقتادة. وزعم مقاتل بن حبان : أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم . وقد صَحّ بذلك الخبر ، فروى الإمام أحمد عن جابر قال: قَدِمَت عيرٌ المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس وبقى اثنا عشر رجلا ، فنزلت : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ . أخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الحافظ أبو يعلى: عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عيرٌ إلى المدينة ، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلا، فقال رسول الله ﷺ :« والذى نفسى بيده ، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى ناراً » ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ ، وقال : كان فى الاثنى عشر الذين ثَبَتُوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما (٢) .

وفى قوله: ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما . وقد رَوَى مسلم فى صحيحه عن جابر بن سَمُرَة قال:كانت للنبى ﷺ خطبتان يجلس بينهما،يقرأ القرآن ويذكر الناس (٣) . وقوله : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : الذى عند الله من الثواب فى الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى : لمن توكل عليه ،وطلب الرزق فى وقته .

(١) المسند (٣/ ٣١٣) والبخارى (٤٨٩٩) ومسلم (٨٦٣ / ٣٦) .
(٢) أبو يعلى فى مسنده (١٨٨٨) ، والحديث رواه مسلم (٨٦٣ / ٣٦).
(٣) مسلم (٨٦٢ / ٣٤) .

تفسير سورة المنافقين
وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ربع ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبى ﷺ ، فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضدّ من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أى: إذا حَضَروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون: ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله، فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾. ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلْفات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقد أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خَبالا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى: ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ولهذا كان الضحاك بن مُزَاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً » أى: تصديقهم الظاهر جُنَّة ، أى: تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها : ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جميع يمين . وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾أى :إنما قُدِّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أى: كانوا أشكالاً حسنة وذوى فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخَوَر والهلع والجزع والجبن ؛ ولهذا قال: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: كلما وقع أمر أو

كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجبنهم ، أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الاحزاب:١٩] ، فهم جَهَامات وصور بلا معاني . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال . وقد روى الإمام أحمد :حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قُدَامة الجُمَحى ، عن إسحاق بن بكر بن أبى الفرات ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى. عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبىﷺ قال: « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبَة ، وغنيمتهم غلول ،ولا يقربون المساجد إلا هَجْرا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرا ، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ بالليل، صُخُب بالنهار » .وقال يزيد مَرةً : سُخُبٌ بالنهار (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين ـ عليهم لعائن الله ـ أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أى : صَدوا وأعرضوا عما قيل لهم ،استكباراً عن ذلك ، واحتقارا لما قيل لهم. ولهذا قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾. ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، كما قال فى سورة

(١) المسند (٧٩١٣) ، وقاال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده حسن ـ ثم قال ـ : النهبة ـ بضم النون وسكون الهاء : اسم الانتهاب، كالنهبى، بالألف المقصورة ،وقوله: « لا يقربون المساجد إلا هجراً » هو بفتح الهاء من « هجراً » والهجر: الترك والإعراض عن الشيء . يعنى : أنهم لا يقربون المساجد ،بل يهجرونها. وقوله : ولا يأتون الصلاة إلا دبرا » : هو بفتح الدال المهملة وسكون الموحدة ، أى : آخرًا ، حين كاد الإمام أن يفرغ . « خشب بالليل » : أى ينامون الليل لا يصلون . شبههم فى تمددهم نيامًا بالخشب المطرّحة . قال ابن الأثير : « تضم الشين ، وتسكن تخفيفاً ». « صخب بالنهار » : بضم الصاد المهملة والخاء المعجمة . وفى الرواية الأخرى ليزيد فى الحديث « سخب » بالسين المهملة .والسخب والصخب : الضجة واضطراب الأصوات للخصام . قال الزمخشرى فى الفائق : ٣٤٥ « والأصل السين . . . والصاد بدل . والذى أبدلت له وقوع الخاء، بعدها ، كقولهم : « صخر » فى « سخر » . والغين والقاف والطاء أخوات الخاء فى ذلك . . . والمراد رفع أصواتهم وضجيجهم فى المجادلات والخصومات وغير ذلك » . وقال ابن الأثير :« أى إذا جن عليهم الليل سقطوا نياماً، كأنهم خشب ، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحاً وحرصاً » .

«براءة »، وقد تقدم الكلام عن ذلك، وإيراد الأحاديث المروية هناك .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان . وقد قال محمد (١) بن إسحاق فى السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ يعنى مَرْجعَه من أحد ـ وكان عبد الله بن أبى ابن سلول ـ كما حدثنى ابن شهاب الزهرى ـ له مقام يَقُومه كل جُمُعةٍ لا يُنكر، شَرَفاً له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفا، إذا جلس النبى ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه وعَزّروه، واسمعوا له وأطيعوا. ثم جلس، حتى إذا صَنَع يوم أحُد ما صنع ـ يعنى مرجعه بثلث الجيش ـ ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أى عدو الله ، لست لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْراً ؛ أن قُمت أشدد أمره . فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمتُ أشدد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى ، لكأنما قلت بَجْراً ، أن قمت أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى (٢) .

وقال قتادة والسدى : أنزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعَذَموه (٣) ، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلا وإن ذلك كان فى غزوة المُرَيسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق .

قال يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق: حدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان، وعبد الله بن أبى بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة ، فى قصة بنى المصطلق : فبينا رسول الله مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهجاه بن سعيد الغفارى ـ وكان أجيرا ـ لعمر بن الخطاب ، وسنان بن وَبْر قال ابن اسحاق: فحدثنى محمد بن يحيى بن حَبَّان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين ـ وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبى ـ فلما سمعها قال: قد ثاوَرُونا فى بلادنا. والله ما مثلُنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : «سَمِنَ كلبك يأكلك ». والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيِّمٌ ـ وعنده ابن الخطاب ـ

---

(١) فى المطبوعة حُرِّف إلى : « عبد الله » . (٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٩) .

(٣) فى المطبوعة : « غرموه » وهو تصحيف .ومعنى « عذموه » : أخذوه بألسنتهم .

فأخبره الخبر ، فقال عمر : يا رسول الله مرُ عبّاد بن بشْر فليضرب عنقه. فقال ﷺ: « فكيف إذا تحدث الناس ـ يا عمر ـ أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر فى الرحيل » . فلما بلغ عبدَ الله بن أبى أن ذلك قد بلغ رسولَ الله ﷺ ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم ـ وكان عند قومه بمكان ـ فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال . وراح رسول الله ﷺ مُهجَراً فى ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال: والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكَرةَ ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبى ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت ـ يا رسول الله ـ العزيزُ وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الْخَرزَ لِنُتوّجه ، فإنه ليرى أن قد استلبتَه ملكا . فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصَدرَ يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَس الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين (١) .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصارى: ياللأنصار. وقال المهاجرى : يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبى ابن سلول ـ وقد فعلوها ـ: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبى ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ». ورواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم نحوه (٢) .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقال عبد الله ابن أبى : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبى أنه لم يكن شىء من ذلك . قال : فلامنى قومى وقالوا : ما أردتَ إلى هذا؟ قال : فانطلقت فنمتُ كئيبا حَزينا ، قال: فأرسل إلى نبى الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عُذركَ وصَدّقك » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾ ورواه البخارى والترمذى والنسائى (٣). ثم روى أحمد أيضا: عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب الناس شدةٌ ، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨).
(٢) البيهقى فى الدلائل (٤/ ٥٣) ،والمسند (٣/ ٣٩٢)،والبخارى (٤٩٠٧) ومسلم (٢٥٨٤/ ٦٢).
(٣) المسند (٤/ ٣٦٨) والبخارى (٤٩٠٢) والترمذى (٣٣١٤)والنسائى فى الكبرى ١١٩٤).

الأذل . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله، فاجتهد يمينَه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع فى نفسى ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾. قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم. وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شيء .وقد رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى (١) .

وروى أبو عيسى الترمذى عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نَبتَدرُ الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا يسبق الأعرابى أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النّطع عليه حتى يجيء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابى ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجّه ، فأتى عبدَ الله ابن أبىّ رأسَ المنافقين فأخبره ــ وكان من أصحابه ـ فغضب عبد الله بن أبى ، ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ـ يعنى الأعراب ــ وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردْف عَمّى ، فسمعتُ عبد الله فأخبرت عَمّى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجَحَد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمى فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبكَ والمسلمون . فوقع على من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ فى سفر وقد خَفَقْتُ برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فَعَرَكَ أذنى ، وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الخلد فى الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقنى وقال: ما قال لك رسول الله ﷺ قلت: ما قال لى رسول الله شيئاً ، غير أن عرك أذنى وضحك فى وجهى. فقال: أبشر. ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر. فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين .انفرد بإخراجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقى وزاد بعد قوله «سورة المنافقين» ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ﴾ حتى بلغ: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ حتى بلغ :﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ (٢) .

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عاصم بن عُمَر بن قتادة : أن عَبدَ الله بن أبى ــ يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه ـ أتـى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبَىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى

---

(١) المسند (٤/ ٣٧٣) والبخارى (٤٩٠٠ ، ٤٩٠٣) ومسلم (٢٧٧٢ / ١) والترمذى (٣٣١٢) .

(٢) الترمذى (٣٣١٣) والبيهقى فى الدلائل (٤/ ٥٤) .

فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ: « بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقى معنا » (١) . وذكر عكرمةُ وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك. فقال : مالك ؟ ويلك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذنَ لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل. فلما جاء رسول الله ﷺ ـ وكان إنما يسير ساقة ـ فشكا إليه عبدُ الله بن أبىّ ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فَجُز الآن .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١١) ﴾

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التَلَهِّى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق فى طاعته فقال : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾، فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ،وهيهات ! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٣٨) .

تفسير سورة التغابن
وهى مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾

هذه السورة هى آخر المُسبِّحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر . وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أى: هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل والحكمة ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أى: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦ـ ٨] ، وكقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية [غافر:٦٤] ، وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب. ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ،فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ فى مخالفة الرسل والتكذيب بالحق ، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أى: خبرهم وما كان من

أمرهم ، ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي : في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي. ثم علل ذلك فقال: ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي :بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ ؟ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ، ﴿ فكفروا وتولوا ﴾ أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، ﴿ واستغنى الله ﴾ أي : عنهم ، ﴿ والله غني حميد ﴾ .

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ أي: لتخبرن بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم . وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه، عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ [يونس:٥٣] ، والثانية في سورة سبأ : ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ الآية [سبأ:٣] ، والثالثة هي هذه : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ يعني: القرآن ، ﴿ والله بما تعملون خبير﴾ أي : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾: وهو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠] . وقوله : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد .وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار. قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ . وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به فى سورة الحديد : ﴿ ما أصابَ من مُصيبَةٍ فِى الأَرْضِ ولا فِى أنفُسكُمْ إلاَّ فِى كتَابٍ مِن قَبْلِ أن نبْرأَهَا ﴾ [الحديد:٢٢] ، وهكذا قال هاهنا: ﴿ ما أصابَ من مُصيبَةٍ إلاَّ بإذْنِ اللَّه﴾ قال ابن عباس : بأمر الله ، يعنى : عن قدره ومشيئته . ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ باللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوَّضه عما فاته من الدنيا هُدى فى قلبه ، ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه . قال ابن عباس: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ باللَّه يَهْد قَلْبَهُ ﴾ يعنى: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .وقال سعيد ابن جبير ، ومقاتل بن حيان : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ باللَّه يَهْد قَلْبَهُ ﴾ يعنى: يسترجع، يقول: ﴿ إنَّا للَّه وَإنَّا إلَيْه رَاجعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] . وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (١) .

وقوله : ﴿وَأَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ ﴾ : أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر ، ثم قال : ﴿ فَإن تَوَلَّيْتُمْ فَإنَّمَا عَلَىٰ رَسُولنَا الْبَلاغُ الْمُبينُ ﴾ أى : إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ ، وعليكم ما حُمِّلْتم من السمع والطاعة . قال الزهرى: من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال: ﴿ اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمنُون ﴾، فالأول خَبَرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أى: وحدوا الإلهية له، وأخلصوا لديه ،وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخذْهُ وَكيلاً﴾ [المزمل:٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾

---

(١) مسلم (٢٩٩٩ / ٦٤) ،ولم يعزه صاحب التحفة (٤/ ٢٠٠) إلا لمسلم .

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى : أنه يلتهى به عن العمل الصالح ، كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد : يعنى على دينكم .وقال مجاهد :﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ قال: يحملُ الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه . وعن ابن عباس ـ وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ـ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناسَ قد فقهوا فى الدين، فَهَمُّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. رواه الترمذى وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير والطبرانى (١) .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾: يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى : اختبار وابتلاء من الله لخلقه . ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وقوله :﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ كما قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ [ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والتى بعدها [آل عمران:١٤، ١٥]. وروى الإمام أحمد :حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حُسَين بن واقد ، حدثنى عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبى بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: « صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ». ورواه أهل السنن وقال الترمذى: حسن غريب (٢) . وروى الإمام أحمد: عن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة، فقال لى : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لى فى مَخرَجى إليك من ابنة جمْد ، ولَوَدِدْتُ أن بمكانه : شبَعَ القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرة عين ، وأجراً إذا قبضوا » ، ثم قال : « ولئن قلت ذاك : إنهم لمجبنة مَحْزنة ، إنهم لمجبنة مَحْزنة » تفرد به أحمد (٣) .

وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى: جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه : فاجتنبوه » (٤) . وقد قال زيد بن أسلم : إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتى فى

(١) الترمذى (٣٣١٧) وابن جرير فى التفسير (٢٨/ ٨٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٢٧٥).
(٢) المسند (٥/ ٣٥٤) ، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذى (٣٧٧٤) .
(٣) المسند (٥/ ٢١١) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/١٥٨) : « رواه أحمد والطبرانى وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف وقد وثق وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٤) البخارى (٧٢٨٨) .

«آل عمران» وهى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى. وروى عن قتادة، والربيع ابن أنس، والسُّدِّىّ، ومُقاتل، نحو ذلك.

وقوله: ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم. ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أى: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوى الحَاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرّاً لكم فى الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: تقدم تفسيره فى سورة «الحشر» وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة، وقوله: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى: مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاءه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم» (١). ولهذا قال: ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ كما تقدم فى سورة البقرة: ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أى: يجزى على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ ﴾ أى: يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات. ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾: تقدم تفسيره غير مرة.

---

(١) مسلم (٧٥٨/ ١٧١).

تفسير سورة الطلاق

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ ربع

خُوطب النبى ﷺ أولا تشريفًا وتكريمًا ، ثم خاطب الأمة تبعًا فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

روى البخارى عن سالم : أن عبد الله بن عمر أخبره : أنه طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله ، عز وجل » (١) . هكذا رواه البخارى ومسلم ،ولفظه: « فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء» (٢). وأمَسُّ لفظ يورَد هاهنا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى الزبير: أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن ـ مولى عَزة ـ يسأل ابن عمر وأبو الزبير يسمع ذلك : كيف ترى فى رجل طلق امرأته حائضًا ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأتهُ حائضًا على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال : إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهى حائض ، فقال رسول الله ﷺ : «ليراجعها » فَردَّها، وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك ». قال ابن عمر: وقرأ النبى ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ (٣) .

وقال عبد الله [بن مسعود] فى قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال: الطهر من غير جماع . وروى عن ابن عمر، وعطاء ، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين ، وقتادة ، وميمون بن مِهْرانَ، ومقاتل بن حيان مثل ذلك . وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك . وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال: لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر قد جامعها فيه ، ولكن : تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة . وقال عكرمة: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ العدة : الطهر ، والقرء: الحيضة ، أن يطلقها حبلى مستبينا حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا

(١) البخارى (٤٩٠٨) . (٢) البخارى (٥٢٥١) ومسلم (١٤٧١ / ١) .

(٣) مسلم (١٤٧١ / ١٤) .

يدرى حبلى هى أم لا . ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى: طلاق سنة، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهرًا من غير جماع ،أو حاملا قد استبان حملها . والبدعى: هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام فى ذلك وما يتعلق به مستقصى فى كتب الفروع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله: ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أى : فى ذلك . وقوله : ﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ ﴾ أى : فى مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضًا الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضًا. وقوله: ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أى : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة: تشمل الزنا ، كما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المُسَيَّب، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جبير وغيرهم. وتشمل ما إذا نشزَت المرأة أو بَذَت على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أبى ابن كعب ، وابن عباس ، وعكرمة ، وغيرهم . وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى : بفعل ذلك .

وقوله : ﴿ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أى : إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رَجْعَتَها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل. عن فاطمة بنت قيس فى قوله : ﴿ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت : هى الرجعة. وكذا قال الشعبى، وعطاء ، وقتادة ، ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم ، كالإمام أحمد بن حنبل ، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة ، وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية ، حين طلقها زوجها أبو عمرو ابن حفص آخر ثلاث تطليقات ، وكان غائبًا عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير ـ يعنى : نفقة ـ فَتَسَخَّطته فقال : والله ليس لك علينا نفقة . فأتت رسول الله ﷺ، فقال : « ليس لك عليه نفقة » . ولمسلم: « ولا سكنى»، وأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال : « تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك » الحديث [١] .

وقد رواه الإمام أحمد عن عامر قال : قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس ، فحدثتنى أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ ، فبعثه رسول الله ﷺ فى سرية . قالت : فقال لى

---

(١) مسلم (١٤٨٠ / ٣٦) .

أخوه : اخرجى من الدار . فقلت : إن لى نفقة وسكنى حتى يحل الأجل. قال : لا . قالت: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن فلانًا طلقنى، وإن أخاه أخرجنى ومنعنى السكنى والنفقة ، فأرسل إليه فقال : « مالك ولابنة آل قيس »، قال : يا رسول الله ، إن أخى طلقها ثلاثًا جميعًا . قالت : فقال رسول الله ﷺ: « انظرى يا بنت آل قيس ، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى . اخرجى فانزلى على فلانة ». ثم قال : « إنه يُتحدّث إليها، انزلى على ابن أم مكتوم ، فإنه أعمى لا يراك » وذكر تمام الحديث [١] . وروى أبو القاسم الطبرانى عن عامر الشعبى: أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشى ، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى وهو منطلق فى جيش إلى اليمن بطلاقى، فسألت أولياءه النفقة على والسكنى ، فقالوا : ما أرسل إلينا فى ذلك شيئًا ، ولا أوصانا به . فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى بطلاقى، فطلبت السكنى والنفقة على، فقال أولياؤه : لم يرسل إلينا فى ذلك بشىء . فقال رسول الله ﷺ : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة ، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره فلا نفقة لها ولا سكنى » .وكذا رواه النسائى [٢] .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أى : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : محسنًا إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن . وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أى: على الرجعة إذا عزَمتم عليها ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ويخاف عقاب الله فى الدار الآخرة . ومن هاهنا ذهب الشافعى ـ فى أحد قوليه ـ إلى وجوب الإشهاد

---

(١) المسند (٦/ ٣٧٣) ، ومسلم (٢٩٤٢ / ١١٩) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤ / ٣٨٢) والنسائى (٦/ ١٤٤) وصححه الألبانى .

فى الرجعة ، كما يجب عنده فى ابتداء النكاح . وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها [١] . وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ أى: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى : من جهة لا تخطر بباله . روى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو علىَّ هذه الآية : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ ، حتى فرغ من الآية ، ثم قال: « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم » . قال : فجعل يتلوها ويُرددها على حتى نَعَست ، ثم قال : «يا أبا ذر ، كيف تصنع إن أخرجت من المدينة ؟ » . قلت: إلى السعة والدعة أنطلق ، فأكون حمامة من حمام مكة . قال : « كيف تصنع إن أخرجت من مكة ؟ » . قال : قلت : إلى السعة والدعة، وإلى الشام والأرض المقدسة. قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام ؟». قال: قلت: إذا ــ والذى بعثك بالحق ـ أضع سيفى على عاتقى. قال: «أو خير من ذلك ؟ ». قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع، وإن كان عبدًا حبشيًا » [٢] . وقال عبد الله ابن مسعود يقول: إن أجمع آية فى القرآن: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ . وفى المسند : عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجًا ، ومن كل ضِيق مَخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » [٣] .

وقال ابن عباس : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ .وقال الربيع بن خثيم : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من كل شىء ضاق على الناس .وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا . وكذا روى عن ابن عباس ، والضحاك. وقال ابن مسعود : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ : يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ أى ، من حيث لا يدرى . وقال قتادة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من شبهات الأمور والكرب عند الموت ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل . وروى الإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليُحْرَمُ الرزق بالذنب يُصيبُه، ولا يرد القَدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر » .ورواه النسائى وابن ماجة [٤] .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية :« والإشهاد عليها ـ الرجعة ـ مأمور به باتفاق الأمة ، قيل :أمر إيجاب ، وقيل : أمر استحباب » (مجموعة الفتاوى ٢٣/ ٢٣ ط . دار الوفاء) .

(٢) المسند (٥/ ١٧٨) .

(٣) المسند (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٥/ ٢٧٧) وابن ماجه (٤٠٢٢) . وفى زوائد البوصيرى : « إسناده حسن » ، وعزاه صاحب التحفة (٢/ ١٣٣) إلى النسائى وابن ماجة ولكنه استدرك وقال : « حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم » .

وقال ابن إسحاق : جاء مالك الأشجعى إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابنى عوف . فقال له رسول الله ﷺ: « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ». وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج ، فإذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسَرْح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم، فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب، فقال أبوه : عَوفٌ ورب الكعبة . فقالت أمه : واسوأتاه . وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد فاستبقا الباب والخادم ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها. فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعًا بمالك » . ونزل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ . رواه ابن أبى حاتم (١).

وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس : أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إنى معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام، وجفت الصحف » . وقد رواه الترمذى . وقال : حسن صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنًا أن لا تُسَهَّل حاجته ، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل ، أو بموت آجل » (٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أى: منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريده ويشاؤه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] .

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾

يقول تعالى مبينًا لعدة الآيسة وهى التى قد انقطع عنها الحيض لكبرها: أنها ثلاثة أشهر ، عوضًا عن الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية « البقرة » (٤) ، وكذا الصغار اللائى لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّائِي

(١) الدر المنثور للسيوطى (٦ / ٢٣٣) .
(٢) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٢٣٢٦) .
(٣) المسند (٣٨٤٦ ، ٣٨٦٩ ، ٤٢١٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٤) رقم (٢٢٨) .

لَمْ يَحِضْنَ ﴾. وقوله: ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ فيه قولان :أحدهما وهو قول طائفة من السلف ، كمجاهد ، والزهرى ، وابن زيد : أى إن رأين دما وشككتم فى كونه حيضًا أو استحاضة ، وارتبتم فيه. والقول الثانى : إن ارتبتم فى حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر . وهذا مروى عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة ، فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية . وقد رُوى عن على ، وابن عباس أنهما ذهبا فى المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر، عملا بهذه الآية الكريمة ، والتى فى سورة « البقرة » . وقد روى البخارى عن أبى سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال : أفتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس: آخرُ الأجلين. قلت أنا : ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ . قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخى يعنى أبا سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها، فقالت : قُتِل زوج سُبَيعة الأسلمية وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها. وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب الكتب مطولا من وجوه أخر [(١)] .

وروى الإمام أحمد عن المسور بن مَخْرَمَة ، أن سُبَيعة الأسلمية تُوفى عنها زوجُها وهى حامل، فلم تمكث إلا ليالى حتى وضعت، فلما تَعَلت من نفاسها خُطِبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ فى النكاح، فأذن لها أن تُنكَح، فنُكحت. ورواه البخارى فى صحيحه، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة [(٢)] .

كما روى مسلم عن سبيعة ،أنها كانت تحت سَعد بن خَولة وكان ممن شهد بدرًا فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل ، فلم تَنشَب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تَعَلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعكك فقال لها : ما لى أراك متجملة ؟ لعلك تَرجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمر عليك أربعة أشهر وعشرٌ . قالت سُبَيعة : فلما قال لى ذلك جَمعتُ علىّ ثيابى حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى قد حَلَلت حين وضعتُ حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدا لى . هذا لفظ مسلم ، ورواه البخارى مختصرًا [(٣)] ، ثم روى البخارى عن محمد ـــ هو ابن سيرين ـــ قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وكان أصحابه يعظمونه ، فذكر آخر الأجلين ، فحدّثتُ بحديث سُبَيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة ، قال : فضَمَّرَ لى بعض أصحابه ،

---

(١) البخارى (٤٩٠٩ ، ٥٣١٨) ، ومسلم (١٤٨٥/٥٧) .
(٢) المسند (٤ /٣٢٧) والبخارى (٥٣٢٠) ، ومسلم (١٤٨٤ /٥٦) وأبو داود (٢٣٠٦) وابن ماجه (٢٠٢٩) .
(٣) مسلم (١٤٨٤ /٥٦) . وهو عند البخارى (٥٣١٩ ، ٣٩٩١) .

قال محمد : ففطنت له فقلت : إنى لجرىءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو فى ناحية الكوفة . قال : فاستحيا وقال : ولكن عَمّه لم يقل ذلك . فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته ، فذهب يحدثنى بحديث سُبَيعة ، فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئا ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التغليظ ، ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ فنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى : ﴿ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١) . ورى ابن جرير عن علقمة بن قيس ؛ أن عبد الله بن مسعود قال : من شاء لاعنته ، ما نزلت : ﴿ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها . قال : وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت . يريد بآية المتوفى عنها زوجها : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وقد رواه النسائى (٢).

وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أى : يسهل له أمره ، وييسره عليه ، ويجعل له فرجا قريباً ومخرجاً عاجلاً . ثم قال : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ أى : يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلّق أحدُهم المرأة أن يُسكنَها فى منزل حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أى : عندكم ، ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد، وغير واحد: يعنى سَعَتكم. حتى قال قتادة : وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه . وقوله : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مقاتل بن حيان: يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها أو تخرج من مسكنه. وقال أبو الضُّحَى: يطلقها، فإذا بقى يومان راجعها .

وقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُن ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذه فى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها ، سواء كانت حاملاً أو حائلا.

---

(١) البخارى (٤٩١٠) . وقوله : « فضمز لى » : قال ابن الأثير : « قد اختلف فى ضبط هذه اللفظة ، فقيل : هى بالضاد والزاى ؛ من ضَمَزَ إذا سكَت ، وضمز غيره إذا أسكته ، وروى بدل اللام نونا : أى : سكّتنى وهو أشبه . ورويت بالراء والنون . والأول أشبههما » النهاية (٣ / ١٠٠) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٩٢) والنسائى (٣٥٢٢) وصححه الألبانى .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة . واختلف العلماء : هل النفقة لها بواسطة الحمل ، أو للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعى وغيره ، ويتفرع عليها مسائل مذكورة فى علم الفروع .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أى : إذا وضعن حملهن وهن طوالق ، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذى لا قوام للولد غالباً إلا به فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوف ﴾ أى: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال فى سورة « البقرة » : ﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] . وقوله : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ أى : وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرَها . فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

وقوله : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أى : لينفق على المولود والده ، أو وليه ، بحسب قدرته ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ كقوله : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]. روى ابن جرير عن أبى سِنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها : فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره، فقال : رحمه الله ، تأول هذه الآية : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ : وعدٌ منه تعالى ، ووعده حق ، وهو لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦]. وقد روى الإمام أحمد حديثا يحسن أن نذكره ههنا ، فقال أبو هريرة : بينا رجل وامرأة له فى السلف الخالى لا يقدران على شىء، فجاء الرجل من سفره، فدخل على امرأته جائعا قد أصابته مسغبة شديدة، فقال لامرأته: عندك شىء ؟ قالت: نعم، أبشر، أتاك رزق الله . فاستحثها، فقال : ويحك ! ابتغى إن كان عندك شىء . قالت : نعم ، هُنَيهة ــ ترجو رحمة الله ــ حتى إذا طال عليه الطَّوَل قال : ويحك ! قومى فابتغى إن كان عندك شىء فائتينى به ، فإنى قد بُلغتُ وجَهدتُ . فقالت : نعم ، الآن يُنضج التنور فلا تعجل. فلما أن سكت عنها ساعة وتحيَّنت أن يقول لها،

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٩٦) .

قالت من عند نفسها : لو قمتُ فنظرتُ إلى تنورى ؟ فقامَتْ فنظرَت إلى تَنورها ملآن جُنوبَ الغنم ، وَرحييها تطحَنان . فقامت إلى الرحى فنَفضتها ، واستخرجت ما فى تنورها من جنوب الغنم . قال أبو هريرة : فو الذى نفس أبى القاسم بيده ، عن قول محمد ﷺ : « لو أخذت ما فى رَحييها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة » (١).

وروى عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البَرِيَّة، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسَجَرته ، ثم قالت: اللهم ارزقنا . فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج قال: أصبتم بعدى شيئا ؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا. قام إلى الرحى، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ : « أما إنه لو لم ترفعها،لم تزل تدور إلى يوم القيامة » (٢) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره ، وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك ، فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه ﴾ أى : تمردت وطغَت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ، ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى: منكراً فظيعاً ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أى: غبّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفع الندم، ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى: فى الدار الآخرة ، مع ما عَجَّل لهم فى الدنيا . ثم قال بعد ما قَص من خبر هؤلاء: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الأَلْبَاب ﴾ أى: الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الألباب ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : صدقوا بالله ورسله، ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يعنى : القرآن . كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ [الحجر:٩] .

وقوله : ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَات ﴾ قال بعضهم : ﴿ رَسُولاً ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذى بلغ الذكر . وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول

---

(١) المسند (٢ / ٤٢١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٧) : « رجاله وثقوا » .

وقوله : « طال عليه الطول » : الطوَل : التمادى فى الأمر والتراخى ، والمعنى : طال مكثه وتماديه فى الأمر أو تراضيه عنه . (اللسان) .

(٢) المسند (٢ / ٥١٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٦) : « رجاله رجال صحيح » .

ترجمة عن الذكر، يعنى: تفسيراً له؛ ولهذا قال: ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أى : فى حال كونها بينة واضحة جلية ﴿ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ كقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، أى : من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وقد سمى الله تعالى الوحى الذى أنزله نوراً؛ لما يحصل به من الهدى ،كما سماه روحاً ؛ لما يحصل به من حياة القلوب ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ : قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرّة ، بما أغنى عن إعادته .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ كقوله إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى : سبعا أيضا ، كما ثبت فى الصحيحين : « من ظلم قَيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين » (١) . وفى صحيح البخارى: « خُسف به إلى سبع أرضين» (٢). وقد تقدم فى سورة « الحديد » عند قوله : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الآية: ٣] ذكر الأرضين السبع ، وبعد ما بينهن ، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام . وهكذا قال ابن مسعود وغيره ، وكذا الحديث الآخر: « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » (٣) .

---

(١) البخارى (٢٤٥٣) ومسلم (١٦١٢ / ١٤٢) . (٢) البخارى (٥٤٥٤) .

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٢٥٥) من سورة البقرة .

تفسير سورة التحريم
وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ ربع

اختُلف فى سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت فى شأن مارية ، وكان رسول الله ﷺ قد حرمها ، فنزل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآية.

روى النسائى عن أنس : أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرَّمها ، فأنزل الله ،عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى آخر الآية (١) . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة . وكان بدء الحديث فى شأن أم إبراهيم القبطية ، أصابها النبى ﷺ فى بيت حفصة فى نوبتها ، فوَجَدت حفصة ، فقالت : يا نبى الله ، لقد جئت إلىَّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك، فى يومى ، وفى دورى ، وعلى فراشى. قال : « ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟ ». قالت : بلى . فحرَّمها وقال : « لا تذكرى ذلك لأحد » . فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآيات فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفَّر عن يمينه ، وأصاب جاريته (٢).

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير : أن ابن عباس كان يقول فى الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] يعنى : أن رسول الله حرم جاريته فقال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ

---

(١) النسائى فى الكبرى (١١٦٠٧) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ١٠٢) ، وأصله فى الصحيحين كما سيأتى بعد قليل .

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، فكفر يمينه، فصير الحرام يميناً (١) . ورواه البخارى عن ابن عباس: فى الحرام يمين تُكَفر. وقال ابن عباس: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ورواه مسلم من حديث هشام الدَّسْتُوَائى به (٢) .

وروى النسائى عن ابن عباس، أنه أتاه رجل فقال : إنى جعلت امرأتى عَلَيَّ حرَاما ؟ قال : كذبتَ ليست عليك بحرام . ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ عليك أغلظ الكفارات ، عتق رقبة .تفرد به النسائى، بهذا اللفظ (٣) .

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات ، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعى إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حَرَّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما فى قوله ، فأما إن نوى بالتحريم طلاقَ الزوجة أو عتق الأمة ، نفذ فيهما .

والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العَسَل ، كما روى البخارى عند هذه الآية: عن عائشة قالت: كان النبى ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جَحش ، ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصةُ على : أيتُنا دخلَ عليها ، فلتقل له : أكلتَ مَغَافير ؟ إنى أجد منك ريح مغافير. قال: « لا، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جَحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا »، ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ .ثم قال: المغافير :شبيه بالصمغ ، يكون فى الرِّمث فيه حلاوة، أغفر الرِّمث: إذا ظهر فيه . واحدها مُغفور ، ويقال : مغافير . وهكذا قال الجوهرى، قال : وقد يكون المغفور أيضاً للعُشر والثُّمام والسَّلَم والطلح. قال : والرمّث ، بالكسر: مرعى من مراعى الإبل ، وهو من الحَمْض. قال : والعرفط : شجر من العضاه ينضَح المغفُور ورواه مسلم (٤).

ثم روى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحَلوى والعَسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، فيدنو من إحداهن . فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فَغِرْتُ فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت لها امرأة من قومها عُكَّة عَسَل ، فسقت النبى ﷺ منه شربة ، فقلت : أما والله لنحتالَن له . فقلت لسودة بنت زَمْعَةَ : إنه سيدنو منك ، فإذا دنا منك فقولى : أكلت مغَافير ؟ فإنه سيقول لك : لا . فقولى له : ما هذه الريح التى أجد؟ فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل . فقولى : جَرَسَتْ نحلُه العُرفُطَ .وسأقول ذلك، وقولى أنت له يا صفية ذلك ، قالت ــ تقول سودة ــ : والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتنى فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله، أكلت مغافير ؟ قال : « لا ». قالت: فما هذه الريح التى أجد منك ؟

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ١٠١) .
(٢) البخارى (٤٩١١) ومسلم (١٤٧٣ / ١٨) .
(٣) النسائى فى الكبرى (١١٦٠٩) .
(٤) البخارى (٤٩١٢ ، ٥٢٦٧ ، ٦٦٩١) .

قال: « سقتنى حفصة شَربة عسل » . قالت : جَرَسَت نَحلُه العرفطَ. فلما دار إلىَّ قلت نحو ذلك ،فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ، ألا أسقيك منه ؟ قال : « لا حاجةَ لى فيه» . قالت ــ تقول سودة ــ : والله لقد حَرَمْنَاه. قلت لها : اسكتى. هذا لفظ البخارى . وقد رواه مسلم [١]. وعنده قالت : وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح يعنى : الريح الخبيثة ؛ ولهذا قلن له : أكلت مغافير لأن ريحها فيه شىء . فلما قال : « بل شربت عسلا» . قلن: جَرَسَت نحلُه العرفطَ ، أى : رَعَت نحلُه شَجَرَ العرفط الذى صَمغُه المغافير ؛ فلهذا ظهر ريحهُ فى العسل الذى شربته .

والغرض : أن هذا السياق فيه أن حفصة هى الساقية للعسل ،و عن عائشة أن زينب بنت جَحش هى التى سقت العسل ، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه ، فالله أعلم . وقد يقال : إنهما واقعتان ، ولا بُعْدَ فى ذلك ، إلا أن كونَهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر ،والله أعلم.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدَل عمر وعدلت معه بالإداوة . فتبرز ثم أتانى ، فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ ، اللتان قال الله تعالى : ﴿ إن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر: واعجبا لك يا بن عباس ــ قال الزهرى: كره ــ والله ما سألته عنه ولم يكتمه قال:هى حفصة وعائشة. قال : ثم أخذ يسوق الحديث . قال : كنا مَعشَر قريش قوماً نَغلبُ النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تَغلبُهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال :وكان منزلى فى دار بنى أمية بن زيد بالعَوَالى . قال : فغضبَت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تُرَاجِعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله [٢] ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت :نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخَسر ، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ولا تسأليه شيئاً، وسلينى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسمُ وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ــ يريد عائشة ــ قال:وكان لى جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتينى بخبر الوحى وغيره ، وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غَسَّان تُنعِل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابى ثم

---

(١) البخارى (٥٢٦٨) ومسلم (١٤٧٤ / ٢٠) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « النبى » والمثبت من المسند .

نادانى ، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلّق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصةُ وخَسِرت ، قد كنت أظن هذا كائنا .حتى إذا صليتُ الصبحَ شددتُ علىَّ ثيابى ثم نزلت،فدخلت على حفصة وهى تبكى فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل فى هذه المشرَبة . فأتيت غلاماً له أسودَ فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم ، فجلست قليلا،ثم غلبنى ما أجد،فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمرَ.فدخل ثم خرج فقال : فقد ذكرتك له فصمت. فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : قد ذكرتك له فصمتَ . فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعونى فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمَال حَصِير قد أثر فى جنبه، فقلت : أطلَّقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : «لا». فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء،فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت علىَّ امرأتى يوما ، فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه ، وتهجره أحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت .فتبسم رسول الله ﷺ، فقلت:يا رسول الله ، فَدخَلت على حفصة فقلت : لا يغُرنَّكِ أن كانت جارتُكِ هى أوسمُ ــ أو : أحب ــ إلى رسول الله ﷺ منك . فتبسم أخرى ، فقلت: أستأنس يا رسول الله. قال: « نعم». فجلست فرفعت رأسى فى البيت، فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا أهَبَةٌ ثلاثة (١) . فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسَّع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال: « أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لى يا رسول الله . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً ؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ، عز وجل. وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى (٢) .

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبى الله ﷺ نساءه ، دخلت المسجد ، فإذا الناس يَنكُتُون بالحصى ، ويقولون : طلق رسول الله ﷺ نساءه ! وذلك قبل أن يُؤمَر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم . . .فذكر الحديث فى دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه

---

(١) فى المطبوعة : « مقامه » والمثبت من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٢٢٢) والبخارى (٤٩١٣ ، ٥١٩١ ، ٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٩ / ٣٠) والترمذى (٣٣١٨) والنسائى (٢١٣٢) . وقوله: « رمال حصير » : هو بضم الراء وتخفيف الميم ، وهو ما رُمِل ، أى : نسج . ويقال : «رَمْل الحصير » . وقال بعضهم:«الرمال » جمع « رمل » بمعنى مرمول . (من تعليق الشيخ أحمد شاكر على الحديث فى شرحه للمسند).

إياهما ، إلى أن قال : فدخلت ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكُفَّة المشربَة ، فناديت فقلت : يا رباح ، استأذن لى على رسول الله ﷺ . . . فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : فقلت يا رسول الله ما يَشُقّ عليك من أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريلَ وميكائيلَ وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمتُ ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدق قولى ، فنزلت هذه الآية ،آية التخيير : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ، ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾. فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » .فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر (١) . وكذا قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل بن حيان ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : أبو بكر وعمر ـ زاد الحسن البصرى : عثمان . وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : على بن أبى طالب .

وروى البخارى عن أنس ، قال : قال عمر: اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُن ﴾ فنزلت هذه الآية (٢). وقد تقدّم أنه وافق القرآن فى أماكنَ، منها فى نزول الحجاب، ومنها فى أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة:١٢٥]. وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات .

ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ ﴾ ظاهر .وقوله ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى : صائمات، قاله أبو هريرة، وعائشة ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير، وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن:﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ أى: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن : ﴿السَّائِحُونَ ﴾ [التوبة:١١٢] أى : المهاجرون . والقول الأول أولى ، والله أعلم. وقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أى : منهن ثيبات ، ومنهن أبكارا ، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسُط النفسَ ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا

(١) مسلم (١٤٧٩ / ٣٠) .

(٢) البخارى (٤٩١٦) .

يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

عن على فى قوله تعالى : ﴿قُوا أنفسكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول : أدبوهم ، وعَلموهم . وقال ابن عباس : ﴿ قُوا أنفُسكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومُروا أهليكم بالذكر ، ينجيكم الله من النار . وقال قتادة : يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم عن معصية الله ، وأن يقومَ عليهم بأمر الله ، ويأمرهم به ويساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية ، قَذعتهم عنها وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله ، من قرابته وإمائه وعبيده ، ما فرض الله عليهم ، وما نهاهم الله عنه .

وفى معنى هذه الآية الحديثُ الذى رواه الإمام أحمد،وأبو داود ، والترمذى عن عبد الملك ابن الربيع بن سَبْرَة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها ». هذا لفظ أبى داود ، وقال الترمذى: هذا حديث حسن [(١)] . وروى أبو داود، عن عمرو بن شعيب ،عن أبيه،عن جده ، عن النبى ﷺ مثل ذلك [(٢)] . قال الفقهاء : وهكذا فى الصوم؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكى يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ : ﴿وَقُودُهَا﴾ أى : حطبها الذى يلقى فيها جُثث بنى آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ ﴾ قيل : المراد بذلك الأصنام التى كانت تعبد لقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء:٩٨] . وقوله : ﴿ عَلَيْهَا مَلائكَةٌ غلاظٌ شدادٌ ﴾ أى : طباعهم غليظة ، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، ﴿ شدادٌ ﴾ أى : تركيبهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . وقوله : ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياذاً بالله منهم. وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

ثم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أى :توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه ،وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات. قال عمر بن الخطاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه. وقال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، أو لا يعود فيه . وعن النعمان : سُئل عمر عن التوبة النصوح ، فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ، ثم لا يعود إليه أبداً. وعن عبد الله [بن مسعود]: ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال : يتوب ثم لا يعود .

---

(١) المسند (٣ / ٤٠٤) وأبو داود (٤٩٤) والترمذى (٤٠٧) ، وصححه الألبانى .

(٢) أبو داود (٤٩٥) ، وصححه الألبانى .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يُقلعَ عن الذنب فى الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزِم على ألا يفعل فى المستقبل . ثم إن كان الحق لآدمى ردّه إليه بطريقه . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مَعقِل قال : دخلت مع أبى عَلى عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبى ﷺ يقول : «الندم توبة ؟ » . قال : نعم . وقال مَرَة : نعم سمعته يقول : « الندم توبة » . ورواه ابن ماجه [١] . فأما إذا جزم بالتوبة وصَمَّم عليها فإنها تَجُبُّ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبتت فى الصحيح: «الإسلام يَجُب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » [٢] . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات،أو يكفى العزم على ألا يعود فى تكفير الماضى، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً فى تكفير ما تقدم ، لعموم قوله، عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها ؟ » . وللأول أن يحتج بما ثبت فى الصحيح أيضاً : « مَن أحسنَ فى الإسلام لم يُؤاخَذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » [٣] . فإذا كان هذا فى الإسلام الذى هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و«عسى » من الله موجبة، ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أى: ولا يخزيهم معه، يعنى: يوم القيامة، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ كما تقدم فى سورة الحديد ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصرى وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يَرَون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طَفِئ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ، ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : فى الآخرة . ثم قال تعالى :﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : فى مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، أن ذلك لا يجدى عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله ، إن لم يكن الإيمان حاصلا فى قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ أى : نبيين رسولين عندهما فى صحبتهما ليلا ونهاراً،يؤاكلانهما ويضاجعانهما

(١) المسند (٣٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٥٢) وفى زوائد البوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) مسلم (١٢١ / ١٩٢) .

(٣) البخارى (٦٩٢١) ومسلم (١٢٠ / ١٨٩) .

ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أى: فى الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلَه شيئاً، ولا دفع عنهما محذورا؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ لكفرهما ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى: للمرأتين: ﴿ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

وليس المراد : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع فى الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء. قال ابن عباس فى هذه الآية: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال: ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ (١٢) ﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى :﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران:٢٨] . قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده ، فوالله ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكَمٌ عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه. فقولها :﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أى : خلصنى منه ، فإنى أبرأ إليك من عمله ، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم.

وقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى : حفظته وصانته . الإحصان : هو العفاف والحرية ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أى : بواسطة المَلَك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سَوِى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه فى جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت فى فرجها، فكان منه الحمل بعيسى ،عليه السلام . ولهذا قال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ أى: بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: خطّ رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط، وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » (١). وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خُوَيلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام » (٢) .

---

(١) المسند (٢٦٦٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩/ ٢٢٣): «رجاله رجال صحيح » وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.
(٢) البخارى (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١ / ٧٠) .

تفسير سورة الملك

وهى مكية

روى أحمد عن أبى هُرَيرة ، عن رَسُول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شَفَعت لصاحبها حتى غُفر له : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » .ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الجزء ٢٩

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** ﴾ : ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ** ﴾ [البقرة:٢٨] . فسمى الحال الأول ــ وهو العدم ــ موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** ﴾ [البقرة:٢٨] . وقوله : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عَجْلان : ولم يقل أكثر عملا ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال: ﴿ **الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا** ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

وقوله : ﴿ **مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ** ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه

---

(١) المسند (٨٢٥٩) وأبو داود (١٤٠٠) والترمذى (٢٨٩١) وابن ماجه (٣٧٨) ، وصححه الألبانى .

اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك ،وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق . وقال السدى : أى : من خُروق .وقال قتادة : أى : هل ترى خَلَلاً يا بن آدم ؟

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس: ذليلا ؟ وقال مجاهد ، وقتادة : صاغراً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقتادة، والسدى: الحسير : المنقطع من الإعياء . ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللا ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى: كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ، ولا يرى نقصاً . ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصافات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات:٦ـ١٠] . قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ قال ابن جرير : يعنى الصياح ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحَبّ القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها

عليهم وحنقها بهم ، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾: يذكر تعالى عدله فى خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى: ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبى البَخْتَرِىّ [١] الطائى قال: أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: « لن يهلك الناس حتى يُعذِروا من أنفسهم » [٢] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصى ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » [٣] .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : بما يخطر فى القلوب ، ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى [٤] ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها

---

(١) فى المطبوعة : « البحترى » بالحاء المهملة ، وهو خطأ .
(٢) المسند (٤/ ٢٦٠) ، والحديث رواه أبو داود (٤٣٤٧) ، وصححه الألبانى .
(٣) البخارى (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١ / ٩١) .
(٤) « أولى » : ساقطة من المطبوعة .

فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوح بِطَانًا» . رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح [(١)] . فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ، عز وجل ، وهو المسَخِّر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : الجبال .وقال أبو الدرداء: هى الجبال .

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر:٤٥]. وقال هاهنا : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجىء وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم السابقة والقرون الخالية، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ،﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته. وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٧٩] .

---

(١) المسند (٢٠٥) والترمذى (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، مُنكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ . ثم قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ بَل لَّجُّوا ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أى : معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مُكبّا على وجهه، أى: يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه، أى: لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالمؤمن يحشر يمشى سوياً على صراط مستقيم، مُفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٦] . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) .

وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ ﴾ أى: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى: قلّما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره . ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي

---

(١) المسند (٣ / ١٦٧) والبخارى (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦ / ٥٤) .

ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿ **وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ أى : تُجمَعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أى: متى يقع هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿ **قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ أى: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله، عز وجل، ولكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه، ﴿**وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أديته إليكم.

قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آتٍ وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا** (١) **وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٨]؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿ **هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ** ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ (٣٠)** ﴾

يقول تعالى: ﴿ **قُلْ** ﴾: يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ أى : خلّصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ أى: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود:١٢٣] . ولهذا قال : ﴿**فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ . ثم قال : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا** ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنَال بالفئوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** ﴾ ؟ أى: نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

---

(١) فى المطبوعة : « ما عملوا » وهو خطأ .

تفسير سورة « ن »
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) ﴾ ربع

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول «سورة البقرة» وأن قوله ﴿نٓ﴾ كقوله ﴿صٓ﴾، ﴿ قٓ ﴾، ونحو ذلك من الحروف المقطعة فى أوائل السور، وتحرير القول فى ذلك بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذى يكتب به كقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:٣ ـ ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التى بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة : يعنى : وما يكتبون . وقال عن ابن عباس : أى : وما يعملون . وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ : يعنى الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذى أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام . وأوردوا فى ذلك الأحاديث الواردة فى ذكر القلم . وعن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد » . وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد (١).

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : يكتبون ، كما تقدم . وقوله: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أى : لست ، ولله الحمد ، بمجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبوك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع كقوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦] أى : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

---

(١) المسند (٥ / ٣١٧) والترمذى (٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٠) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : أى : وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد ، والسدى ، والربيع بن أنس ، وغيرهم. وروى عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبرينى يا أم المؤمنين ـ عن خُلُق رسول الله ﷺ. فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلتُ : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن .هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه (١) . وسيأتى فى سورة «المزمل » إن شاء الله تعالى . وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن (٢) . وروى ابن جرير عن سعد (٣) بن هشام: قال: أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبرينى بخلق النبى ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن . أما تقرأ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقد روى أبو داود والنسائى نحوه (٤). وروى ابن جرير عن جُبَير بن نفير قال: حججتُ فدخلتُ على عائشة ، فسألتها عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت: كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن. هكذا رواه أحمد والنسائى عن معاوية بن صالح، به (٥) .

ومعنى هذا:أنه ، عليه السلام ، صار امتثالُ القرآن أمراً ونهياً ، سجيةٌ له ، وخلقاً تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبلِّى ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة ، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لى :« أف » قط ، ولا قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مَسِسْتُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شَمَمْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ(٦). وروى البخارى عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير (٧) . والأحاديث فى هذا كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب « الشمائل » .

وقوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أى: فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه كقوله تعالى : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] ، وكقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤] .قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُون ﴾ أى: الجنون. وكذا قال مجاهد، وغيره. وقال قتادة وغيره: ﴿ بِأَييِّكُمُ

---

(١) عبد الرزاق فى التفسير (٢ / ٢٤٥) ومسلم (٧٤٦ / ١٣٩) .

(٢) المسند (٦ / ٢١٦) ، وأبو داود (١٣٤٢) ، وصححه الألبانى .

(٣) فى المخطوطة والمطبوعة : « سعيد » وهو خطأ .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ١٣) وأبو داود (١٣٥٢) والنسائى (١٦٥١) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ١٣) والمسند (٦ / ١٨٨) والنسائى فى الكبرى (١١١٣٨/ ٢) .

(٦) البخارى (٦٠٣٨) ومسلم (٢٣٠٩/ ٥١) . (٧) البخارى (٣٥٤٩) .

المفتون ﴾ أى: أولى بالشيطان. ومعنى المفتون ظاهر، أى: الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء فى قوله : ﴿**بأيكم المفتون**﴾ لتدل على تضمين الفعل فى قوله: ﴿ **فستبصر ويبصرون** ﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون، أو : فستُخبَر ويُخبَرون بأيكم المفتون . والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أى: هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ **فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾** ﴾

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ **فلا تطع المكذبين** ﴾ . ﴿ **ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ قال ابن عباس : لو تُرَخِّص لهم فيُرَخِّصون . وقال مجاهد : ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين** ﴾ : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها فى كل وقت فى غير محلها. قال ابن عباس: المهين: الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. وقال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. وقوله : ﴿ **هماز** ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب. ﴿ **مشاء بنميم** ﴾ يعنى: الذى يمشى بين الناس، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهى الحالقة ، وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » الحديث. وأخرجه بقية الجماعة (١). وروى أحمد عن حُذَيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قَتَّات». رواه الجماعة إلا ابن ماجة (٢) . وقوله : ﴿ **مناع للخير معتد أثيم** ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ **معتد** ﴾ فى متناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ **أثيم** ﴾ أى : يتناول المحرمات . وقوله : ﴿ **عتل بعد ذلك زنيم** ﴾ : أما العتل : الفظ الغليظ الصحيح ، الجموع المَنُوعُ. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ :« ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُتَضَعِّف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عُتل جَوّاظ مستكبر » . وقال وَكيع :« كل جَوَّاظ جعظرى مستكبر » . أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة ، إلا أبا داود (٣). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن

---

(١) البخارى (٢١٨) ومسلم (٢٩٢ / ١١١) وأبو داود (٢٠) والترمذى (٧٠) .

(٢) المسند (٥ / ٣٨٢) والبخارى (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥ / ١٦٩) وأبو داود (٤٨٧١) والترمذى (٢٠٢٦) .

(٣) المسند (٤/ ٣٠٦) والبخارى (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣ / ٤٦) والترمذى (٢٦٠٥) وابن ماجه (٤١١٦) .

عمرو بن العاص ؛ أن النبى ﷺ قال عند ذكر أهل النار : « كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع » . تفرد به أحمد (١) . قال أهل اللغة : الجعظرى : الفَظُّ الغَليظ ، والجَوَّاظ : الجَمُوع المَنُوع .

وأما الزنيم فروى البخارى عن ابن عباس: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال: رجلٌ من قريش له زَنَمة مثل زَنَمَة الشاة (٢) . ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها . وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدَّعِىُّ فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة . وقال ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زنمة ، يعرف بها . ويقال: هو الأخنس ابن شَرِيق الثقفى ، حليف بنى زهرة . وقال ابن أبى نَجِيح عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم المُلحَق النسب . وقال سعيد بن المُسيَّب فى هذه الآية : هو الملصق فى القوم ، ليس منهم . وقال عكرمة: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء . والزنماء من الشياه : التى فى عنقها هَنَتان معلقتان فى حلقها . وقال سعيد بن جبير: الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها . والزنيم : الملصق . والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعياً ولد زنا ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط على غيره.

وقوله : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كَذب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦] . وقال تعالى هاهنا: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ . قال ابن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم. وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفى رواية عنه: سيما على أنفه. وكذا قال السدى. وقال ابن عباس : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾: يقاتل يوم بدر، فيُخطم بالسيف فى القتال. وقال آخرون : ﴿سَنَسِمُهُ﴾ :سمة أهل النار، يعنى: نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو مُتَّجه .

---

(١) المسند (٦٥٨٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٣٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ١٧) .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي : اختبرناهم ، ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : حلفوا فيما بينهم لَيجُذَّنَ ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حَنَّثهم الله في أيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : أصابتها آفة سماوية، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أي كالليل الأسود . وقال الثوري، والسدي : مثل الزرع إذا حُصد ، أي : هشيماً يبساً . ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجَذَاذ ، أي : القطع ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عِنَباً ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أي : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم! قال الله تعالى: ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي: قوة وشدة. وقال مجاهد : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبي : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ : على المساكين .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويَرومون. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهي على الحالة التي قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمَّة ، لا يُنتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها .قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هي فقالوا : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُون ﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حَظّ لنا ولا نصيب . ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس ،

والضحاك ، وقتادة: أى: أعدلهم وخيرهم: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾! قال مجاهد، والسدى، وابن جريج : ﴿ لَوْلا تُسَبِّحُون ﴾ أى : لولا تستثنون . قال السدى: وكان استثناؤهم فى ذلك الزمان تسبيحاً . وقال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه :﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُون ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجَذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِين ﴾ أى : اعتدينا وبَغَينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل: رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن. وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدّخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحمقَ إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء،ولو أنَّا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عُوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شىء .

قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفرا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله ، عز وجل، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تَبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ! أى : كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، مُتضمن

حكما مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وعن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال: هو يوم كَرْب وشدة. رواه ابن جرير ، ثم روى عن ابن مسعود ـ أو: ابن عباس ، الشك من ابن جرير : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال : عن أمر عظيم . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال: شدة الأمر. وقال ابن عباس: هى أشد ساعة تكون فى يوم القيامة. وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ قال: شدة الأمر وجده . وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾ : هو الأمر الشديد المُفظِع من الهول يوم القيامة .

وقوله تعالى: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجُد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى: القرآن. وهذا تهديد شديد، أى : دعنى وإياه منى ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمده فى غيه وأنظره ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ أى : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] .
ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِين ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم ، وذلك من

كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليُملى للظالم ،حتى إذا أخذه لم يُفلته ». ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢] (١).

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ . أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» (٢). والمعنى فى ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله، عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم،بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مُغَاضِباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير، الذى لا يُرَدّ ما أنفذَه من التقدير، فحينئذ نادى فى الظلمات: ﴿ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]. قال الله: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤] وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : وهو مغموم . وقال عطاء الخراسانى، وأبو مالك : مكروب. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . ورواه البخارى . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٣) .

وقوله: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: لَيَنْفُذُونك بأبصارهم ، أى : يعينونك بأبصارهم ، بمعنى : يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ، عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة: روى

(١) البخارى (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١) . (٢) عند الآيتين (٤٠ ، ٤١) .
(٣) المسند (٣٧٠٣) والبخارى (٣٦٠٣ ، ٤٦٣١) ومسلم (٢٣٧٦ / ١٦٦) .

ابن ماجه عن بُرَيدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حُمة ». هكذا رواه ابن ماجه ، وقد أخرجه مسلم عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (١). وروى هذا الحديث الإمام البخارى وأبو داود والترمذى عن عمران بن حُصَين موقوفاً (٢) . وروى مسلم عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «العين حق ، ولو كان شىء سَابَقَ القَدَرَ سَبَقَت العين ، وإذا اغْتُسلتم فاغسلوا » . انفرد به دون البخارى (٣) . وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهَامَّة ، ومن كل عين لامَّة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يُعَوِّذ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام » . أخرجه البخارى وأهل السنن (٤) . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس . فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك . ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى : حسن (٥) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك، من شر كل نفس وعين يشفيك، باسم الله أرقيك. ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود (٦). وروى الإمام أحمد عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق ». أخرجاه (٧). وروى الإمام أحمد عن عُبيدَ بن رفاعة الزُرقى قال: قالت أسماء : يا رسول الله، إن بنى جعفر تصيبهم العين،أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم، فلو كان شىء يسبق القدرَ لسبقته العين ». وكذا رواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٨). وروى ابن ماجه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين . ورواه البخارى ومسلم (٩).

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُون ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُون ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

---

(١) ابن ماجه (٣٥١٣) ومسلم (٢٢٠ / ٣٧٤) .
(٢) البخارى (٥٧٠٥) وأبو داود (٣٨٨٤) والترمذى (٢٠٧٥) .
(٣) مسلم (٢١٨٨ / ٤٢) .
(٤) البخارى (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذى (٢٠٦٠) .
(٥) ابن ماجه (٣٥١١) والترمذى (٢٠٥٨) والنسائى (٥٤٩٤) .
(٦) المسند (٣ / ٢٨ ، ٥٦) ومسلم (٢١٨٦ / ٤٠) والترمذى (٩٧٥) وابن ماجه (٣٥٢٣) .
(٧) المسند (٢ / ٣١٨) والبخارى (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧/ ٤١) .
(٨) المسند (٦ / ٤٣٨) والترمذى (٢٠٥٩) .
(٩) ابن ماجه (٣٥١٠) والبخارى (٥٧٣٨) ومسلم (٢١٩٥ / ٥٥ ، ٥٦) .

تفسير سورة الحاقة
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾

الحاقةُ من أسماء يوم القيامة ؛ لأن فيها يَتحقّقُ الوَعدُ والوَعيد ؛ ولهذا عَظَّم تعالى أمرَها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ؟

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وهى الصيحة التى أسكتتهم ، والزلزلة التى أسكنتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية: الصيحة . وهو اختيار ابن جرير . وقال مجاهد : الطاغية: الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس:١١]. وقال السُّدِّى : ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال: يعنى: عاقر الناقة. ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أى: باردة. قال قتادة، والربيع، والسدى، والثورى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أى: شديدة الهبوب. قال قتادة : عتت عليهم حتى نَقَّبت عن أفئدتهم . وقال الضحاك :﴿ صَرْصَرٍ ﴾: باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ : عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال على وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى: سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أى: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وغير واحد : ﴿ حُسُومًا ﴾ : متتابعات . وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم، كقوله: ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت:١٦] قال الربيع: وكان أولها الجمعة. وقال غيره الأربعاء. ويقال : إنها التى تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . وقيل : لأنها تكون فى عجز الشتاء . قال ابن عباس: ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ : خربة. وقال غيره : بالية ، أى : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا

خرت بلا أغصان . وقد ثبت في الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأهلكَت عادٌ بالدَّبور » (١) . ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ أي : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُ ﴾ : قُرِئَ بكسر القاف ، أي : ومن عنده في زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أي : ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ وهم المكذبون بالرسل ﴿بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي: بالفعلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا. ولهذا قال : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس، أي: كُلّ كذّبَ رسول الله إليهم. كما قال: ﴿كُلٌّ (٢) كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق:١٤]. ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٥] ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٣] ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٤١] . وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي : عظيمة شديدة أليمة. قال مجاهد : ﴿ رَّابِيَةً ﴾ : شديدة . وقال السدي : مهلكة .

ثم قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أي : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود . قال ابن عباس وغيره : ﴿ طَغَا الْمَاءُ ﴾ : كثر ــ وذلك بسبب دعوة نوح ، عليه السلام ، على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعَمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ، ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أي : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار ، كما قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف:١٢، ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس:٤١، ٤٢] . وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة . والأول أظهر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي : وتفهم هذه النعمة ، وتذكرها أذن واعية . قال ابن عباس : حافظة سامعة . وقال قتادة : ﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ : عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وقال الضحاك : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ : سمعتها أذن ووعت . أي : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

---

(١) البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠/١٧) .

(٢) في المخطوطة والمطبوعة : « إن كل إلا » وهو خطأ .

يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهى هذه النفخة . وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد. وقال الربيع: هى النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: فمدت مَدّ الأديم العُكَاظى ، وتَبَدّلت الأرض غير الأرض ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى : قامت القيامة . ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ وقال ابن جريج : هى كقوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبأ:١٩] . وقال ابن عباس : منخرقة ، والعرش بحذائها .

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ : الملك: اسم جنس، أى : الملائكة على أرجاء السماء. قال ابن عباس : على حافتها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعى . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى: أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب .وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « أذنَ لى أن أحدثكم عن ملك من حَمَلَة العرش : بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » . وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات . وقد رواه أبو داود [١] . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أى : خذوا اقرؤوا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بَدل الله سيئاته حسنات . وقوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى: قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة:٤٦] . قال الله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أى : مرضية ، ﴿ فِي جَنَّةٍ

(١) أبو داود (٤٧٢٧) ، وصححه الألبانى .

عَالِيَةٍ ﴾ أي : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . وقد ثبت فى الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» (١).

وقوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره. وكذا قال غير واحد . وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ؛ تفضلا عليهم، وامتنانا وإنعاما وإحسانا .وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وَسَدِّدوا وقَارِبُوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخلَه عملُه الجنةَ ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العَرَصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم: ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ . قال الضحاك: يعنى موتة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب ، والربيع ، والسدى . وقال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شىء فى الدنيا أكره إليه منه . ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى ولا جاهى عذابَ الله وبَأسه، بل خَلَص الأمر إلىَّ وحدى ، فلا معين لى ولا مجير. فعندها يقول الله ،عز وجل : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أى: يأمر الزبانية أن تأخذه عَنفاً من المحشر، فتَغُله ، أى: تضع الأغلال فى عنقه ، ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أى : تغمره فيها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ عن ابن عباس وابن جرير : بذراع الملك . وقال ابن عباس : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رَصَاصة مثل هذه ــ وأشار إلى مثل جُمْجُمة ــ أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ ، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها ». وأخرجه

(١) البخارى (٢٧٩٠) .

(٢) البخارى (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦ / ٧١) .

الترمذى وقال : هذا حديث حسن (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أى : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، وللعباد بعضهم على بعض حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبى ﷺ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » (٢) . وقوله : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ . لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ ﴾ أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ، لا حميم ــ وهو القريب ــ ولا شفيع يطاع ، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين . قال قتادة : هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم . وقال ابن عباس : ما أدرى ما الغسلين، ولكنى أظنه الزقوم . وقال: الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين: صديد أهل النار .

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى: محمداً ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل؛ ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وهذا جبريل ، عليه السلام .

ثم قال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى : أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير:١٩ــ ٢٥] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فأضافه تارة إلى قوله الرسول الملكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ؛ ولهذا قال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

---

(١) المسند (٦٨٥٦) والترمذى (٢٥٨٨) وعنده : « إسناده حسن صحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .
(٢) المسند (٥٨٥) وأبو داود (٥١٥٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أى : محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد فى الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه: لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد فى البطش . وقيل : لأخذنا منه بيمينه . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ قال ابن عباس : وهو نياط القلب، وهو العرْقُ الذى القلب معلق فيه. وكذا قال عكرمة ،وسعيد بن جبير. وقوله : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أى : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى فى هذا : بل هو صادق بار راشد ؛ لأن الله ، عز وجل ، مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى : القرآن كما قال :﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت:٤٤] . ثم قال: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أى : مع هذا البيان والوضوح ، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله . وعن أبى مالك: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به لحسرة فى نفس الأمر على الكافرين ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ:٥٤] ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ولا ريب. ثم قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .

تفسير سورة سأل سائل
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) ﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ : فيه تضمين دل عليه حرف « الباء » ، كأنه مُقَدّر : يستعجل سائل بعذاب واقع . كقوله : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج:٤٧] ، أى : وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عباس فى قوله :﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : النضر بن الحارث بن كَلَدَة . وقال العوفى، عن ابن عباس : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع. وقال مجاهد فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع فى الآخرة ، قال : وهو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢]. وقال ابن زيد وغيره: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أى : واد فى جنهم ، يسيل يوم القيامة بالعذاب . وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد . والصحيح الأول لدلالة السياق عليه. وقوله: ﴿ وَاقِعٍ . لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أى : مُرصد مُعَدّ للكافرين . وقال ابن عباس: ﴿ وَاقِعٍ ﴾: جاء ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال ابن عباس: ذو الدرجات .وقال : يعنى: العلو والفواضل . وقال مجاهد: ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : معارج السماء . وقال قتادة : ذى الفواضل والنعم .

وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ قال قتادة: ﴿ تَعْرُجُ ﴾ : تصعد .وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله . يشبهون الناس ، وليسوا ناسا . قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء.

وقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز فى وسط الأرض السابعة . وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وأنه من ياقوتة حمراء.

القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ،وقد وردت أحاديث في معنى ذلك .

روى الإمام أحمد عن أبي عمر الغُداني [١] قال : كنت عند أبي هُرَيرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة، فقيل له: هذا أكثر عامري مالا . فقال أبو هريرة : ردوه إليّ . فقال: نبئت أنك ذو مال كثير ؟ فقال العامري : إي والله ، إن لي لمائة حُمْراً ومائة أدماً ، حتى عد من ألوان الإبل ، وأفنان الرقيق، ورباط الخيل فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلافَ الغنم ــ يُرَدّد ذلك عليه، حتى جعل لونُ العامري يتغير ــ فقال: ما ذاك يا أبا هُرَيرة ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من كانت له إبلٌ لا يعطى حقها في نجدتها ورِسْلها ــ قلنا : يا رسول الله ، ما نجدتُها ورِسْلُها ؟ قال: « في عُسرها ويسرها ــ » فإنها تأتي يوم القيامة كأغذّ ما كانت وأكثر ه وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قَرقَر ، فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، وإذا كانت له بقر لا يعطى حقها في نجدتها ورسلها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ثم يبطح لها بقاع قَرقَر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله. وإذا كانت له غنم لا يعطى حقها في نجدتها ورسلها، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قَرقَر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عَقصاء ولا عضباء ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس، فيرى سبيله » . فقال العامري: وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطى الكريمة، وتمنح الغَزيرَة ، وتفقر الظهر ، وتَسقىَ اللبن [٢] ، وتُطرقَ الفحل . وقد رواه أبو داود، والنسائي [٣] .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدى حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ». وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم، وفيه: «الخيل لثلاثة؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» إلى آخره. ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً

---

(١) في المطبوعة : « العداني » بالعين المهملة ، وهو خطأ ، والمثبت من المسند (٤ / ٤٨٩) .

(٢) في المخطوطة والمطبوعة : « الإبل » وهو خطأ ، والمثبت من المسند (٤ / ٤٨٩) .

(٣) المسند (٢ / ٤٨٩) وأبو داود (١٦٦٠) والنسائي (٢٤٤٢) .

به دون البخارى [(١)] ، والغرض من إيراده هاهنا قوله: « حتى يحكم الله بين عباده ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقوله : ﴿ فاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ أى: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى:١٨] قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أى : وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع ، ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أى : المؤمنون يعتقدون كونه قريبا ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله، عز وجل ،لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى : العذابُ واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد، وعطاء وغير واحد ، كدُرديّ الزيت ، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أى : كالصوف المنفوش ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥] . وقوله : ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يسأل القريب عن حاله ، وهو يراه فى أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره . قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضا ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان:٣٣] . وكقوله : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر:١٨] . وكقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١] . وكقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤ ـ ٣٧].

وقوله : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ . كَلَّا ﴾ أى :لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حُشَاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به، ولا يقبل منه. قال مجاهد والسدى: ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : قبيلته وعشيرته . وقال عكرمة: فَخذه الذى هو منهم . وقال مالك : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : أمه.

(١) المسند (٢ / ٢٦٢) ومسلم (٩٨٧ / ٢٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد : جلدة الرأس . وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم . وقال سعيد بن جبير : العصب . وقال أبو صالح: ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ يعنى : أطراف اليدين والرجلين . وقال أيضا : نزاعة لحم الساقين . وقال الحسن البصرى ، وثابت البنانى : ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ أى : مكارم وجهه . وقال الحسن أيضا: تحرق كل شىء فيه، ويبقى فؤاده يصيح. وقال قتادة: ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ أى: نزاعة لهامته ومكارم وَجهه وخلْقَه وأطرافه. فقوله: نزاعة، قال: تقطع عظامهم، ثم يُجدد خلقهم وتبدل جلودهم. وقوله: ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ . وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ أى: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلق ذَلِق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب . وذلك أنهم ـ كما قال الله ،عز وجل ـ كانوا ممن ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أى : كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة. وقد ورد فى الحديث: « ولا تُوعى فَيُوعى الله عليك » (١) وكان عبد الله بن عُكيم لا يربط له كيسا ويقول : سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ .وقال الحسن البصرى : يا بن آدم ، سمعتَ وعيدَ الله ثم أوعيتَ الدنيا .

ربع

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أى : إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أى: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها . ثم قال : ﴿ إِلا الْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه ، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل: معناه: يحافظون على أوقاتهم

(١) البخارى (١٤٣٤) ومسلم (١٠٢٩ / ٨٨) .

وواجباتهم . قاله ابن مسعود ، ومسروق، وإبراهيم النخعى . وقيل : المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع ، كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١ ،٢]. قاله عتبة بن عامر. ومنه الماء الدائم ، أى: الساكن الراكد « وهذا يدل على وجوب الطمأنينة فى الصلاة ، فإن الذى لا يطمئن فى ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم ، بل ينقرها نقر الغراب فلا يفلح فى صلاته ».

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء فى الصحيح عن عائشة، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلّ » . وفى لفظ : « ما داوم عليه صاحبه » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه. وفى لفظ : أثبته (١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات . وقد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الذاريات » . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ؛ ولهذا قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أى: خائفون وجلون، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله فيه. ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى : من الإماء ، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك فى أول سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما أغنى عنى إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى: إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد فى الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » . وفى رواية : « إذا حَدَّث كذب ، وإذا عاهد غدَر ، وإذا خاصم فَجَر» (٢) . وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أى: محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها ، ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة:٢٨٣] . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أى : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم فى أول سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، وقال هاهنا: ﴿أُوْلَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

---

(١) البخارى (٤٣ ، ٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٥ / ٢١٨) .

(٢) مضى تخريج الحديث عند الآية (٨) من سورة « المؤمنون » .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه، شاردون يميناً وشمالاً ، فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ الآية [المدثر:٤٩ ـ ٥١] وهذه مثلها ؛ فإنه قال تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِعِينَ ﴾ أى: مسرعين نافرين منك،كما قال الحسن البصرى: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : منطلقين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ واحدها عزةٌ ، أى : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أى : فى حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد فى أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : قبلك ينظرون ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ قال : العزين : العُصَب من الناس، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به. وقال الحسن فى قوله: ﴿ عِزِينَ ﴾ متفرقين ، يأخذون يميناً وشمالا يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ : عامدين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أى: فرقاً حول النبى ﷺ لا يرغبون فى كتاب الله ، ولا فى نبيه ﷺ. وعن جابر بن سمرة ؛ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق ، فقال : « ما لى أراكم عزين ؟ » رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير (١) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَق حِلَق ، فقال : «ما لى أراكم عزين ؟ » (٢) . وهذا إسناد جيد ، ولم أره فى شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أى : أيطمع هؤلاء ــ والحالة هذه ــ من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق ــ أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل مأواهم نار الجحيم . ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذى أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلا عليهم

---

(١) المسند (٥ / ٩٣) ومسلم (٤٣٠ / ١١٩) وأبو داود (٤٨٢٣) والنسائى (١١٦٢٢ / ١) وابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٥٤) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٥٤) .

بالبداءة التى الإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من المنى الضعيف ، كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات: ٢٠] . وقال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ ــ ١٠] .

ثم قال : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أى : الذى خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقا ومغربا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب فى مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى بـ « لا » فى ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفى ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد فى نفى يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣] . وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١ ، ٨٢] . وقال هاهنا : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أى: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى: بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣ ، ٤] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] . واختار ابن جرير ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أى : أمة تطيعنا ولا تعصينا ،وجعلها كقوله : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أى : دعهم فى تكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ﴿ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أى: فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله ، ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أى : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب ، تبارك وتعالى ، لموقف الحساب ، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون.

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إلى عَلَم يسعون . وقال أبو العالية : إلى غاية يسعون إليها.

وقد قرأ الجمهور : « نَصْب » بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب . وقرأ الحسن البصرى : ﴿ نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنم ، أى : كأنهم فى إسراعهم إلى الموقف كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون ، أيهم يستلمه أول. وهذا مروى عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم. وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى: خاضعة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى: فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

تفسير سورة نوح
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : بيّن النذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم . و« من » هاهنا قيل : إنها بمعنى «عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير . وقيل : إنها للتبعيض ، أى: يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام . ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم . وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزاد بها فى العمر حقيقة. وقوله: ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذى قهر كل شىء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ،أنه اشتكى إلى ربه، عز وجل ،ما لقى من قومه، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة التى هى ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل ولا نهار ، امتثالا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ﴾ أى: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أى: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه. كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول . ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له . ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أى : كلاما ظاهرا بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى: فيما بينى وبينهم، فَنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كانت فى الكفر والشرك ؛ولهذا قال: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أى: متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة فى صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقى ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات فى الاستغفار . ومنها هذه الآية :﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التى ستنزل بها المطر. وقال ابن عباس وغيره :يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ،وأَدَرَّ لكم الضّرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ،وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب. ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أى: عظمة . قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته، أى: لا تخافون من بأسه ونقمته ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل: معناه: من نطفة، ثم من علقة ، ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ،وقتادة ، ويحيى ابن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى: واحدة فوق واحدة ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ، فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستتر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥] .

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أى: إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أى : بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح ، عليه السلام، على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل له ، ولا ندّ ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شىء، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ : قُرئ ﴿ وَوُلْده ﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ قال مجاهد: ﴿ كُبَّارًا ﴾ أى: عظيماً. وقال ابن زيد: أى: كبيرا. والمعنى فى قوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أى : بأتباعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [سبأ:٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾. وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

روى البخارى عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما وَد: فكانت لكلب بدَومة الجندل ؛ وأما سواع: فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غُطَيف بالجُرُف عند سبأ ، وأما يَعوقُ: فكانت لهَمْدان ، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى كَلاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم .ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبِدت (١) . وكذا رُوى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا . وقال ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد فى زمن نوح .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ يعنى: الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل، عليه السلام، فى دعائه: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٣٥، ٣٦]. وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالاً ﴾ :دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨] . وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا (٢٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ وقرئ : « خَطَايَاهُمْ » ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣] . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أى : لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ، وهذه من صيغ تأكيد النفى .قال الضحاك : ﴿ دَيَّارًا ﴾ : واحدا . وقال السُّدِّى : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن

(١) البخارى (٤٩٢٠) .

رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣]. وقوله :﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أى : إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أى: الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أى: فاجراً فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

ثم قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ قال الضحاك : يعنى : مسجدى ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ،وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . وقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾: دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات ؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح ، عليه السلام ، وبما جاء فى الآثار ، والأدعية المشروعة . وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ قال السدى : إلا هلاكا . وقال مجاهد : إلا خسارا ، أى : فى الدنيا والآخرة .

تفسير سورة الجن
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) ﴾ ربع

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى : إلى السداد والنجاح ، ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف:٢٩]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا.

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾: قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : فعلُه وأمره وقدرته . وقال: جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه . وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا. وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء، ومجاهد أيضا وابن جريج: تعالى ذكره. وقال سعيد ابن جبير : ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : تعالى ربنا.

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أى : قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

ثم قالوا: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة ، والسُّدِّى : ﴿سَفِيهُنَا ﴾ يعنون : إبليس ، ﴿شَطَطًا ﴾ قال أبو مالك: ﴿ شَطَطًا ﴾ أى: جورا . وقال ابن زيد : ظلما كبيرا. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا. ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أى : قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أى: باطلا وزورا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى :ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا

القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها . يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى: خوفا وإرهابا وذعرا، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم،كما قال قتادة: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى: إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراء. وقال السدى: كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرّ أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى ، قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رَهقتهم الجن الأذى عند ذلك .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : ﴿ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا . وقال ابن عباس: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وروى ابن أبى حاتم عن كَردم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حَمَلا من الغنم ،فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، جارك . فنادى مناد لا نراه ، يقول : يا سِرْحان ، أرسله . فأتى الحملَ يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .ثم قال : ورُوى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبى العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النَّخَعى ، نحوه. وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل ــ وهو ولد الشاة ــ كان جنّيا حتى يُرهب الإنسى ويخاف منه ، ثم ردَه عليه لما استجار به ، ليضله ويهينه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا. قاله الكلبى ، وابن جرير .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء مُلئَت حرسا شديداً ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ؛ لئلا يسترقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على ألسنة

الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق . وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه، ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أى : ما ندرى هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء ، لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ وهذا من أدبهم فى العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد فى الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يُرمَى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان ، كما فى حديث ابن عباس : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمى بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء » ، وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه فى سورة « سبأ » بتمامه (١).

وهذا هو السبب الذى حَمَلهم على تطلب السبب فى ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه فى الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذى حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم ، وتمرد فى طغيانه من بقى ، كما تقدم حديث ابن عباس فى ذلك، عند قوله فى سورة «الأحقاف » : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية [الأحقاف:٢٩] . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ،وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم، كما قال السدى: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبى أو دين لله ظاهر، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر. فلما بعث الله محمداً نبيا ، رُجموا ليلة من الليالى ، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب. فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويُسَيِّبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف . أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة ـ يعنى: محمداً ﷺ ـ وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فرأوها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين فى تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها. فأتوه فَشَم فقال : صاحبكم بمكة .فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصا على القرآن حتى كادت كَلاكِلَهم تصيبه ، ثم أسلموا . فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ.

---

(١) عند تفسير الآية (٢٣) .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾

يقول مخبرا عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي: غير ذلك، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أي : منا المؤمن ،ومنا الكافر. وقوله : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أي : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه فى الأرض ، ولو أمعنا فى الهرب، فإنه علينا قادر ، لا يعجزه أحد منا . ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ﴾ : يفتخرون بذلك ،وهو مفخر لهم،وشرف رفيع،وصفة حسنة.

وقولهم : ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما: فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]. ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى: منا المسلم ومنا القاسط ، وهو : الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ، ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أى : وقوداً تُسعر بهم .

وقوله : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى : كثيراً . والمراد بذلك سَعَة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦]، وكقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] .وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى:لنختبرهم ، كما قال مالك ، عن زيد بن أسلم: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ : لنبتليهم ، مَن يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول: قال ابن عباس: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَة ﴾ يعنى بالاستقامة : الطاعة . وقال مجاهد : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَة ﴾ قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والسدى ، ومحمد بن كعب القرظى . وقال قتادة : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَة ﴾ يقول : لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا . وقال مجاهد: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَة ﴾ أى : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين

اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى : لنبتليهم به .

والقول الثانى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ : الضلالة ﴿ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ أى : لأوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، وكقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] ، وهذا قول أبى مجلز لاحق ابن حُمَيد ؛ فإنه قال فى قوله : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الضلالة . وحكاه البغوى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ،ويتأيد بقوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلما . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : مشقة لا راحة معها .

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده أن يُوَحِّدوه فى مجال عبادته ، ولا يُدْعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس . وقال الأعمش: قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات فى مسجدك . فأنزل الله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول: صلوا، لا تخالطوا الناس . وقال عكرمة : نزلت فى المساجد كلها . وقال سعيد بن جبير . نزلت فى أعضاء السجود ، أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره . وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة ــ وأشار بيديه إلى أنفه ــ واليدين والركبتين وأطراف القدمين » (١) .

---

(١) البخارى (٨١٢) ومسلم (٤٩٠/ ٢٣٠) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال ابن عباس يقول : لما سمعوا النبى ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، يستمعون القرآن . هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام .وعن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما رأوه يصلى وأصحابه، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قالوا : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا . وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تَلَبَّد عليه جميعاً . وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال :تَلَبَّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويُمضيه ويظهره على من ناوأه. وهذا قول ثالث ، وهو مَروىّ عن ابن عباس ، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقول ابن زيد، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قَالَ[1] إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أى : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أى : إنما أعبد ربى وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ، وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شىء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل .ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أى : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذى من عذابه ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى: لا ملجأ. وقال قتادة أيضا: أى: لا نصير ولا ملجأ. وفى رواية: لا ولىّ ولا مَوئِل. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله: ﴿ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ ، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله :﴿ لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى: لا يجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧] .

وقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى: إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أى : بل المشركين لا

---

(١) « قال » : هى قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أقريب وقتها أم بعيد ؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا ﴾ ؟ أى : مدة طويلة . وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تَبدَّى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال: يا محمد، فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جَهورىّ فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ ». قال: أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : «فأنت مع من أحببت » . قال أنس : فمَا فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ، هذه كقوله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شىء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه ؛ ولهذا قال: ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أى : يَختَصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحى الله ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾. وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله: ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾، إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبى ﷺ . عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمد ﷺ ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقال قتادة : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، قال : ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاه ابن الجوزى فى « زاد المسير». ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بيَّن إليهم من الوحى ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك

(١) جزء من حديث طويل . انظر مسلم (٨ / ١) عن عمر بن الخطاب .
(٢) مسلم (٢٦٣٩ / ١٦٣) .

كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣] ، وكقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت:١١]، إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

تفسير سورة المـزمل
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو : التغطى فى الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ تتجافىٰ جنُوبُهُمْ عنِ الْمضاجِعِ يدْعُون ربَّهُمْ خوْفًا وطمعًا ومِمَّا رزقْناهُمْ يُنفِقُون ﴾ [السجدة:١٦]. وكذلك كان ﷺ ممتثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى : ﴿ ومِن اللَّيْلِ فتهجَّدْ بِهِ نافِلةً لَّك عسىٰ أن يبْعثك ربُّك مقامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْل إلاَّ قليلاً ﴾ . قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدى: ﴿ يا أيُّها الْمُزَّمِّلُ ﴾ يعنى : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النَّخعىّ : نَزَلت وهو مُتَزَمل بقطيفة . وقوله : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ بدل من الليل ، ﴿ أوِ انقُصْ مِنْهُ قلِيلاً . أوْ زِدْ علَيْهِ ﴾ أى: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : ﴿ ورتِّلِ الْقُرْآن ترْتِيلاً ﴾ أى : اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى ، عن أنس : أنه سُئِل عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقال: كانت مداً ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، يمد بسم الله ، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم (١) . وعن أم سلمة : أنها سُئِلت عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت : كان يقطِّع قراءته آية آية ، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحمْدُ لِلَّهِ ربِّ الْعالمِين . الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يوْمِ الدِّينِ ﴾ . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: « يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ ، ورتِّل كما كنت تُرتِّل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » . ووواه أبو داود ، والترمذى . وقال الترمذى :

(١) البخارى (٥٠٤٦) .

(٢) المسند (٦ / ٣٠٢) وأبو داود (٤٠٠١) والترمذى فى الشمائل ص ٢٠٩ .

حسن صحيح [١]. وقد قدمنا فى أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة. وروى البخارى : عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة فى ركعة . فقال : هذّا كهذّ الشعر . لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن .فذكر عشرين سورة من المُفَصّل،سورتين فى ركعة [٢] .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ قال الحسن، وقتادة: أى العمل به.وقيل : ثقيلٌ وقت نزوله؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت: أنزل على رسول الله ﷺ وفَخذُه على فخذى، فكادت تُرض فَخذى [٣] . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألتُ النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمعُ صَلاصِيلَ ، ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض » ، تفرد به أحمد [٤] . وفى أول صحيح البخارى عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عَلَىّ ، فَيَفْصِمُ عنى وقد وَعَيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه [٥] . واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ عن ابن عباس: نشأ : قام بالحبشة . وقال عمر، وابن عباس، وابن الزبير : الليل كله ناشئة .وكذا قال مجاهد ، وغير واحد، يقال : نشأ : إذا قام من الليل. وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مِجْلَز ، وقتادة، وسالم وأبو حازم، ومحمد بن المنكدر . والغرض : أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآنات . والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ؛ ولهذا قال: ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقتُ انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش.

ولهذا قال : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مُسلم : الفراغ والنوم . وقال أبو العالية ، ومجاهد ،والربيع بن أنس ، وغيرهم : فراغاً طويلا . وقال قتادة: فراغا وبغية ومُنْقَلبا . وقال السدى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ : تطوعا كثيراً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ قال: لحوائجك ،

---

(١) المسند (٦٧٩٩) وأبو داود (١٤٦٤) والترمذى (٢٩١٤) والنسائى (٨٠٥ / ١) . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.

(٢) البخارى (٧٧٥) . (٣) البخارى (٤٥٩٢) .

(٤) المسند / (٧٠٧١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) البخارى (٢) .

فَأفْرِغ لدينك الليل . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله مَنَّ على العباد فخففها ووضعها ، وقرأ : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾، حتى بلغ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٤٩] . وهذا الذى قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد عن سعد [(١)] بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله فى الكُرَاع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت. فلقى رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم فىّ أسوة ؟ » فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رَجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم. قال : ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلىّ فأخبرنى بردّها عليك . قال : فأتيت على حكيم ابن أفلحَ فاستلحقتُه إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إنى نهيتها أن تقول فى هاتين الشّيعَتَين شيئا ، فأبت فيهما إلا مُضِياً . فأقسمتُ عليه ، فجاء معى، فدخلنا عليها فقالت: حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر. قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن . فهمَمتُ أن أقوم ، ثم بدا لى قيامُ رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ هذه السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ قلت: بلى . قالت: فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة، فقام رسولُ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهَممت أن أقوم ، ثم بدا لى وتر رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن وتر رسول الله ﷺ. قالت : كنا نعد له سِواكه وطَهُوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلى ثمانى ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض وما يسلم. ثم يقوم ليصلى التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلك إحدى عشر ركعة يا بنى . فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بنى . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شَغَله عن قيام الليل نوم أو وَجَع أو مرض، صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة، ولا أعلم نبى الله ﷺ قرأ القرآن كله فى ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى

(١) فى المطبوعة : « سعيد » وهو خطأ . وكذا فى الموضع التالى من الحديث .

تشافهني مشافهة . هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه . وقد أخرجه مسلم بنحوه (١) .

وروى ابن جرير عن أبى عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ،قال : فاستراح الناس (٢) . وكذا قال الحسن البصرى .

وقال قتادة: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾: قاموا حولا أو حولين، حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فأنزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة . وقال ابن عباس فى قوله:﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً. نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا ،فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، فوسع الله ــ وله الحمد ــ ولم يضيق .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أى : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك ،كما قال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] أى: إذا فرغت من مهامك فانصب فى طاعته وعبادته،لتكون فارغَ البال . قال ابن عباس ومجاهد ، والسدى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أى : أخلص له العبادة. وقال الحسن : اجتهد وبتّل إليه نفسك . وقال ابن جرير: يقال للعابد : متبتل ، ومنه الحديث المروى : أنه نهى عن التَّبتُّل ، يعنى : الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج (٣) .

وقوله : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب الذى لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وكقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾

(١) المسند (٦ / ٥٤) ومسلم (٧٤٦ / ١٣٩) .
(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٧٩) .
(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٩ / ٨٣) .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلا ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شيء: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أى: رويدا، كما قال : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة وغير واحد ، ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ : وهى السعير المضطرمة ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى : تزلزل، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلا ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفا ، لا ترى فيها عوجاً ، أى :واديا ، ولا أمتا ، أى: رابية ، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى: بأعمالكم، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى : ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ أى : شديدا ، أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعونَ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ [النازعات:٢٥] ، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم ؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ويُروَى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ :يحتمل أن يكون ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولا لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولا لكفرتم ، فعلى الأول : كيفَ يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثانى : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى، والله أعلم . ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعثَ النار. فيقول: من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . وقوله : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ أى: كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لا محالة ، وكائنا لا محيد عنه .

ربع ۞ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى

ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : ﴿ إنَّ هَذه ﴾ أي : السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّه سَبِيلا ﴾ أى : فمن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخري : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أى : تارة هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ، ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أى : الفرض الذى أوجبه عليكم ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أى : من غير تحديد بوقت ، أى : ولكن قوموا من الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أى : بقراءتك، ﴿ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ . وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة بهذه الآية ، وهى قوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه ؛ واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » (١). وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة ابن الصامت ، وهو فى الصحيحين أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (٢). وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خِدَاج، فهى خِدَاج، فهى خِدَاج، غير تمام» (٣). وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن » (٤) .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار فى ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله. وهذه الآية ـ بل السورة كلها ـ مكية ، ولم يكن القتال شُرع بعدُ ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة. ولهذا قال: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أى: قوموا بما تيسر عليكم منه .

وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة

---

(١) مسلم (٣٩٧ / ٤٥) .
(٢) البخارى (٧٥٦) ومسلم (٣٩٤ / ٣٤) .
(٣) مسلم (٣٩٥ / ٣٨) .
(٤) ابن خزيمة فى صحيحه (٤٩٠) .

المفروضة. وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النّصب والمَخْرَج لم تُبين إلا بالمدينة. والله أعلم. وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ،وقتادة ، وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نَسَخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : «خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطَوّع » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعنى : من الصدقات ، فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة:٢٤٥] . وقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن عبد الله : قال رسول الله ﷺ :« أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » . قالوا : يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال: «اعلموا ما تقولون » . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر ».ورواه البخارى (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

---

(١) البخارى (٤٦) ومسلم (١١ / ٨) .

(٢) أبو يعلى فى مسنده (٩ / ٩٧) والبخارى (٦٤٤٢) .

تفسير سورة المدثر
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

ثبت فى صحيح البخارى عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾. وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾، كم سيأتى بيان ذلك هنالك . وروى البخارى عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ؟ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلتُ له مثل ما قلتَ لى، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطتُ فنُوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً . فرفعت رأسى فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى . وصبُّوا على ماء باردا . قال: فدثَّرونى وصبُّوا على ماء باردا قال: فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ » (١). هكذا ساقه من هذا الوجه،وقد رواه مسلم عن أبى سلمة قال: أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى: « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصرى قبَلَ السماء، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فَجَئِثْتُ منه حتى هَوَيتُ إلى الأرض، فجئت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ - قال أبو سلمة : والرجز: الأوثان ــ ثم حَمِىَ الوحىُ وتَتَابع » . هذا لفظ البخارى (٢) . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة ، كما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) البخارى (٤٩٢٢) .

(٢) البخارى (٤٩٢٦) .

«ثم فتر الوحى عنى فترة ، فبينا أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قِبَل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فَجُئت منه فَرَقاً ، حتى هَوَيت إلى الأرض ، فجئيت أهلى فقلت لهم : زملونى زملونى. فزملونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . ثم حمى الوحى وتتابع » . أخرجاه (١) .

فقوله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى: عظم. وقوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، قال: لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَة. ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى :

فإنى بحمد الله لاَ ثَوبَ فَاجر لبستُ ، ولا من غَدْرَة أتقَنّعُ

وقال ابن جريج عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : فى كلام العرب : نَقى الثياب . وقال الثورى ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخعى .وقال مجاهد: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال: نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رَزِين . وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يَف بعهد الله إنه لَمُدَنس الثياب . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب . وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يعنى: لا تك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية. وقال محمد بن سيرين :﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى: اغسلها بالماء.وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يطهر ثيابه . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه .

وقوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال ابن عباس:﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ وهو الأصنام ، فاهجر . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة، وقتادة : إنها الأوثان. وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى: اترك المعصية . وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الاحزاب:١] . ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٢] .

وقوله: ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها . وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وغيرهم .وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير .وقال خُصَيف ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلا تَمْنُن

(١) المسند (٣/ ٣٢٥) والبخارى (٤٩٢٦) ومسلم (١٦١/ ٢٥٦) .

تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن في كلام العرب : تضعف. وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضا من الدنيا . فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ،قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي : اصبر على عطيتك لله تعالى.

وقوله: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن ، وقتادة : وغيرهم ﴿ النَّاقُورِ ﴾: الصور .قال مجاهد: وهو كهيئة القرن . وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال: « قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .وهكذا رواه الإمام (١).

وقوله: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي : غير سهل عليهم. كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر:٨] . وقد روينا عن زُرارة بن أوفى ـ قاضي البصرة: أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله :﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ : شَهِقَ شهقة ، ثم خر ميتا ، رحمه الله.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعَمه حيث قال :﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله، ﴿ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ أي : واسعا كثيراً . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل: أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَنِينَ شُهُودًا ﴾ قال مجاهد : لا يغيبون ، أي:حضورا عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مَواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٧٣) من آل عمران .

عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتَمَلَّى بهم. وكانوا ـ فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن قتادة ـ ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة. وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده. ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ قال ابن عباس : صعود : صخرة فى جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعدها . وقال مجاهد : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أى : تَرَوَّى ماذا يقول فى القرآن حين سُئل عن القرآن ، ففكر ماذا يختلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة والتروى ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى: قبض بين عينيه وقطب ، ﴿وَبَسَرَ﴾ أى: كلح وكره . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرِف عن الحق ، ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن، ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى : ليس بكلام الله .

وهذا المذكور فى هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش ـ لعنه الله ـ وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْىٍ من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا فقالوا : واللهِ لئن صبا الوليد لتصبُوَنَّ قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدَقة ؟ فقال : ألستُ أكثرهم مالا وولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتى ؟! فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ . وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وروى ابن جرير: عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال : أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تَتَعَرض لما قبله . قال :

قد علمت قريش أنى أكثرها مالا. قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من ذلك . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره .فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ،حتى بلغ :﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (١) .

وقد ذكر ابن إسحاق وغير واحد نحوا من هذا . وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفودُ العرب للحج ليصدّوهُم عنه ، فقال قائلون : شاعر. وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، قال الله عز وجل:﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أى : سأغمره فيها من جميع جهاته . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ ؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله:﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ أى: تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبَهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون .

وقوله : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رَزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها .وقال قتادة:﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أى: حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله :﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أى : من مُقَدّمى الزبانية ، عَظيم خَلْقهم ، غليظ خُلُقهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾

يقول تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى : خُزّانها ، ﴿ إِلاَّ مَلائِكَةً ﴾ أى : زبانية غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكروا عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله :﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٩/٩٨) .

مَلائِكَةً ﴾ أى : شديدى الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين [١] ـ واسمه : كَلَدَة بن أسيد بن خلف ـ قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلى :وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ﷺ مرارا، فلم يؤمن . قال: وقد نَسَب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب .قلت : ولا منافاة بين ما ذكراه ، والله أعلم. ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختباراً منَّا للناس، ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أى : إلى إيمانهم. أى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ، ﴿ وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى : من المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ ؟ أى : يقولون : ما الحكمة فى ذكروا هذا هاهنا ؟ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وقوله :﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ . وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما . عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم » [٢] .

وقوله: ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد :﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى: النار التى وصفت، ﴿ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ . ثم قال: ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ . وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أى: ولى، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أى: أشرق ، ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أى: العظائم ، يعنى:النار ، قاله ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد من السلف: ﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أى:

---

(١) فى المطبوعة: « أبا الأسدين » بالسين المهملة ،وهو خطأ ،والمثبت من المخطوطة والطبرى والدر المنثور عند تفسيرهما لهذه الآية .

(٢) جزء من حديث طويل . رواه البخارى (٧٥١٧) ومسلم (١٦٢/ ٢٥٩) . وانظر أحاديث الإسراء عند أول تفسير سورة الإسراء .

لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً أن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى : معتقلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن عباس وغيره ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ، فإنهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ أى : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى : نتكلم فيما لا نعلم .وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ يعنى : الموت . كقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] ، وقال رسول الله ﷺ : « أما هو ـ يعنى عثمان بن مظعون ــ فقد جاءه اليقين من ربه » (١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أى : من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع ؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها . ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين، ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أى : كأنهم فى نفارهم عن الحق ،وإعراضهم عنه حُمُر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ،قاله أبو هريرة ، وابن عباس ــ فى رواية عنه ــ وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن. أو :رام ، وهو رواية عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور . وقال ابن عباس : الأسد ، بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أويا .

وقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبى . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُم

(١) البخارى (١٢٤٣) .

آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام: ١٢٤] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل . فقوله: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ أى : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها.

ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّه ﴾ ، كقوله: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وقوله: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أى: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب. قاله قتادة .

تفسير سورة القيامة
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

ربع

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفى. والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير.

فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة ، فقال الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن ـ والله ـ ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قُدُما ما يعاتب نفسه .وقال جُوَيْبِر : بلغنا عن الحسن أنه قال فى قوله : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير تلوم على الخير والشر .وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه.وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: اللوامة: المذمومة. وقال قتادة: ﴿اللَّوَّامَةِ﴾: الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ،وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ قال ابن عباس: أن نجعله خُفًا أو حافراً . وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة ، والضحاك، وابن جرير . ووجَّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك فى الدنيا . والظاهر من الآية أن قوله : ﴿قَادِرِينَ ﴾حال من قوله : ﴿ نَّجْمَعَ ﴾ أى : أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها

قادرين على أن نُسَوِّى بنانه ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه ــ وهى أطراف أصابعه ــ مستوية. وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس: يعنى يمضى قدما . وقال: يعنى : الأمل، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدى القيامة . وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُما قُدُما ، إلا من عصمه الله . ورُوى عن عِكرمة ، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: هو الذى يَعجَل الذنوبَ ويُسوِّف التوبة. وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾، قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرِق ﴾ بكسر الراء، أى : حار. وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شىء ؛ من شدة الرعب .وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود: أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله :﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كُوِّرا. وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١، ٢] ورُوى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وجُمع بين الشمس والقمر » . وقوله : ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابنُ آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى: هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة .وهذه كقوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧] أى : ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال هاهنا :﴿ لا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى :﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ،عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول :

سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه .وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت ـ والله ـ رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الإنجيل مكتوبا: يا ابن آدم ، تُبصر القَذَاة فى عين أخيك ، وتترك الجذع فى عينك لا تبصره . وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَه ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَه ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. وقال السدى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَه ﴾ :حجته . وكذا قال ابن زيد، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَه ﴾ : لو ألقى ثيابه . والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨] .

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابقُ المَلَكَ فى قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه فى صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعُه فى صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ، كما قال : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه ﴾ أى : فى صدرك ، ﴿وقُرْآنَهُ ﴾ أى : أن تقرأه، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ،﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه ﴾ أى :فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه قال: فقال لى ابن عباس: أنا أحرك شفتى كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال لى سعيد : وأنا أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾، قال: جمعه فى صدرك، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾. فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخارى ومسلم ، ولفظ البخارى: فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل (١) . وهكذا قال الشعبى ، والحسن

---

(١) المسند (٣١٩١) والبخارى (٤٩٢٧ ـ ٤٩٢٨) ومسلم (١٤٧/٤٤٨) .

البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس: ﴿ لا تُحرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ به ﴾ قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿ لا تُحرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ به . إنَّ علَيْنَا ﴾ أن نجمعه لك ﴿ وقُرْآنَهُ ﴾ : أن نقرئك فلا تنسى. وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إنَّ علَيْنَا بيَانَهُ ﴾ : تبيين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة.

وقوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحى الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ من النضارة ، أى حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى: تراه عيانا، كما رواه البخارى، فى صحيحه: « إنكم سترون ربكم عيَانا » (١) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة ـ وما فى الصحيحين: أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : «هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا : لا. قال : « فإنكم تَرَوْنَ ربكم كذلك» (٢) . وفى الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَون ربكم كما تَرَون هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » (٣) . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : «جنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضَّة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » (٤) . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل أهلُ الجنة الجنة » قال : « يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال: «فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، وهى الزيادة ». ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] (٥) . وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه: «إن الله يَتَجلَّى للمؤمنين يضحك» (٦) . يعنى فى عرصات القيامة، ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا

---

(١) البخارى (٤٨٥ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣) .
(٢) البخارى (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٨) ، ومسلم (١٨٢/٢٩٩) .
(٣) البخارى (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ومسلم (٦٣٣ / ٢١١) .
(٤) البخارى (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠/٢٩٦) .
(٥) مسلم (١٨١ / ٢٩٧) .
(٦) مسلم (١٩١/٣١٦) .

ذلك مفرقا فى مواضعَ من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهُدَاة الأنام .

وقوله : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالحة. وقال السدى: تغير ألوانها. وقال ابن زيد :﴿بَاسِرَةٌ﴾ أى : عابسة . ﴿تَظُنُّ﴾ أى: تستيقن، ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر . وقال السدى : تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار . وهذا المقام كقوله:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ، وكقوله:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨ـ ٤٢]، وكقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ. تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية:٢ ـ ١٠]، فى أشباه ذلك من الآيات والسياقات .

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ـ ثبتنا الله هناك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، إن جعلنا ﴿ كَلا ﴾ رادعة فمعناها : لست يا بن آدم تكذب هناك بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عيانا. وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر، أى: حقا بلغت التراقى، أى: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك . والتراقى : جمع ترقوة، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله:﴿ فَلَوْلا (١) إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ . فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾، والتراقى: جمع ترقوة، وهى قريبة من الحلقوم. ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ ؟ قال ابن عباس : أى من راق يرقى ؟ وكذا قال أبو قلابة : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى : من طبيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة. وكذا: قال آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء ببلاء . وقال الحسن البصرى: هما ساقاك إذا التفتا. وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان

(١) فى المخطوطة :« كلا » وهو خطأ واضح .

عليهما جوالا. وكذا قال السدى ، عن أبى مالك . وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن . وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه، متوليا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أى: جَذلان أشرا بَطرا كسلانا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال : ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أى: يرجع ، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٣ـ ١٥]. وقال الضحاك : عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾: أى: يختال. وقال قتادة، وزيد بن أسلم: يتبختر . قال الله تعالى : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ : وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر فى مشيه، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله :﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] ، وكقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦] ، وكقوله: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠] إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ قال السدى : يعنى : لا يبعث . وقال مجاهد ، والشافعى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى لا يؤمر ولا ينهى. والظاهر أن الآية تعم الحالين، أى: ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ ؟ أى: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام. ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى: فصار علقة، ثم مضغة، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقا آخر سَوياً سليم الأعضاء، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره؛ ولهذا قال: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ . ثم قال: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة ، وإما مساوية على القولين فى قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . والأول أشهر ، والله أعلم. عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ ؟ قال: سبحانك ؛ فبلى .

تفسير سورة الإنسان
وهى مكية

فى صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ . تنزِيلُ ﴾ السجدة ، و﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ ﴾ (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر ، لحقارته وضعفه ، فقال : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى: أخلاط . والمشج والمشيج : الشىء المختلط ، بعضه فى بعض .قال ابن عباس فى قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعنى : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور ، وحال إلى حال . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ،والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة . وقوله : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أى : نختبره ، كقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك:٢]. ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ أى : جعلنا له سمعا وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله :﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] ، وكقوله:﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]، أى : بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد ـ فى المشهور عنه ـ والجمهور . وقوله: ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾: منصوب على الحال من « الهاء » فى قوله :﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تقديره : فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ:« كل الناس يَغْدو ، فبائع نفسه فموبقها أو مُعْتقها » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : رايةٌ بيد مَلَك، وراية بيد شَيطان، فإن خرج لما يُحبّ اللهُ

(١) مسلم (٨٧٩ / ٦٤) . (٢) مسلم (٢٢٣/ ١) .

اتبعَه المَلَك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته. وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته » (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أن النبى ﷺ قال لكعب بن عُجرَة :« أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهداى ، ولا يستَنّونَ بسنتى، فمن صَدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يَردُون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى. يا كعب بن عُجرَة، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان ـ أو قال: برهان. يا كعبَ بنَ عجرَة، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت ، النار أولى به ـ يا كعب، الناس غَاديان ، فمبتاعُ نفسَه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » (٢) .

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهيب والحريق فى نار جهنم ، كما قال: ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢] .

ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة. قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل؛ ولهذا قال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : هذا الذى مُزِج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها .قال بعضهم : هذا الشراب فى طيبه كالكافور. وقال بعضهم : هو من عين كافور.

وقوله: ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠]. وقال: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٣]. قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ : يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة. وقال الثورى :

---

(١) المسند (٨٢٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣/ ٣٢١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٣٤) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

يصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر. روى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يَعصىَ الله فلا يَعصِه » ، رواه البخارى من حديث مالك (١) .

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذى شره مستطير ، أى : منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله . قال ابن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار ـ والله ـ شرّ ذلك اليوم حتى مَلأ السموات والأرض .قال ابن جرير : ومنه قولهم : استطار الصدع فى الزجاجة واستطال .

وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ قيل: على حب الله تعالى . وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه . والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وكقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] . وفى الصحيح: «أفضل الصدقة أن تَصدّقَ وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر» (٢) ، أى :فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾. أما المسكين واليتيم ، فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الأسير : فقال سعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك : الأسير : من أهل القبلة . وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين . ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، وهكذا قال سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة .

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول :« الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » (٣) . وقال عكرمة: هم العبيد ـ واختاره ابن جرير ـ لعموم الآية للمسلم والمشرك .وقال مجاهد : هو المحبوس ، أى : يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى : رجاءَ ثواب الله ورضاه ، ﴿ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ أى: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أى : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا

---

(١) البخارى (٦٦٩٦ ، ٦٧٠٠) . (٢) مسلم (١٠٣٢ / ٩٢) .

(٣) المسند (٥٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

بلطفه، فى اليوم العبوس القمطرير. قال ابن عباس: ﴿ عَبُوسًا ﴾: ضيقا، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾: طويلا. وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله: ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أى: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطرَان . وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ : تقليص الجبين وما بين العينين ، من الهول .وقال ابن زيد : العبوس : الشر . والقمطرير: الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها ، وأعلاها وأولاها ، قولُ ابن عباس رضى الله عنه .

قال ابن جرير : والقمطرير هو : الشديد ؛ يقال : هو يوم قمطرير ويوم قُماطر ، ويوم عَصِيب وعَصَبْصَب ، وقد اقمطرّ اليومُ يقمطرّ اقمطرارا ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة .

قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ، وهذا من باب التجانس البليغ ، ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أى : آمنهم مما خافوا منه، ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ أى : فى وجوههم ، ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أى : فى قلوبهم . قاله الحسن البصرى ، وقتادة ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس:٣٨ ، ٣٩] . وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قَمَر. وقالت عائشةُ : دخل علَىّ رسول الله ﷺ مسرورا تَبرُقُ أسَاريرُ وَجْهه ـ الحديث (١) . وقوله : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : بسبب صبرهم أعطاهم ونَوّلهم وبوّأهم ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أى : منزلا رحبا ، وعيشا رَغَداً ، ولباساً حَسَناً .

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا (١٦) وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا (١٩) وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا (٢٠) عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا (٢٢) ﴾ ربع

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة « الصافات»، وذكر الخلاف فى الاتكاء : هل هو الاضطجاع ، أو التمرفق ، أو التربع ، أو التمكن فى الجلوس ؟ وأن الأرائك هى السُّرر تحت الحجال . ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى : ليس

(١) البخارى (٣٩٥١ ، ٤٦٧٣) ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) .

عندهم حَرٌّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سَرْمَدِىّ ، ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف:١٠٨] ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ أى: قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطْفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن:٥٤] . وقال تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:٢٣] .

وقوله: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى: يطوف عليهم الخَدَم بأوانى الطعام، وهى من فضة، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله :﴿ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾: فالأول منصوب بخبر « كان » أى: كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ .قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا . وعن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وقوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى : على قدر ريّهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدّة لذلك، مقدرة بحسب رىّ صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة . وقال العَوفى ، عن ابن عباس :﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾: قدرت للكف . وهكذا قال الربيع ابن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكُفّ الخُدّام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القَدْر والرّى .

وقوله: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ أى: ويسقون ـ يعنى الأبرار أيضا ـ فى هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى: خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرْفاً، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم فى قوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾، وقال ههنا: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ أى: الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلا. قال عكرمة: اسم عين فى الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جَريها. وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الحَلْق . واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلّه ، وهو كما قال .

وقوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى: يطوف على أهل الجنة للخدْمَة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿ مُخَلَّدُونَ ﴾ أى: على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُونَ فى آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤا منثورا. ولا يكون فى

التشبيه أحسن من هذا، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . قال عبد الله ابن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثَمَّ ﴾ أى : هناك، يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتَها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً . وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : « إن لك مثلَ الدنيا وعشرة أمثالها » (١) . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

وقوله : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة ، فأخبر سبحانه وتعالى بحاله الظاهروجمالهم الباطن . وقوله :﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى: يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] ، وكقوله: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] . وقوله: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نَزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلا : ﴿ فاصْبِرْ لِحكْمِ ربّكَ ﴾ أى: كما أكرمك بما أنزل عليك ، فاصبر على قضائه وقدَره ، واعلم أنه سيُدبّرك بحسن

---

(١) مسلم (١٨٦/٣٠٨) .

تدبيره ، ﴿ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أى: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك ، بل بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى : أولَ النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] ، وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤] . ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم فى حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾ يعنى : يوم القيامة .

ثم قال: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى خَلْقهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أى: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبدلناهم فأعدناهم خلقا جديدا . وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة . وقال ابن زيد ، وابن جرير: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أى: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٣٣] ، وكقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠ ، وفاطر ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ يعنى : هذه السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أى : طريقا ومسلكا ، أى: من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٣٩] . ثم قال: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى : لا يقدر أحد أن يَهدىَ نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً ، ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسِّرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾. ثم قال: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

تفسير سورة المرسلات
وهى مكية

روى البخارى عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غار بمنى، إذ نزلت عليه : ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ ﴾ ، فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثَبت علينا حيَّة ، فقال النبى ﷺ : « اقتلوها » . فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ : « وُقِيَتْ شركم كما وُقيتُم شرّهَا » .وأخرجه مسلم [١] . وعن ابن عباس:أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقالت : يا بنى ، ذكَّرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب . أخرجاه فى الصحيحين [٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾

عن أبى هُرَيرة: ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ قال: الملائكة. ورُوى عن مسروق ، وأبى الضحى ، ومجاهد ــ فى إحدى الروايات ــ والسّدى، والربيع بن أنس، مثلُ ذلك. ورُوِىَ عن أبى صالح أنه قال: هى الرسل . وفى رواية عنه : هى الملائكة . وهكذا قال أبو صالح فى ﴿ الْعَاصِفَاتِ ﴾ و﴿النَّاشِرَاتِ ﴾ و﴿ الْفَارِقَاتِ ﴾ و ﴿ الْمُلْقِيَاتِ ﴾ : أنها الملائكة .

قال ابن مسعود عن ﴿ الْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الريح . وكذا قال فى : ﴿ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ : إنها الريح . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح ــ فى رواية عنه ــ وعن أبى صالح: أن الناشرات نشرا : المطر . والأظهر أن : ﴿ الْمُرْسَلاتِ ﴾ هى الرياح ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف:٥٧] ، وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هبَّت بتصويت ، وكذا الناشرات هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

---

(١) البخارى (١٨٣٠) ومسلم (٢٢٣٤ / ١٣٧) .

(٢) البخارى (٧٦٣) ومسلم (٤٦٢/ ١٧٣) .

وقوله : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ يعني : الملائكة . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد . ولا خلاف هاهنا ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغيّ ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره . وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ : هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أى : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى : ذهب ضوؤها ، كقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢] . ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى : انفطرت وانشقت ، وتدلت أرجاؤها ، ووَهَت أطرافها . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى : ذُهب بها ، فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ـ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : جمعت . وقال ابن زيد : وهذه كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وقال مجاهد : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ : أجلت . ثم قال : ﴿ لأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : يقول تعالى : لأى يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها ؟ حتى تقوم الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨] . وهو يوم الفصل ، كما قال : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ . ثم قال تعالى معظما لشأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لهم من عذاب الله غدا .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ ؟ يعنى : من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ، ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ أى : ممن أشبههم ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداءة : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ؟ أى : ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرة البارى عز وجل ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعنى : جمعناه

فى الرّحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك ، حافظ لما أودع فيه من الماء. وقوله: ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعنى : إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ : كنّا. وقال مجاهد: يُكفتُ الميت فلا يُرَى منه شيء . وقال الشعبى: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. وكذا قال مجاهد وقتادة . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى : الجبال ، أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب . ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ : عذبا زُلالا من السحاب ، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار ، أنهم يقال لهم يوم القيامة : ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى : لَهَبَ النار إذا ارتفع وصَعِدَ معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ﴿ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب ، يعنى : ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أى: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود: كالحصون. وقال ابن عباس وقتادة، ومجاهد، وغيرهم: يعنى أصول الشجر. ﴿كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ (١) صُفْرٌ﴾ أى: كالإبل السود. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير : ﴿ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ يعنى: حبال السفن . وعنه ــ أعنى ابن عباس: ﴿ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ : قطع نحاس . وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس :﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، فنرفعه للشتاء (٢) ، فنسميه القَصَرَ ، ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ : حبال السفن ، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال (٣) ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

---

(١) « جمالات » : قراءة الجمهور ، وكذا هى قراءة الحافظ ابن كثير .
(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « للبناء » والمثبت من البخارى .
(٣) البخارى (٤٩٣٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُون ﴾ أى : لا يتكلمون ﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُون ﴾ أى : لا يقدرون على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذ . ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِين . فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون ﴾ : وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِين ﴾ يعنى : أنه جمعهم بقدرته فى صعيد واحد ، يُسمعُهم الداعى وينفُذهُم البصر . ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون ﴾ : تهديد شديد ووعيد أكيد، أى : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتى ، وتَنجُوا من حكمى فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَان ﴾ [الرحمن:٣٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ [هود:٥٧] ، وفى الحديث : « يا عبادى ، إنكم لن تَبلُغوا نَفْعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى » (١) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات : أنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون، أى: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه ، من ظل اليحموم ، وهو الدخان الأسود المنتن . ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم . ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِين ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ : خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمَرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً ﴾ أى: مدة قليلة قريبة قصيرة ، ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُون ﴾ أى : ثم تساقون إلى نار جهنم التى تقدم ذكرها ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظ ﴾ [لقمان:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:

(١) الترمذى (٢٥١٦) وقال : «حسن صحيح » .

٦٩، ٧٠] . وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُون ﴾ أى: إذا أمر هؤلاء الجهلة من [الكفار] (١) أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين ﴾. ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ أى: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأى كلام يؤمنون به ؟! كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُون ﴾ [الجاثية: ٦] .

(١) سقطت من المطبوعة ، وأثبتناها من المخطوطة .

تفسير سورة النبأ

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء ٣٠

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : **﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾** أى : عن أى شىء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى: الخبر الهائل المفظع الباهر. قال قتادة، وابن زيد: النبأ العظيم: البعث بعد الموت . وقال مجاهد: هو القرآن. والأظهر الأول لقوله: **﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾** يعنى: الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة: **﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾** ، وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد . ثم شرع تعالى يبيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: **﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾** ؟ أى : ممهدة للخلائق ذَلُولا لهم ، قارّةً ساكنة ثابتة ، **﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾** أى : جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : **﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾** يعني : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : **﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾** [الروم : ٢١].

وقوله : **﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾** أى : قَطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعى فى المعايش فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى سورة « الفرقان » (١) . **﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾** أى: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: **﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾** [الشمس:٤] ، وقال قتادة في قوله : **﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾** أى : سكناً . وقوله : **﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾** أى: جعلناه مشرقا مُنيراً مضيئاً ، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات،

(١) لعله يقصد الآية (٤٧) .

وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعنى : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعنى: الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ : الرياح . وكذا قال عكرمة، ومجاهد ، وقتادة: إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا، وأبو العالية ، والضحاك، والحسن . واختاره ابن جرير . والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ [الروم:٤٨] أى : من بينه. وقوله: ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال مجاهد، وقتادة ، والربيع بن أنس: ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا. وقال الثورى : متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيرا .قال ابن جرير: ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصب المتتابع . ومنه قول النبى ﷺ : « أفضلُ الحجّ العجّ والثجّ » (١) . يعنى: صَبّ دماء البُدْن. هكذا قال. قلت: وفى حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ: « أنعت لك الكُرسُفَ » ـ يعنى: أن تحتشى بالقطن : قالت: يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أثج ثجاً (٢) . وهذا فيه دَلالة على استعمال الثَّج فى الصَّبّ المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله: ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أى:لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبارَك ﴿حَبًّا﴾ يدخر للأناسى والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أى : خضراً يؤكل رطبا ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا ؛ ولهذا قال: ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ قال ابن عباس، وغيره : مجتمعة . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد:٤] .

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا (٢٢) لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا (٢٩) فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ﴾

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٥) .

(٢) المسند (٦ / ٤٣٩) وأبو داود (٢٨٧) والترمذى (١٢٨) وقال : « حسن صحيح » .

يخبر تعالى عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود:١٠٤] . ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قال مجاهد : زُمَراً زمراً . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء:٣١]. وقال البخارى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون ». قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيتُ » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت ».قال : « ثم يُنزلُ الله من السماء ماءَ فينبتُونَ كما ينبتُ البقلُ ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبلَى ، إلا عظماً واحدا ، وهو عَجْبُ الذنَب ، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة » (١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أى: طرقا ومسالك لنزول الملائكة، ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨] ، وكقوله : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]. وقال هاهنا: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أى: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تَذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف:٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أى : مرصدة مُعَدّة ، ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المَرَدة العصاة المخالفون للرسل، ﴿ مَآبًا ﴾ أى: مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونُزُلا. وقال الحسن، وقتادة فى قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعنى: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس . وقال سفيان الثورى : عليها ثلاث قناطر . وقوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى : ماكثين فيها أحقابا ، وهى جمع « حُقب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير قال على بن أبى طالب لهلال الهَجَرى : ما تجدونَ الحُقْبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة (٢) . وهكذا رُوِىَ عن أبى هُرَيرة، وعبد الله بن عَمرو، وابن عباس ، وسعيد بن جُبير ، وعَمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسّدى أيضا : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقبُ أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .وقال السّدى : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾: سبعمائة حُقب ، كل حُقب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون . وقد قال مقاتل ابن حيّان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ . وقال خالد بن مَعْدان: هذه الآية وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير.

---

(١) البخارى (٤٩٣٥).

(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٨) .

ثم قال : يحتمل أن يكون قوله : ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابا من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما قال قتادة والربيع بن أنس .

وقوله : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴾ أى : لا يجدون فى جَهَنَّم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيبا يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس . فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحُموه . والغَسَّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ، ولا يواجه من نتنه . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » (١) بما أغنى عن إعادته، أجارنا الله من ذلك، بمنه وكرمه . قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يعنى : النوم .

وقوله : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . ثم قال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أى:لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ، ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة . وقوله : ﴿ كِذَّابًا ﴾ أى : تكذيبا ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفَرّاءَ على المروة : الحلقُ أحبّ إليك أو القِصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى : وقد عَلِمنا أعمالَ العباد كلهم ، وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص:٥٨] . عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ قال ابن عباس والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا ، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس ؛ لأنه قال بعده:﴿ حَدَائِقَ ﴾ ، وهى البساتين من النخيل وغيرها ﴿ وَأَعْنَابًا. وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أى:حوراً كواعب. قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد : ﴿كَوَاعِبَ﴾ أى : نواهد ، يعنون أن ثُدُيَّهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب ، أى :

(١) راجع الآية (٥٧) .

فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى سورة « الواقعة » .

وقوله : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة. وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد ، والحسن وقتادة ، وابن زيد : ﴿ دِهَاقًا ﴾ : الملأى المترعة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : هى المتتابعة. وقوله : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] أى: ليس فيها كلام لاغ عَارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى :هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : «أعطانى فأحسبنى » أى : كفانى . ومنه « حسبى الله » ، أى : الله كافىّ .

﴿ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء . وقوله : ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ : اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا، ما هو ؟ على أقوال : أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم . الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا مما كان ابن عباس يكتمه . الثالث : أنهم خَلق من خلق الله ، على صُور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد، وأبو صالح والأعمش. الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى، وسعيد بن جبير، والضحاك. ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحى . والخامس: أنه القرآن. قاله ابن زيد، كقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى:٥٢] . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً . وتَوَقَّفَ ابنُ جرير فلم يقطَع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥] . وكما

ثبت فى الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل» (١). وقوله: ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى: حقا، ومن الحق: «لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح،وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجا يمر به عليه .

وقوله: ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى:يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا، لأن كل ما هو آت آت . ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف:٤٩] ، وكقوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة:١٣] . ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خُلِقَ،ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدى الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ،حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصّور المشهور (٢) .

---

(١) البخارى (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢ / ٢٩٩) .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام ،وكذلك تخريجه هناك .

تفسير سورة النازعات
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فتُغرق فى نزعها ، ومنهم مَن تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلَّته من نشاط ، وهو قوله : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هى أنفس الكفار ، تُنزَع ثم تُنشَط ، ثم تغرق فى النار . رواه ابن أبى حاتم . وقال مجاهد: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾: الموت. وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هى النجوم . وقال عَطَاءُ بنُ أبى رَبَاح فى قوله : ﴿وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ النَّاشِطَاتِ ﴾ : هى القسىّ فى القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله: ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾، فقال ابن مسعود : هى الملائكة . ورُوى عن على ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَير مثلُ ذلك . وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هى النجوم. وقال عطاء بن أبى رباح : هى السفن . وقوله : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾: رُوى عن على ، ومسروق، ومجاهد: يعنى الملائكة؛ قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء : هى الخيل فى سبيل الله . وقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال على ، ومجاهد ، وعطاء: هى الملائكة ، زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض. يعنى: بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى ﴿ الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية.

وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ،وغير واحد . وعن مجاهد : أما الأولى ـ وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ـ فكقوله جلت عظمته : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمل: ١٤] ، والثانية ـ وهى الرادفة ـ فهى كقوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] . وقد روى الإمام أحمد عن أبى بن كعب، قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : «إذاً يكفيك الله ما أهمَّك من دنياك وآخرتك ». وقد رواه الترمذى ، وابن جرير، ولفظ الترمذى: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (١).

وقوله: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال ابن عباس: يعنى خائفة. وكذا قال مجاهد ، وقتادة . ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أى: أبصار أصحابها. وإنما أضيف إليها؛ للملابسة، أى: ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال . وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد. وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ؛ ولهذا قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ ؟ وقرئ : « ناخرة ». وقال ابن عباس،ومجاهد،وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودَخَلت الريح فيه ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير: الحافرة : الحياة بعد الموت. وقال ابن زيد : الحافرة : النار. وما أكثر أسماءها ! هى النار، والجحيم ،وسقر ،وجهنم، والهاوية ، والحافرة، ولظى، والحُطَمة . وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب: قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ فى الصور نفخَة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يَدَى الربّ عز وجل ينظرون، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧]. قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة . وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وقتادة . وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ : وجه الأرض . وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و﴿ السَّاهِرَةِ ﴾ :

---

(١) المسند (٥ / ١٣٦) والترمذى (٢٤٥٧) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢١) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

المكان المستوى . وقال الربيع بن أنس : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ [إبراهيم:٤٨] ، ويقول : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا . فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ [طه:١٠٥، ١٠٦] . وقال : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ [الكهف: ٤٧] : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يهراق عليها دم .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال فى آخر القصة: ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

فقوله : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ ؟ أى: هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إذ ناداه ربه ﴾ أى : كلمه نداء، ﴿ بالواد المقدس ﴾ أى : المطهر ، ﴿ طوى ﴾ : وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم فى سورة «طه» . فقال له : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أى : تجبر وتمرد وعتا ، ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ ؟ أى : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكّى به ، أى : تسلم وتطيع. ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أى : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فتخشى ﴾ أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشياً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ يعنى : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قويةً، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، ﴿ فكذب وعصى ﴾ أى: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصلُه أنه كفرَ قلبُه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمُهُ بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علمُ القلب ، والإيمان عمله ،وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعُهُ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فحشر فنادى ﴾ أى : فى قومه ، ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ، ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ [هود : ٩٩] ، كما قال تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ [القصص:٤١] . هذا هو الصحيح

فى معنى الآية، أن المراد بقوله : ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ أى : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لا شك فيه الأول . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى : لمن يتعظ وينزجر .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَأَنتُمْ ﴾: أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ؟ يعنى: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١] ، فقوله: ﴿ بَنَاهَا ﴾، فسره بقوله: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أى: جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء. وقوله: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أى: جعل ليلها مظلماً أسود حالكا، ونهارها مضيئا مشرقا نيرا واضحا . قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير، وجماعة كثيرون . ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى: أنار نهارها . وقوله : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسره بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾. وقد تقدم فى سورة « حم السجدة »(1) أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أى: قررها وأثبتها وأكّدها فى أماكنها، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ،وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدةَ احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

(١) عند الآية (٩) . وهى سورة فصلت .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تَطُم على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦] . ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ أى: حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر:٢٣] . ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أى : أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا ، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أى: تَمرّد وعتا ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى: قدمها على أمر دينه وأخراه، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ أى: فإن مصيرَه إلى الجحيم ،وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أى : خاف القيام بين يدى الله عز وجل ، وخاف حُكْمَ الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها، وردَّها إلى طاعة مولاها ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أى : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَردها ومَرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ . ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ،اتبعك فأفلح وأنجح ،والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى:إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا ،حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم . قال جُوَيبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾، أما ﴿عَشِيَّةً ﴾: فما بين الظهر إلى غروب الشمس ،﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

---

(١) جزء من حديث طويل ، رواه مسلم (٨ / ١) .

تفسير سورة عبس
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ ربع

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمع فى إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديما ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه ، ووَدّ النبى ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة فى هدايته . وعَبَس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ؟ أى : يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ ؟ أى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة. ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت: أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فى ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت: فجعل النبى ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ ». فيقول: لا. ففى هذا أنزلت: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾. وقد روى الترمذى مثله (١) .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ،

---

(١) أبو يعلى فى المسند (٥ / ٤٣١) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٣٢) والترمذى (٣٣٣١) ، وصححه الألبانى .

ويقال: عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم . وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى: القرآن، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ أى: هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿مُطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص . وقوله : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء . وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال: السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير . وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفرت : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكةُ إذا نَزَلت بوَحْى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم (١) .

وقوله: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرَة الكرام البَرَرَة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » . أخرجه الجماعة (٢) .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ،بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم . قال ابن جريج :

---

(١) البخارى (٨ / ٦٩١ فتح) .

(٢) المسند (٦ / ٤٨) والبخارى (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨ / ٢٤٤) وأبو داود (١٤٥٤) والترمذى (٢٩٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٤٧) وابن ماجه (٣٧٧٩) .

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شيء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقال قتادة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خَلَقه الله من الشيء الحقير ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَه ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه ﴾ قال ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] أى : بَيَّناه وأوضحناه وسَهلنا عليه عمله، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد . وهذا هو الأرجح، والله أعلم.

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرتُ الرجل » : إذا ولى ذلك منه ، وأقبره الله . وعَضبتُ قرن الثور ، وأعضبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله. وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا (١) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة:٢٥٩]. وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «يأكل الترابُ كلَّ شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنَبه ». قيل: وما هو يا رسول الله ؟ قال : «مثل حبة خردل منه ينشؤون ». وهذا الحديث ثابت فى الصحيح عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب ، منه خلق وفيه يُركَّب » (٢) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر بقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يُؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل . ثم روى ـ هو وابن أبى حاتم ـ عن مجاهد قوله: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افتُرض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كَلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ، ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَه ﴾ أى : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة، ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى له أن سيُوجَدُ منهم، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا ، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِه ﴾ فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا، ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾

---

(١) « ننشرها » : بالراء ، وقد تقدم بيان ذلك فى سورة البقرة .

(٢) البخارى (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥ / ١٤١) .

أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكناه فيها فَدَخل فى تُخُومها وتَخلَّل فى أجزاء الحب المودَع فيها ،فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفصْفصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها: القَتّ أيضا .قال ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك، والسدى . وقال الحسن البصرى : القضب: العلف . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو أدمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتمرا ، ونيئا ، ومطبوخا ،ويعتصر منه رُبٌّ وخل. ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: بساتين . قال الحسن، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾:نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : «الحدائق» : كل ما التف واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ غُلْبًا ﴾: الشجر الذى يستظل به. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس :﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: طوال . وقال عكرمة : ﴿ غُلْبًا﴾ أى : غلاظ الأوساط. وفى رواية : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة: كل ما أكل رطبا . والأبّ : ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ـ وفى رواية عنه: هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلأ . وعن مجاهد، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل نبت على وجه الأرض فهو أبٌّ . وقال الضحاك : كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌّ. وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام . وقال ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وعن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، فلما أتي على هذه الآية: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال: لعمرك يا بن الخطاب إن هذا لهو التكلف . فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحَذّره عباده. قال ابن جرير : لعله اسم النفخة فى الصور . وقال البَغَوىّ : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة؛

سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه، أىّ بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبيها لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقولُ له : يا بنى ، إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ . وفى الحديث الصحيح ـ فى أمر الشفاعة : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليومَ إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (١). قال قتادة : الأحب فالأحبَ ، والأقرب فالأقربَ ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى : هو فى شُغُل شاغل عن غيره . روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أوَ يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ». أو قال: «ما أشغله عن النظر». وعن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: « تُحشَرون حُفاة عُراة غُرْلاً ». فقالت امرأة : أيبصر ـ أو : يرى ـ بعضنا عورة بعض ؟ قال: « يا فلانة ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ». ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح (٢). وروى النسائى عن عائشة ،أن رسول الله ﷺ قال:« يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا » . فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات ؟ فقال: « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٣). انفرد به النسائى .

وقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى: يكون الناس هنالك فريقين: وجوه مسفرة، أى: مستنيرة، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى: مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة. ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها قترة، أى: سواد. وقال ابن عباس: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى: الكفرة قلوبهم، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧].

---

(١) مضت أحاديث الشفاعة عند تفسير أول سورة الإسراء . فانظرها .

(٢) الترمذى (٣٣٣٢) . (٣) النسائى (٢٠٨٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة التكوير
وهى مكية

روى الإمام أحمد :عن ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ: « من سرَّه أن ينظر إلىّ يوم القيامة كأنه رأىُ عين فليقرأ :﴿ إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و﴿ إذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ ﴾ ، و﴿ إذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ » . وهكذا رواه الترمذى [(١)] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾

قال ابن عباس :﴿ إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يعنى: أظلمت وعنه : ذهبت ، وقال مجاهد : اضمحلّت وذَهَب . وكذا قال الضحاك. وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتْ ﴾: غُوِّرت. وقال الربيع بن خُثَيم: ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ يعنى : رمى بها .وقال زيد بن أسلم : تقع فى الأرض . قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا فى ذلك أن التكوير جَمعُ الشىء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرَتْ﴾: جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . روى عن البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » . انفرد به البخارى [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى: انتثرت ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢] ، وأصل الانكدار : الانصباب .قال أبى بن كعب : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا بعضهم فى بعض :

---

(١) المسند (٤٨٠٦)والترمذى (٣٣٣٣) وقال : « حديث حسن غريب » ، وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٢٠٠) .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال : اختلطت ، ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجَّجُ ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. رواه ابن جرير [(١)] وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثَيم، والحسن البصرى، وأبو صالح، وحماد بن أبى سليمان ، والضحاك فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أى : تناثرت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أى : زالت عن أماكنها ونُسفت، فتركت الأرض قاعا صفصفا . وقوله :﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال عكرمة ، ومجاهد: عشار الإبل .قال مجاهد : ﴿عُطِّلَتْ ﴾: تركت وسُيِّبت .وقال أبى بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها : وقال الربيع ابن خُثَيم: لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها .وقال الضحاك : تركت لا راعى لها .والمعنى فى هذا كله متقارب . والمقصود: أن العشار من الإبل ـ وهى : خيارها والحوامل منها التى قد وَصَلت فى حملها إلى الشهر العاشر ، واحدها: عُشَراء ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع ـ قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شىء فيها ، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها . وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل فى العشار: إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . وقيل : إنها الأرض التى تُعشَّر . وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن تُعَطَّل لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام القرطبى ، ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أى : جمعت . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام:٣٨]. قال ابن عباس : يحشر كل شىء حتى الذباب. رواه ابن أبى حاتم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم والسّدىّ ، وغير واحد. وكذا قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضى الله فيها ما يشاء .وقال عكرمة: حشرها : موتها . وقد تقدم عن أبىّ بن كعب أنه قال : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾: اختلطت .قال ابن جرير: والأولى قولُ من قال : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ : جُمعت ، قال الله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص:١٩]، أى: مجموعة .

وقوله :﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال على لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال: البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور:٦] ، ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ .وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدّبور فتسعرها ، وتصير ناراً تأجج ، وقد تقدم الكلام

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٤١/٣٠) .

على ذلك عند قوله : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ . وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : ﴿ سُجِّرَت ﴾ : أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا :﴿ سُجِّرَت ﴾ فجرت. وقال السدى: فتحت وسيرت . وقال الربيع ابن خُثَيم: ﴿ سُجِّرَت ﴾ : فاضت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢] .وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة . وقال مجاهد : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم والحسن، وقتادة. واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح .

وقوله: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾، هكذا قراءة الجمهور:﴿ سُئِلَت ﴾. والموؤودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموؤودة على أى ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟! وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَت ﴾ أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى : « سألت » أى : طلبت بدمها. وعن السدى، وقتادة ، مثله . وقد وردت أحاديث تتعلق بالموؤودة ، فروى الإمام أحمد عن عائشة، عن جُدَامة [(١)] بنت وهب ـ أخت عكاشة ـ قالت : حضرتُ رسولَ الله ﷺ فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلَة ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغيلُونَ أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا ». ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله ﷺ: « ذلك الوأد الخفى ، وهو الموؤودة سئلت » . ورواه مسلم ورواه أيضا ابن ماجه، وأبو داود والترمذى، والنسائى[(٢)]. وروى أحمد عن حسناء [(٣)] ابنة معاوية الصُّرَيمية ، عن عمها قال : قلت: يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال: « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والموؤودة فى الجنة » [(٤)] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ : قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة : صحيفتك يا بن آدم ، تُملى فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ قال مجاهد: اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت. قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ قال

---

(١) فى المطبوعة : « جذامة » بالذال ، وهى خطأ .

(٢) المسند (٦/ ٤٣٤) ومسلم (١٤٤٢ / ١٤٠) ،وابن ماجه (٢٠١١) وأبو داود (٣٨٨٢) والترمذى (٢٠٧٧) والنسائى (٦/ ١٠٦).

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .

(٤) المسند (٥/ ٥٨) والحديث رواه أبو داود (٢٥٢١) ، وصححه الألبانى .

الضحاك، وأبو مالك ، وقتادة ، والربيع بن خُثَيم أي: قربت إلى أهلها . وقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ : هذا هو الجواب ، أي : إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

روى مسلم ، والنسائي عن عمرو بن حُرَيث قال : صليت خلف النبي ﷺ الصبح ، فسمعته يقرأ : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) . وعن علي: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ قال : هي النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل . وكذا رُوي عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسّدي ، وغيرهم : أنها النجوم . وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : « الخنس »، أي : في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها ، وفي حال غيبوبتها يقال لها: « كُنَّس » من قول العرب: أوى الظبي إلى كنَاسة: إذا تغيب فيه. وقال عبد الله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ قال: بقر الوحش . وكذا قال سعيد بن جبير . وقال العوفي، عن ابن عباس : هي الظباء . وكذا قال سعيد أيضا ، ومجاهد ، والضحاك . وتوقف ابن جرير في قوله : ﴿ الْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، هل هو النجوم ، أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : إقباله بظلامه . قال مجاهد : أظلم. وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وقال الحسن البصري : إذا غَشى الناس . وقال ابن عباس : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : إذا أدبر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أي : إذا ذهب فتولى . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ : إذا أدبر . قال لقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي : أضاء . وعندي أن المراد بقوله: ﴿ عَسْعَسَ ﴾: إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال :

---

(١) مسلم (٤٥٦/ ١٦٤) والنسائي في الكبرى (١١٦٥١) .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١ ، ٢] ، وقال: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ﴾ [الأنعام: ٩٦] ، وغير ذلك من الآيات . وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة « عسعس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وهو المروى عن على .وقال ابن جرير : يعنى : وَضَوءُ النهار إذا أقبل وتَبَيَّن . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : إن هذا القرآن لتبليغُ رسول كريم ، أى : ملك شريف حَسَن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل ، عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم . ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ كقوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ [فَاسْتَوَىٰ]﴾ [النجم: ٥ ، ٦] ، أى : شديد الخَلْق ، شديد البطش والفعل ، ﴿ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أى : له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة . قال أبو صالح فى قوله : ﴿ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ قال : جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من نور بغير إذن ، ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى : له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع فى الملأ الأعلى. قال قتادة: ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى : فى السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف، مُعتَنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله :﴿ أَمِينٍ ﴾ : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ . قال الشعبى ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله :﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة فى قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ٥ ــ ١٠] ، كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريره والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل ، عليه السلام . والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٣ ــ ١٦]، فتلك إنما ذكرت فى سورة « النجم»، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عُيَينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيبا ، فأنزله الله على محمد ، فما ضَنّ به على

الناس ، بل بَلَّغه ونشره وبذله لكل من أراده . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد،وغير واحد. واختار ابنُ جرير قراءة الضاد .قلت: وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حمله ، ولا يريده، ولا ينبغى له . كما قال : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢] . وقوله :﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ؟ أى: فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقا من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يُذهَب بعقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ ، أى : من إله .وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أى : عن كتاب الله وعن طاعته . وقوله :﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أى : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاةٌ له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .

تفسير سورة الانفطار
وهى مكية

روى النسائى عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبى ﷺ : «أفتان يا معاذ ؟! أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت ؟! ». وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين (١) ، ولكن ذكرُ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ من أفراد النسائى. وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من سرَّه أن يَنْظُرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى :﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ أى : انشقت ، كما قال :﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل: ١٨] . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أى : تساقطت. ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها فى بعض. وقال الحسن: فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة: اختلط مالحها بعذبها. ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : بُحِثَت. وقال السدى: تُبَعثر: تُحرّك فيخرج من فيها . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أى : إذا كان هذا حَصَل هذا .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا بن آدم بربك الكريم ـ أى : العظيم ـ حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟ ». عن ابن عمر ـ وقرأ هذه الآية :﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ قال : غره ـ والله ـ جهله . ورُوى عن ابن عباس ، والحسن مثلُ ذلك . وقال قتادة: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : شىءٌ ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال

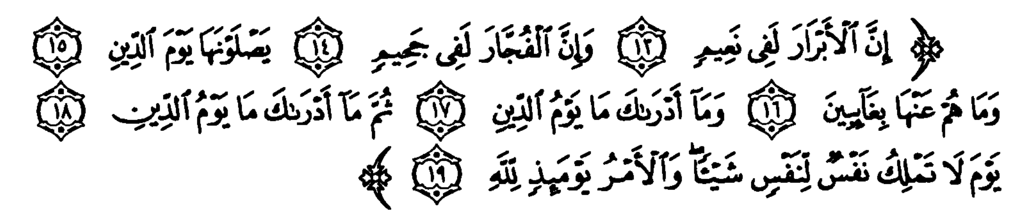
(١) النسائى فى الكبرى (١١٦٥٢) والبخارى (٧٠٠ ، ٧١١) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .
(٢) مضى تخريجه فى أول سورة التكوير .

الفضيل بن عياض : لو قال لى: « ما غرك بى »، لقلت : ستُورك المُرخاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم.

وقوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى: ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أى: جعلك سَوِّيا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال . روى الإمام أحمد عن بُسْر [(١)] بن جحَّاش القرشى: أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سَوَّيتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئيدٌ ، فجَمَعت ومَنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدقُ ، وأنَّى أوانُ الصدقة » .وكذا رواه ابن ماجه [(٢)].

وقوله: ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾: قال مجاهد : فى أى شَبَه أب أو أم أو خال أو عم ؟ وفى الصحيحين عن أبى هُرَيرة أن رَجُلاً قال: يا رسول الله ، إن امرأتى وَلَدت غُلاماً أسودَ ؟. قال : «هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حُمر. قال: « فهل فيها من أورَق ؟ » قال: نعم. قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نَزَعة عرْق . قال : «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق » [(٣)] . وقد قال عكرمة فى قوله : ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير .قال قتادة : ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾، قال : قادر ـ والله ـ ربنا على ذلك.ومعنى هذا القول عند هؤلاء: أن الله، عز وجل، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ،حَسَن المنظر والهيئة. وقوله تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكةً حَفَظَة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .


﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « بشر » والمثبت كما فى المسند وابن ماجه . وكلاهما صحيح. انظر المغنى فى ضبط أسماء الرجال لمحمد طاهر الهندى (ص ٣٨ ط . دار الكتاب العربى) .

(٢) المسند (٤/ ٢١٠) وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٥٣٠٥) ومسلم (١٥٠٠ / ١٨) .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ،ولم يقابلوه بالمعاصى. ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم؛ولهذا قال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى: يوم الحساب والجزاء والقيامة ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أى : لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله: ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله :﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ أى: لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خَلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ونذكر هاهنا حديث: « يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا » (١) . ولهذا قال : ﴿ وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، كقوله: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وكقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان:٢٦] ، وكقوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] . قال قتادة : ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ، والأمر ـ والله ـ اليوم لله ، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

---

(١) مسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) .

تفسير سورة المطففين
وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾

روى النسائى وابن ماجه عن ابن عباس قال : لما قدم نبى الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فحسَّنوا الكيلَ بعد ذلك (١) . فالمراد بالتطفيف هاهنا : البَخْس فى المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضَاهم. ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخَسَار والهَلاَك وهو الويل، بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أى: من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوافى والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون .والأحسن أن يجعل « كالوا » و«وزنوا» متعديا، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله : « كالوا » و«وزنوا »، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

وقد أمر الله ـ تعالى ـ بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودَمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان . ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَى من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غُرلاً ، فى موقف صعب حَرِج ضيق ضَنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله ما تَعْجزُ القوى والحواس عنه. عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » . رواه البخارى ومسلم (٢).

---

(١) النسائى فى الكبرى (١١٦٥٤) وابن ماجه (٢٢٢٣) ،وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٢٨٦٢ ، ٦٥٣١) ومسلم (٢٨٦٢/ ٦٠)

ولفظ الإمام أحمد عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ : لعظَمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرقَ ليُلجِمُ الرجالَ إلى أنصاف آذانهم» (١) .

وروى الإمام أحمد : عن المقداد ـ يعنى ابن الأسود الكندى ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا كان يومُ القيامة أدنيَت الشمس من العباد ، حتى تكون قيدَ ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون فى العَرق كقَدْر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عَقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ،ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه ، ومنهم من يلجمه إلجاما ».رواه مسلم والترمذى (٢) . روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عَقبيه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العَجُز ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ـ ومنهم من يغطيه عرقه». وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٣).

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هُرَيرة مرفوعا: «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) . وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول : « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة (٥) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى: حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين ـ

---

(١) المسند (٤٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣١٦) ومسلم (٢٨٦٤ / ٦٢) والترمذى (٢٤٢١) .

(٣) المسند (١٥٧/٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٣٨/١٠) : « رواه أحمد والطبرانى وإسناد الطبرانى جيد » .

(٤) مسلم (٩٨٧ / ٢٤) .

(٥) أبو داود (٧٦٦) والنسائى (١٦١٧) وابن ماجه (١٣٥٦) وصححه الألبانى .

فعيل من السَّجن ، وهو الضيق ـ كما يقال : فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير ، ونحو ذلك .
ولهذا عظم أمره فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ؟ أى : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم وعذاب أليم . والصحيح أن «سجينا » مأخوذ من السَّجن ، وهو الضيق ، فإذا المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذى دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التى دونها ،حتى ينتهى السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز فى وسط الأرض السابعة . ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهى أسفل السافلين، كما قال تعالى :﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين:٥] قال هاهنا :﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان:١٣] .

وقوله :﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيرا لقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أى : مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد ؛ قاله محمد بن كعب القرظى. ثم قال:﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السِّجن والعذاب المهين. وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿ وَيْلٌ ﴾ بما أغنى عن إعادته ، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان .وكما جاء فى المسند والسنن من رواية بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة ، عن أبيه ، عن جده قال :قال رسول الله ﷺ : « ويل للذى يُحدِّث فيكذب ، ليضحكَ الناس ، ويل له ، ويل له » (١) .
ثم قال تعالى مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى: لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره . قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : معتد فى أفعاله ؛ من تعاطى الحرام والمجاوزة فى تناول المباح ، والأثيم فى أقواله : إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

وقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أى : إذا سمع كلام الله من الرسول يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ [النحل:٢٤] ، وقال :﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان:٥] ، قال الله تعالى:﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّين الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. والرين يعترى قلوبَ الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين . وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب منها صُقِل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله :

(١) المسند (٥/٥ ، ٧) وأبو داود (٤٩٩٠) والترمذى (٢٣١٥) ، وصححه الألبانى .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » . وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائى : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكت فى قلبه نكتة، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فهو الران الذى قال الله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ » (١).

وروى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذى ذكر الله فى القرآن : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٢) . وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أى : لهم يوم القيامة مَنزلٌ ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .قال الإمام الشافعى : فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ. وهذا الذى قاله الإمام الشافعى ، رحمه الله، فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل فى الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار فى عَرَصات القيامة ، وفى روضات الجنات الفاخرة . قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ،والتصغير والتحقير.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين. قال غير واحد : إنها السماء السابعة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ يعنى : الجنة . وفى رواية عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك. وقال قتادة : عليون: ساق العرش اليمنى. وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى. والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشىء وارتفع عظم

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٦٢ ، ٦٣) والترمذى (٣٣١٥) والنسائى (١١٦٥٨ / ١) وابن ماجه (٤٢٤٤) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٧٩٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

واتسع ؛ ولهذا قال معظما أمره ومفخما شأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ .

ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة. وقال العوفى ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم، ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ وهى : السرر تحت الحجَال، ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبيد . وقيل: معناه : ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الله عز وجل . وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم.

وقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدَّعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ أى :يسقون من خمر من الجنة. والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ،والحسن ، وقتادة ، وابن زيد .وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : خلطه مسك . وقال ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ، خُتِم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك .وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أى : عاقبته مسك . وقال مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : طيبه مسك . وقوله: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى : وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات:٦١] . وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك؛ ولهذا قال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى: يشربها المقربون صِرفاً، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجاً . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ؛ أى : محتقرين لهم ، ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَاكِهِينَ (١) ﴾ أى: إذا انقلب، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى

(١) « فاكهين » : قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٨ـ١١١] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ،ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته. وقوله: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُون ﴾ ؟ أى: هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

تفسير سورة الانشقاق
وهى مكية

عن أبى هريرة أنه قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائى [(١)] . وروى البخارى عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هُرَيرة العتمة فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد ،فقلت له ، فقال : سجدتُ خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى[(٢)].
وقد روى مسلم وأهل السنن عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [(٣)] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥ ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى : وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذى لا يُمانَع ولا يغالب ،بل قد قهر كل شىء وذل له كلّ شىء . ثم قال : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى : بُسطت وفرشت وَوُسِّعَت . روى ابن جرير عن على بن الحسين : أن النبى ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة مَدَّ الله الأرض مَدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه، فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلى؟ فيقول الله عز وجل: صدق. ثم أشفع فأقول: يا رب،

(١) مسلم (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٦٠) .
(٢) البخارى (٧٦٦ ، ٧٦٨) ومسلم (٥٧٨ / ١٠٧) وأبو داود (١٤٠٨) والنسائى (٩٦٢) .
(٣) مسلم (٥٧٨ / ١٠٨) وأبو داود (١٤٠٧) والترمذى (٥٧٣) .

عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود » [١] .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى : ألقت ما فى بطنها من الأموات ، وتخلت منهم . قاله مجاهد ، وسعيد ، وقتادة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ كما تقدم .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أى : ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ، ﴿ فَمُلاقِيهِ ﴾ ، ثم إنك ستلقى ما عملتَ من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسى ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه،واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » [٢] . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول : تعمل عملا تلقى الله به ، خيرا كان أو شرا . وقال قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ : إن كدحك ـ يا ابن آدم ـ لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله . ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا بلا تعسير ، أى: لا يحقق عليه جَميعُ دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «من نُوقش الحساب عُذِّب ». قالت: فقلت: أليس قال الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟، قال : « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العَرْض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » . وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير [٣]. وروى ابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقِش الحساب عُذب » ، وقال بيده على إصبعه كأنه يَنكُتُ . أخرجاه [٤] . وروى أحمد عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقِش الحسابَ يا عائشةُ يومئذ هَلَكَ » . صحيح على شرط مسلم [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ،

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٧٢) . ورواه الحاكم فى المستدرك (٥ / ٥٧٠) عن جابر بنحوه، ثم قال : « صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٢) الطيالسى فى المسند (١٧٥٥) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢ / ٢٥٥ ، ٢٥٦) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زاخر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر » .

(٣) المسند (٦/ ٤٧) والبخارى (٤٩٣٩) ومسلم (٢٨٧٦ / ٧٩) والترمذى (٣٣٣٧) وابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٧٤).

(٤) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٧٤) والبخارى ومسلم السابقان .

(٥) المسند (٦ / ٤٨) .

والضحاك ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أي : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي : بشماله من وراء ظهره ، تُثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ أي: خسارا وهلاكا ، ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي: فرحا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والحَوْرُ : هو الرجوع . قال الله : ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعني : بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإنه ﴿ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ أي : عليما خبيرا .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾

سجدة

رُوى عن على، وابن عباس، وعُبادة بن الصامت ، وأبى هُرَيرة ، وشداد بن أوس ، وابن عمر ، وغيرهم أنهم قالوا : الشفق : الحمرة . فالشفق هو : حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ـ كما قاله مجاهد ـ وإما بعد غروبها ـ كما هو معروف عند أهل اللغة .قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق . وقال الجوهرى : الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتُها فى أول الليل إلى قريب من العَتَمَة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذى يكون بين المغرب والعشاء. وفى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وقت المغرب ما لم يغب الشفق » (١) .

ففى هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهرى والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾: هو النهار كله. وفى رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق : الشمس . رواهما ابن أبى حاتم . وإنما حمله على هذا قَرْنُهُ بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى: جمع. كأنه أقسم بالضياء والظلام . وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلا . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد. قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ،وقتادة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة .واستشهد ابن عباس بقول الشاعر :

مُستَوسقات لو تَجِدْنَ سَائقا

(١) مسلم (٦١٢ / ١٧٣) .

قد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وأبو صالح ،والضحاك ،وابن زيد : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾: إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ،إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلا لليل وما وسق . وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ روى البخارى عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال ، قال هذا نبيكم ﷺ . هكذا رواه البخارى بهذا اللفظ (١) ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبى ﷺ ، كأنه قال:سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله : « نبيكم » مرفوعا على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر، والله أعلم ، كما قال أنس: لا يأتى عام إلا والذى بعده شرٌّ منه ، سمعته من نبيكم ﷺ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومُرَة الطَّيِّب ، ومجاهد ، والحسن، والضحاك .

ويحتمل أن يكون المراد : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : حالا بعد حال . قال : هذا ، يعنى المراد بهذا نبيكم ﷺ ، فيكون مرفوعا على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبرا ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ،كما قال أبو داود الطيالسى وغُنْدَر : حدثنا شعبة، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعنى قراءةُ عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : « لَتَرْكَبَنّ» بفتح التاء والباء . روى ابن أبى حاتم عن الشعبى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : لتركَبن يا محمد سماء بعد سماء. وهكذا رُوى عن ابن مسعود، ومسروق، وأبى العالية : ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : سماء بعد سماء . قلت : يعنون ليلة الإسراء .

وقال السدى نفسُه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ : أعمال من قبلكم منزلا بعد منزل . قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم، حَذْو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه ». قالوا: يا رسول الله،اليهود والنصارى؟ قال: « فمن؟ » (٢) . وهذا محتمل . وقال عبد الله [ابن مسعود] : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : السماء تنشق ثم تحمر ، ثم تكون لونا بعد لون . وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال : قوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا فى الآخرة ، وآخرون كانوا أشرافا فى الدنيا ،فاتضعوا فى الآخرة . وقال عكرمة :﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾:حالا بعد حال ، فطيماً بعد ما كان رضيعاً ، وشيخاً بعد ما كان شاباً . وقال الحسن البصرى: ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى، وصحة بعد سقم ، وسَقَما بعد صحة .

---

(١) البخارى (٤٩٤٠) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٣٤) من سورة التوبة .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنّ أنت ـ يا محمد ـ حالا بعد حال وأمراً بعد أمر من الشّدَائد. والمراد بذلك ـ وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوَجَّها ـ جَميعَ الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴾ أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه ـ وهو هذا القرآن ـ لا يسجدون إعظاما وإكراماً واحتراما ؟ وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : يكتمون فى صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: فأخبرهم ـ يا محمد ـ بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابا أليما .

وقوله: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، يعنى: لكن الذين آمنوا، أى : بقلوبهم ،وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص . وقال مجاهد ، والضحاك : غير محسوب . وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨] . وقال السدى : قال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص . وقال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عليهم . هذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة فى كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائما سرمداً، والحمد لله وحده أبدا ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]

تفسير سورة البروج
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهى : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] . قال ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة: البروج: النجوم. وعن مجاهد أيضا: البروج التى فيها الحرس . وقال يحيى ابن رافع: البروج : قصور فى السماء . وقال المِنْهَال بن عمرو : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ : الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر ، وهى اثنا عشر برجا ، تسير الشمس فى كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر فى كل واحد يومين وثلثا ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ويستسر ليلتين .

وقوله: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ :اختلف المفسرون فى ذلك . وروى أحمد عن أبى هريرة أنه قال فى هذه الآية : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة [١]. وقد رُوى عن أبى هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون فى ذلك ، ولله الحمد . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة . وعن عكرمة أيضا : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال: الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد: يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة . وبه عن سفيان ـ هو الثورى ـ عن مغيرة، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة،

---

(١) المسند (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩) .

يعنى الشاهد والمشهود. وعن سعيد بن جبير: الشاهد : الله، وتلا ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩] ، والمشهود : نحن . حكاه البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة .

وقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه : أخاديد ، وهى الحفير فى الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ، عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدُوداً وأججوا فيه نار،وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قَدّر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدى الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم . فعن على:أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه : أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدُّوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها . وعنه: أنهم كانوا من أهل الحبشة ، ونبيهم حَبَشِىٌّ . وقال ابن عباس : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ قال : ناس من بنى إسرائيل ، خَدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعُرِضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه . وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم ، وقيل غير ذلك .

وقد روى الإمام أحمد عن صُهَيب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبرت سِنِّى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر . قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر

الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أىْ بُنَى ، أنت أفضل منى ، وإنك ستُبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمى ، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما ههنا أجمعُ . فقال: ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك؟ فقال : ربى ؟ فقال: أنا ؟ قال : لا ، ربى وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أىْ بُنَى ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال: ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل. قال: أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه أيضا بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ،وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال : إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فَدَهدهوه، فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال: كفانيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرقُور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه فى البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى. قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال: « بسم الله رب الغلام». فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس : آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد ـ والله ـ نزل بك ، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فَخُدّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران ، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه ، فإنك على الحق » وهكذا رواه مسلم والنسائى (١) .

وقد جَوّده الإمام أبو عيسى الترمذى عن صُهَيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر

(١) المسند (٦ / ١٦) ومسلم (٥ ٣٠٠ / ٧٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٦١) .

هَمَس ـ والهَمس فى قول بعضهم : تحريك شفتيه كأنه يتكلم ـ فقيل له: إنك ـ يا رسول الله ـ إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أُعجِب بأمته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النقمة ، فسلَّط عليهم الموت ، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حدّث بهذا الحديث ، حدّث بهذا الحديث الآخر قال : كان مَلك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له، فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فَهما ـ أو قال: فطناً لَقناً ـ فأعلّمه علمى هذا . فذكر القصة بتمامها ،وقال فى آخره:« يقول الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ » حتى بلغ : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدغه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب [(١)] . وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ. قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزّى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيب الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد ابن إسحاق بن يَسَار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر،فيها مخالفة لما تقدم فقال: حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظى ـ وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هى القرية العظمى التى إليها جمَاعُ أهل تلك البلاد ـ ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فَيمُون ـ ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه، قالوا : رجل نزلها ـ ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده،وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له:يا ابن أخى، إنك لن تحمله؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدْح، وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدْحا قدْحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدْحه ، فوثب القدْح حتى خرج منها لم يضره شيء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ،

(١) الترمذى (٣٣٤٠) ، وصححه الألبانى .

أتوحدُ الله وتدخلُ فى دينى وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيَشفَى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له: أفسدت علىّ أهل قريتى، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأُمثلنّ بك . قال: لا تقدر على ذلك . قال: فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فَيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بُحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك ــ والله ــ لا تقدر على قتلى حتى تُوَحّدَ الله فَتُؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سُلّطتَ علىّ فقتلتنى. قال: فوحّدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله ابن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ـ وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، من الإنجيل وحُكمه ـ ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أىّ ذلك كان. قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخدّ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفا ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز وجل، على رسوله ﷺ: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (١) .

هكذا ذكر ابن إسحاق فى السيرة أن الذى قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه : زرعة ، ويسمَّى فى زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن تِبَان أسعد أبى كَرِب ، وهو تُبَّع الذى غزا المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تَهَوّد من تَهَوّد من أهل اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مَبسوطاً ، فقتل ذو نواس فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفا ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثَعلبان ، ذهب فارسا ، وطَرَدُوا وراءه فلم يُقدَر عليه، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرياط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدى اليهود، وذهب ذو نواس هارباً فَلَجَّج فى البحر، فغرق . واستمر مُلْكُ الحبشة فى أيدى النصارى سبعين سنة ، ثم استنقذه سيف بن ذى يزن الحميرى من أيدى النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك الفرس ، فأرسل معه من فى السجون ، وكانوا قريباً من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن، ورجع الملك إلى حمير. وسنذكر طرفاً من ذلك ـ إن شاء الله ـ فى تفسير سورة : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ**

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ /٤٨ ـ ٥٠) .

رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حُدِّث: أن رجلاً من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ، حَفَر خَرِبَة من خَرِب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْن فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة فى رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها ثَعبتْ دما ، وإذا أرسلت يده رُدّت عليها ، فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه : ربى الله .

فكُتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدّفن الذى كان عليه . ففعلوا [1] .

وقد قال أبو بكر بن أبى الدنيا عن بعض أهل العلم : إن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطا من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلاً صالحاً . فحفر الأساس فوجد فيه رجلا قائماً معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقمت على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط ، فثبت.

قلت: هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مُضاض بن عمرو الجرهمى ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نَبْت بن إسماعيل بن إبراهيم، وَوَلَدُ الحارث هذا هو: عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القائل فى شعره الذى قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب :

كَأن لَم يكُنْ بَين الحَجُون إلى الصّفا أَنِيسٌ ، ولـم يَسمُـر بمكَّـةَ سَامِـرُ
بَلَـى ، نَحـنُ كُنَّـا أهلَهَـا فـأبـادَنَـا صُروفُ اللّيَالـى والجُـدودُ العَـوَاثِـرُ

وهذا يقتضى أن هذه القصة كانت قديما بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضى أن قصتهم كانت فى زمان الفترة التى بين عيسى ومحمد، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم . وقد يحتمل أن ذلك قد وقع فى العالم كثيراً .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : حرّقوا. قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبْزَى . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى: لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا. ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٥١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كَذَّبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُود ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخَضَع لديه ، ولو كان الذنب من أى شىء كان . و﴿ الْوَدُودُ ﴾ ـ قال ابن عباس وغيره : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أى: صاحب العرش العظيم العالى على جميع الخلائق . و﴿ الْمَجِيد ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ،عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح . ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له ـ وهو فى مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُود . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديدا ، أخذ عزيز مقتدر . وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أى: هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيد ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل . وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

تفسير سورة الطارق

وهى مكية

روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن خالد بن أبى جَبَل العَدْوانى : أنه أبصر رسول الله ﷺ فى مُشرّق ثقيف وهو قائم على قوس ـ أو : عصا ـ حين أتاهم يبتغى عندهم النصر ، فسمعته يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾، حتى ختمها ـ قال: فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها فى الإسلام ـ قال : فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه (١) . وروى النسائى عن جابر قال: صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبى ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ » (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) ﴾

يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ولهذا قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ . قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقا؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفى بالنهار. ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا (٣) ، أى : يأتيهم فجاة بالليل .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ قال ابن عباس : المضىء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضىء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الرعد:١١] . وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾: تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خُلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال:

(١) المسند (٤ / ٣٣٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٣٩) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه أحد وبقية رجاله ثقات » .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٦٦٤) ، ورواه البخارى (٧٠٥) بلفظ قريب منه .

(٣) البخارى (٥٢٤٣) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] . وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دَفقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها. وعن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾: صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وعكرمة، وقتادة والسُّدِّى ،وغيرهم . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال: هذه الترائب.ووضع يده على صدره.وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تَريبة المرأة موضُع القلاَدة. وكذا قال عكرمة ، وسعيد ابن جُبَير . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها. وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقى. وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ،عز وجل ،هذا الدليل فى القرآن فى غير ما موضع،وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أى : تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا .وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال :« يرفع لكل غادر لواء عند استه ، يقال : هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان » (١).

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أى: الإنسان يوم القيامة ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أى: فى نفسه ﴿ وَلا نَاصِرٍ ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾

قال ابن عباس: الرجع: المطر. وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ : تمطر ثم تمطر.وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم . وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا . ﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ

(١) البخارى (٣١٨٨) ومسلم (١٧٣٥ /٩) .

الصَّدْعِ ﴾ قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد .

وقوله : **﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾** : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة .وقال آخر : حكم عدل . **﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾** أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال : **﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾** أى: يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن .ثم قال: **﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾** أى: أنظرهم ولا تستعجل لهم ، **﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾** أى: قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال : **﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾** [لقمان: ٢٤] .

تفسير سورة سبح
وهى مكية

والدليلُ على ذلك ما رواه البخارى عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابنُ أمّ مكتوم ، فجعلا يُقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين. ثم جاء النبى ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فى سُوَر مثلها (١) . وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صَلّيت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى » (٢) . وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيدين بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا. وقد رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه ، ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، و﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما (٣). وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى بن كعب، وعبد الله ابن عباس، وعبد الرحمن ابن أبْزَى، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الوتر بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ـ زادت عائشة : والمعوذتين (٤) . وهكذا رُوى هذا الحديث من طريق جابر وأبى أمامَة صُدَىّ بن عجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلى بن أبى طالب، ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن فى الإرشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) البخارى (٤٩٤١) . (٢) البخارى (٥٠٧) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .

(٣) المسند (٤ / ٢٧١) ومسلم (٨٧٨/ ٦٢) وأبو داود (١١٢٢) والترمذى (٥٣٣) والنسائى (١٥٦٨) وابن ماجه (١٢٨١) .

(٤) المسند (٥ / ١٢٣) عن أبى ، (٢٧٢٠) عن ابن عباس ، (٣ / ٤٠٦) عن ابن أبزى ، (٦/ ٢٢٧) عن عائشة . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

عن عبد خير قال : سمعت عليا قرأ: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، فقال : سبحان ربى الأعلى. وروى ابن جرير: أن ابن عباس كان إذا قرأ: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، يقول: سبحان ربى الأعلى ، وإذا قرأ : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة: ١] فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠] يقول : سبحانك وبلى (١) .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أى : خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها. وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ،كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عَمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » (٢) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ أى: من جميع صنوف النباتات والزروع ، ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هشيما متغيرا . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .

وقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ فَلا تَنسَىٰ ﴾. وهذا إخبار من الله، عز وجل ، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله. وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلا تَنسَى ﴾ : طلب، وجعل معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ ، أى: لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه؛ فلا عليك أن تتركه. وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شىء . وقوله: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أى: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله :﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : ذكِّر حيث تنفع التذكرة .ومن هاهنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على: ما أنت بمحدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال :حدِّث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكذَّب اللهُ ورسوله؟! وقوله: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أى: سيتعظ بما تبلغه ـ يا محمد ـ من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ أى : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ،بل هى مضرة عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « أما أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون ولا يحيون، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء، فيأخذ الرجلُ أنصاره فينبتهم ـ أو قال: ينبتون ـ فى نهر الحياء ـ

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٩٦) . (٢) مسلم (٢٦٥٣ / ١٦) .

أو قال: الحياة ــ أو قال: الحيوان ـ أو قال: نهر الجنة فينبتون ـ نبات الحبَّة فى حميل السيل ». قال : وقال النبى ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء أو قال : تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟ » . قال : فقال بعضهم : كأن النبى ﷺ كان بالبادية (١) .

وروى أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ: « أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ،ولكن أناس ـ أو كما قال ـ تصيبهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فَنَبتوا على أنهار الجنة ، فيقال: يا أهل الجنة ، اقبضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل». قال: فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية . ورواه مسلم (٢) . ورواه أحمد أيضا عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحماً ، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ،فيرش عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبَّة فى حَميل السيل » (٣) .

وقد قال الله إخبارا عن أهل النار: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وقال تعالى: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات فى هذا المعنى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ أى: طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ أى: أقام الصلاة فى أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالا لشرع الله . وكذا قال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس. واختاره ابن جرير .وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾. وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدى صلاته زكاته ، فإن الله يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .وقال قتادة فى هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ :زكى ماله وأرضى خالقه.

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على

---

(١) المسند (٣/ ٥) وابن ماجه (٤٣٠٩) ، وصححه الألبانى .
(٢) المسند (٣/ ١١) ومسلم (١٨٥ /٣٠٦) . (٣) المسند (٣/ ٢٠) ومسلم (١٨٥ /٣٠٦) .

ما فيه نفعكم وصلاحكم فى معاشكم ومعادكم ، ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دنيَّة فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريبا ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟!

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دارُ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (١) . وروى ابن جرير عن عَرْفَجة الثقفى قال: استقرأت ابن مسعود: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فلما بلغ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزُويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل (٢) . وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعرى : أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومَن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقَى على ما يفنى » . تفرد به أحمد (٣) .

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: لما نزلت : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ قال النبى ﷺ: « كان كل هذا ـ أو: كان هذا ـ فى صحف إبراهيم وموسى » (٤) . ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس غير هذا ، وحديثا آخر أورده قبل هذا. وروى النسائى عن ابن عباس قال : لما نزلت: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ قال: كلها فى صحف إبراهيم وموسى، فلما نزلت: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم : ٣٧] قال : وفَّى ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:٣٨] (٥) . يعنى أن هذه الآية كقوله فى سورة « النجم » : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ . أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ . وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٣٦ : ٤٢] . . . الآيات إلى آخرهن. وقال أبو العالية : قصة هذه السورة فى الصحف الأولى . واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أى : مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (٦) . وهذا اختيار حسن قوى . وقد رُوى عن قتادة وابن زيد ، نحوُه . والله أعلم .

---

(١) المسند (٦/ ٧١)وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٢٩١) :« رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٠٠) .

(٣) المسند (٤/ ٤١٢) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٢٥٢) :« رواه أحمد والبزار والطبرانى ورجالهم ثقات » .

(٤) البزار فى المسند (٢٢٨٥ كشف الأستار) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١٤٠) :« فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) النسائى فى الكبرى (١١٦٦٨) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٧٠) وقال:« حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى .

(٦) ابن جرير فى التفسير (٣٠/١٠١) .

تفسير سورة الغاشية
وهى مكية

قد تقدم عن النعمان بن بَشير :أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة [١] . وروى الإمام مالك : أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ . ورواه أبو داود والنسائى. ورواه مسلم وابن ماجه [٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) ﴾

الغاشية : من أسماء يوم القيامة . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ؛ لأنها تغشى الناس وتَعُمّهم .

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أى : ذليلة . قاله قتادة . وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها .

وقوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ، ونَصبت فيه ، وصَلِيت يوم القيامة ناراً حامية . وقال البخارى : قال ابن عباس :﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾: النصارى . وعن عكرمة، والسدى: ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ فى الدنيا بالمعاصى ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ فى النار بالعذاب والأغلال .قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أى : حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أى : قد انتهى حرّها وغليانها . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسّدى .

وقوله : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : شجر من نار. وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم . وعنه : أنها الحجارة . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة، وأبو الجوزاء، وقتادة: هو الشِّبرِقُ. قال قتادة: قريش تسميه فى الربيع: الشِّبرِقُ، وفى الصيف: الضريع. قال عكرمة:وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض.وقال البخارى: قال مجاهد:

---

(١) مضى تخريجه فى أول سورة الأعلى .

(٢) مالك فى الموطأ (١/ ١١١) وأبو داود (١١٢٣) والنسائى (١٤٢٣) ورواه مسلم (٨٧٨/ ٦٢) وابن ماجه (١١١٩).

الضريعُ نبتٌ يقال له: الشِّبرقُ ، يسميه أهل الحجاز : الضريعَ إذا يبس، وهو سم[١]. وقوله : ﴿ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ يعني : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ ﴾

لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ نَاعِمَةٌ ﴾ أى: يعرف النعيم فيها . وإنما حَصَلَ لها ذلك بسعيها . وقال سفيان : ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قد رضيت عملها .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى: رفيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ أى: لا تسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو. كما قال : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا ﴾ [مريم:٦٢] ، وقال : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور:٢٣] ، وقال: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة:٢٥ ، ٢٦] . ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة، وإنما هذا جنس، يعنى: فيها عيون جاريات .عن أبى هُرَيرة قال : قال النبى ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ــ أو : من تحت جبال ـ المسك » [٢] . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أى: عالية ناعمة كثيرة الفرش ،مرتفعة السَّمْك، عليها الحور العين ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يعنى: أوانى الشرب معدة مُرصدة لمن أرادها من أربابها ، ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ قال ابن عباس: النمارق : الوسائد . وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم. وقوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ قال ابن عباس : الزرابى: البسط. وكذا قال الضحاك، وغير واحد. ومعنى مبثوثة ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب

---

(١) البخارى (٨ / ٧٠٠ فتح) .

(٢) ابن حبان فى صحيحه (٢٦٢٢ موارد) .

لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضى يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أى : كيف رفعها الله ، عز وجل ، عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦] .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أى: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن . ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أى : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبَّه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ، والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه، والأرض التى تحته ـ على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه. وهكذا أقسم « ضِمَام » فى سؤاله على رسول الله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء ، فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولُك فزعَم لنا أنك تَزعُم أن الله أرسلك. قال: « صدق ». قال: فمن خلق السماء ؟ قال : «الله ». قال : فمن خلق الأرض؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال : « الله » . قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آللهُ أرسلك ؟ قال : « نعم» . قال : وزعم رسولُك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا. قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا ؟ قال: «صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟. قال : «نعم». قال : وزعم رسولك أن علينا حَجّ البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : «صدق» . قال : ثم ولى فقال : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبى ﷺ : «إن صدق ليدخُلَنّ الجنة » . وقد رواه مسلم،وعَلّقه البخارى،ورواه الترمذى والنسائى(١). ورواه الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أنس ، به بطوله ، وقال فى آخره :« وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » (٢).

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ أى : فذكر ـ يا محمد ـ الناس بما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ؛ ولهذا قال: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد، وغيرهما: لست عليهم بجبار .وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان . وروى الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ،وحسابهم

---

(١) المسند (٣/١٤٣) ومسلم (١٢/ ١٠) .ورواه البخارى (١/١٤٨ فتح) والترمذى (٦١٩) والنسائى فى الكبرى (٢٤٠١) .

(٢) المسند (٣/١٦٨) والبخارى (٦٣) وأبو داود (٤٨٦) والنسائى فى الكبرى (٢٤٠٢) وابن ماجه (١٤٠٢).

على الله عز وجل » . ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ . وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى بهذه الزيادة [١] . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة، بدون ذكر هذه الآية [٢] .

وقوله: ﴿ إِلا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله: ﴿ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ . وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١ ، ٣٢]. ولهذا قال: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾. روى الإمام أحمد : أن أبا أمامة الباهلى مَرّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شَرَدَ على الله شَراد البعير على أهله » . تفرد بإخراجه الإمام أحمد [٣]. وقوله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أى: مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أى : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

---

(١) المسند (٣/ ٣٠٠) ومسلم (٢١/ ٣٣) والترمذى (٣٣٤١)والنسائى فى الكبرى (١١٦٧٠) .

(٢) البخارى (٢٩٤٦) ومسلم (٢١/ ٣٤) .

(٣) المسند (٥/ ٢٥٨) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٤٠٦): «رجاله رجال الصحيح غير على بن خالد الدؤلى وهو ثقة » .

تفسير سورة الفجر
وهى مكية

روى النسائى عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطَول ، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى معه فَطَوّل عَلَىّ ، فانصرفت وصليتُ فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى. فقال رسول الله ﷺ : « أفتّان يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ و﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ و﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾

أما الفجر فمعروف ، وهو : الصبح . قاله على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدى . وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر. وقيل: المراد بذلك الصلاة التى تفعل عنده، كما قاله عكرمة. وقيل: المراد به جميع النهار. وهو رواية عن ابن عباس .

والليالى العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقد ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن عباس مرفوعا :« ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » ـ يعنى عشر ذى الحجة ـ قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجلا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » (٢). وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم . والصحيح القول الأول .

وقوله :﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾: قيل : الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ،وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان : عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله :﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قلتُ :

---

(١) النسائى فى الكبرى (١١٦٧٣) .   (٢) البخارى (٩٦٩) .

صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : عن عبد الله بن الزبير قال: الشفع قول الله ، عز وجل: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾، والوتر قوله : ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة :٢٠٣]. وفى الصحيحين من رواية أبى هُرَيرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسع وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » [(١)] .

قول رابع : قال الحسن البصرى ،وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ،ووتر، أقسم تعالى بخلقه.وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول . وقال ابن عباس :﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال: الله وتر واحد ، وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس: عن مجاهد :﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال: الشفع الزوج ،والوتر: الله عز وجل . وعنه: الله الوتر ، وخلقه الشفع ،الذكر والأنثى . وعنه:﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾:كل شىء خلقه الله شفع،السماء والأرض، والبر والبحو ، والجن والإنس،والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر.

قول سابع: قال أبو العالية، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ،منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب ،فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار .وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال: ابن عباس : أى إذا ذهب . وقال عبد الله بن الزبير : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضا . وقال مجاهد ، وأبو العالية ،وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ إذا سار . وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ، أى: أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، على إقباله كان قَسَماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٧، ١٨] . وكذا قال الضحاك: ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ أى : يجرى .وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعنى : ليلة جَمْع . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

---

(١) البخارى (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧/٥) .

وقوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أي: لذى عقل ولب وحجا ودين ،وإنما سمى العقل حِجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ،ومنه حِجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى. ومنه حجر اليمامة ،وحَجَرَ الحاكم على فلان :إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٢٢] ،كل هذا من قبيل واحد ،ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ،وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له،الخائفون منه،المتواضعون لديه،الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ،وجعلهم أحاديث وعبرا ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧، ٨] . وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون . فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (١) ﴾ [الاعراف:٦٩]. وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم . قال مجاهد: إرم: أمة قديمة . يعنى : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسُّدِّىُّ : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى. وقال مجاهد، وقتادة، والكلبى فى قوله: ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون . وقال ابن عباس : إنما قيل لهم : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لطولهم . واختار الأول ابنُ جرير ، ورد الثانى فأصاب .

وقوله :﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾: أعاد ابن زيد الضميرَ على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال: بنوا عُمُدا بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على

---

(١) فى المطبوعة والمخطوطة بدلها : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » وهو خطأ .

القبيلة، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد، وإنما قال: ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم ـ فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بثمود كما هاهنا ، والله أعلم . وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادى القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة فى سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ قال ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حَديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى . ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى : تمردوا وعتوا وعاثوا فى الأرض بالإفساد والأذيَّة للناس ، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى: أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يَرُدّها عن القوم المجرمين. وقوله :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى . يعنى: يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازى كلا بسعيه فى الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، وروى أبو داود عن سهل ـ يعنى ابن سعد ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن بين إصبعيه :

الوسطى والتى تلى الإبهام (١) . ﴿ وَلا تَحَضُّونَ (٢) عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعنى: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعنى: الميراث ﴿ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام، ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً ـ زاد بعضهم : فاحشا .

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى: حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى: وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعنى: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى النوبة إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها ». فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة « سبحان » (٣) ، فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفا .

وقوله : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : روى الإمام مسلم عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها » . وهكذا رواه الترمذى (٤) . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى ـ إن كان عاصيا ـ ويود لو كان ازداد من الطاعات ـ إن كان طائعا ـ كما روى الإمام أحمد بن حنبل عن محمد بن أبى عَميرة ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرِماً فى طاعة الله ، لَحَقِرَه يوم القيامة ، ولودَّ أنه يُرَدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب (٥) .

---

(١) أبو داود (٥١٥٠) . ورواه البخارى (٦٠٠٥) .

(٢) « تحضون » : هى قراءة الجمهور ، وكذا هى قراء الحافظ ابن كثير .

(٣) عند الآية (٧٩) . (٤) مسلم (٢٨٤٢ / ٢٩) والترمذى (٢٥٧٣) .

(٥) المسند (٤ / ١٨٥) ، وصححه الهيثمى فى الزوائد (١ / ٥٤) .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته، ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أى : فى نفسها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾. وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروى عن ابن عباس : نزلت فى عثمان بن عفان . وعن بُرَيدة بن الحُصَيب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب . وقال ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾. وروى عنه أنه كان يَقرؤها : «فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى». وكذا قال عكرمة والكلبى، واختاره ابن جرير، وهو غريب، والظاهر الأول؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام:٦٢] ، ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر: ٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه. وعن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خَلْقه ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . رواه الطبرانى (١) . وقد ذكر الحافظ محمد بـن المنذر الهروى ـ المعروف بشكَّر ـ فى كتاب « العجائب » بسنده عن قُبَاث بـن رزين أبى هاشم قال : أسرتُ فى بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعَرَض علينا دينه، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع، فضربت عنقه، وألقى رأسه فى نهر هناك، فرسب فى الماء ثم طفا على وجه الماء، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان، ويا فلان ـ يناديهم بأسمائهم ـ قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾. ثم غاص فى الماء، قال: فكادت النصارى أن يسلموا، ووقع سرير الملك، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام. قال: وجاء الفداء من عند الخليفة أبى جعفر المنصور فخلصنا .

---

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٩٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩ / ٢٨٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

تفسير سورة البلد
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى فى حال كون الساكن فيها حالا ؛ لينبه على عظمة قَدرها فى حال إحرام أهلها . قال مجاهد : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَد ﴾ : لا رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد . وقال ابن عباس: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَد ﴾ يعنى: مكة ، ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت ـ يا محمد ـ يحل لك أن تقابل به . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبَير ، وقتادة . وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال قتادة: ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال: أنت به من غير حَرَج ولا إثم . وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار . وهذا المعنى الذى قالوه قد ورَد به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حَرَامٌ بحُرمَة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شجره ولا يختلى خلاه . وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب» . وفى لفظ آخر: « فإن أحد تَرَخَّص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » (١) .

وقوله: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ قال ابن عباس: الوالد : الذى يلد ،وما ولد: العاقر الذى لا يولد له . وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذى يلد . وقال مجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى، وغيرهم: يعنى بالوالد آدم ،وما ولد ولده . وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حَسَنٌ قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهى المساكن أقسم بعده بالساكن ، وهو آدم أبو البشر وولده . وقال أبو عمران الجونى : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير. واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده .

وقوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ : رُوى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ،

---

(١) البخارى (١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨٣٢ ، ٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) .

ومجاهد، وغيرهم : يعنى منتصبا ـ زاد ابن عباس فى رواية عنه ـ فى بطن أمه . والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سويا مستقيما كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] ، وكقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] . وقال ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدة خَلْق، ألم تر إليه . . . وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد: ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق، قال مجاهد: وهو كقوله: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وأرضعته كرها، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك. وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ : فى شدة وطَلَب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ : قال الحسن البصرى : يعنى أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله . وقال قتادة : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ وقال السدى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : الله عز وجل .

وقوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴾ أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا لبدا ، أى : كثيرا . قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم . ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ قال مجاهد: أى أيحسب أن لم يره الله عز وجل. وكذا قال غيره من السلف.

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أى : يبصر بهما ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أى : ينطق به ، فَيُعبر عما فى ضميره ، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾: الطريقين عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: الخير والشر . وكذا رُوى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد، وعكرمة . ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ (٢٠) ﴾

عن ابن عمر فى قوله: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال: جبل فى جهنم . وقال كعب الأحبار : ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾: هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال: عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . ثم أخبر عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ . وقال ابن زيد :

﴿ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أى: أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير. ثم بينها فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ . قرئ : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ بالإضافة، وقُرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا القراءتين معناهما متقارب .

روى الإمام أحمد عن سعيد بن مرجانة : أنه سمع أبا هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب منها إربا منه من النار ، حتى إنه ليعتق باليد اليد ، وبالرجل الرجل ،وبالفرج الفرج » .فقال على بن الحسين : أنتَ سَمعتَ هذا من أبى هُرَيرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال على بن الحسين لغلام له ـ أفْرَهَ غلمانه : ادعُ مطْرَفاً . فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حُر لوجه الله. ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى،من طرق . وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على ابن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم [(١)]. وروى أحمد : أن شرحبيل بن السمط قال لعمرو بن عَبَسَة : حَدِّثنا حديثاً ليس فيه تَزَيّد ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار ، عُضْوا بعضو . ومن شاب شيبة فى سبيل الله ، كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ ، كان كمعتق رقبة من بنى إسماعيل » . وروى أبو داود والنسائى بعضه [(٢)] . وروى أحمد عن عمرو بن عَبَسَةَ السلمى قال : قلت له : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وَهم . قال: سمعته يقول : « من وُلد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنْثَ ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رَمى بسهم فى سبيل الله ، بلغ به العدو ، أصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة. ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أى باب شاء منها » [(٣)] . وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ قال ابن عباس: ذى مجاعة . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد . والسَّغَب : هو الجوع . وقال إبراهيم النَّخَعى : فى يوم الطعامُ فيه عزيزٌ . وقال قتادة : فى يوم يُشتهى فيه الطعام . وقوله : ﴿ يَتِيمًا ﴾ أى : أطعم فى مثل هذا اليوم يتيما ، ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أى : ذا قرابة منه . قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك ، والسدى . كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن سليمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان ، صدقة وصلة » . وقد رواه الترمذى والنسائى، وهذا إسناد صحيح [(٤)] .

---

(١) المسند (٢ / ٤٢٢) والبخارى (٢٥١٧، ٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩ / ٢١) والترمذى (١٥٤١) والنسائى فى الكبرى (٤٨٧٥) .

(٢) المسند (٤ / ١١٣) وأبو داود (٣٩٦٦) والنسائى فى الكبرى (٤٨٨٥ ، ٤٨٨٦) ، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٤ / ٣٨٦) .

(٤) المسند (٤ / ٢١٤) والترمذى (٦٥٨) والنسائى (٥ / ٩٢) وقال الترمذى : « حديث حسن » .

وقوله : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى : فقيرا مُدقعاً لاصقا بالتراب ، وهو الدقعاء أيضا . قال ابن عباس : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ هو المطروح فى الطريق، الذى لا بيت له ، ولا شىء يقيه من التراب ـ وفى رواية: هو الذى لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شىء ـ وفى رواية عنه : هو البعيد التربة. قال ابن أبى حاتم : يعنى الغريب عن وطنه .وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج .وقال سعيد ابن جبير : هو الذى لا أحد له .وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : هو ذو العيال . وكل هذه قريبة المعنى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة ، مؤمنٌ بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩] وقال :﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية [النحل:٩٧] . وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحا، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم. كما جاء فى الحديث: « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (١) . وفى الحديث الآخر : « لا يَرْحَم اللهُ من لا يَرْحَم الناس» (٢) . وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى : أصحاب الشمال ، ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة ـ قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش : أى أغلقه . وسيأتى فى ذلك حديث فى سورة : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ . وقال الضحاك :﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : حيط لا باب له .وقال قتادة : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

---

(١) المسند (٦٤٩٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) مسلم (٢٣١٩ / ٦٦) .

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهى مكية

تقدم حديث جابر الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ » (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾

قال مجاهد : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أى : وضوئها . وقال قتادة : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾: النهار كله . قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار . ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ قال مجاهد : تبعها . وقال ابن عباس : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ قال : يتلو النهار. وقال قتادة : ﴿ إِذَا تَلاهَا ﴾ ليلة الهلال ،إذا سقطت الشمس رؤى الهلال . وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر . وقال زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ : إذا غشيها النهار . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها . قلت : ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أى : البسيطة ، لكان أولى ، ولصح تأويله فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ إنه كقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل:٢] . وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجريان ذكرها . وقالوا فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ يعنى : إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الآفاق .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾: يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبنائها، وهو قول قتادة . ويحتمل أن تكون بمعنى « مَن » يعنى : والسماء وبانيها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم ، والبناء هو الرفع، كقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أى: بقوة ﴿ وَإِنَّا

(١) مضى الحديث وتخريجه أول سورة الأعلى .

لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [الذاريات : ٤٧ ، ٤٨] . وهكذا قوله : ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال مجاهد: ﴿ طحاها ﴾ : دحاها. وقال ابن عباس: ﴿ وما طحاها ﴾ أى : خلق فيها . وقال : ﴿ طحاها ﴾ : قسمها . وقال مجاهد، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ طحاها ﴾ : بسطها . وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهرى: طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله: ﴿ ونفس وما سواها ﴾ أى:خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ [الروم: ٣٠] . وقال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » . أخرجاه من رواية أبى هريرة (١). وفى صحيح مسلم من رواية عياض ابن حمار المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » (٢) .

وقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها . قال ابن عباس : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة، والضحاك ، والثورى. وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها. وروى ابن جرير عن أبى الأسود الدّيلى قال : قال لى عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدَر قد سبق ، أو فيما يُستَقبَلُون مما أتاهم به نبيهم ﷺ ، وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شىء قضى عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً ، قال : قلت له : ليس شىء إلا وهو خَلقُه ومِلْك يَده ، لا يسألُ عما يفعل وهم يسألون . قال : سددك الله ، إنما سألت لأخْبُرَ عقلك، إن رجلا من مُزَينة ـ أو جهينة ـ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قَدر قد سبق ، أم شىء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شىء قد قضى عليهم » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يُهَيِّئه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ﴾ » . رواه أحمد ومسلم (٣).

وقوله: ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ :يحتمل أن يكون المعنى:قد أفلح من زكى نفسه ، أى : بطاعة الله ـ كما قال قتادة ـ وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويُروَى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة، وسعيد ابن جبير. وكقوله: ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

---

(١) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) . (٢) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٣٥) والمسند (٤ / ٤٣٨) ومسلم (٢٦٥٠/ ١٠) .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أى : دسسها ، أى : أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدَى ، حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل . وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دَسَّى الله نفسه ، كما قال عن ابن عباس .

وروى الطبرانى عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وقف، ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » (١) . وروى الإمام أحمد عن عائشة : أنها فَقَدت النبى ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » تفرد به (٢) . وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم ، إنى أعوذ بك من العجز والكَسَل والهرم ، والجُبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إنى أعوذ بك من قَلْب لا يخشع ، ومن نَفْس لا تشبع ، وعِلْم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن . رواه مسلم (٣).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى . وقال محمد بن كعب : ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى : بأجمعها . والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين . ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أى : أشقى القبيلة ، هو قُدَار بن سالف عاقرُ الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذى قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩] . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم، شريفاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : « ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه ، مثل زمعة » . ورواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى (٤) .

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعنى : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١١ / ١٠٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٤١) : « إسناد حسن » .
(٢) المسند (٦ / ٢٠٩) . (٣) المسند (٤ / ٣٧١) ومسلم (٢٧٢٢ / ٧٣) .
(٤) المسند (٤ / ١٧) والبخارى (٤٩٤٢) ومسلم (٢٨٥٥ / ٤٩) والترمذى (٣٣٤٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٧٥) .

ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ ﴾ أى: غضب عليهم ، فدمّر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾. قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وغيرهم . وقال الضحاك والسدى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أى : لم يخف الذى عقرها عاقبة ما صنع والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

تفسير سورة الليل
وهى مكية

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « فهلا صليت بـ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و﴿الشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ، و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) ﴾

روى الإمام أحمد عن علقمة: أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين وقال: اللهم ، ارزقنى جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبى الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ ؟ قال علقمة : «والذكر والأنثى ». فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ، فما زال هؤلاء حتى شككونى . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذى لا يعلمه أحد غيره ، والذى أجير من الشيطان على لسان النبى ﷺ ؟ (٢) . وقد رواه البخارى هاهنا ومسلم عن إبراهيم قال: قدم أصحاب عبد الله على أبى الدرداء، فطلبهم فوجدهم، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا: كلنا ،قال: أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة، فقال : كيف سمعته يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ؟ قال : «والذكر والأنثى ».قال : أشهد أنى سَمعت رسولَ الله ﷺ يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدوننى أن أقرأ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ ، والله لا أتابعهم (٣) .

هذا لفظ البخارى:هكذا قرأ ذلك ابن مسعود ، وأبو الدرداء ـ ورفعه أبوالدرداء ـ وأما الجمهور فقرؤوا ذلك كما هو مُثبت فى المصحف الإمام العثمانى فى سائر الآفاق :﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾، فأقسم تعالى بـ ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ أى : إذا غَشىَ الخليقةَ بظلامه ، ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أى: بضيائه وإشراقه، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾، كقوله: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النبأ:٨] ، وكقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

---

(١) مضى الحديث وتخريجه أول سورة الأعلى . (٢) المسند (٦ / ٤٤٩) .
(٣) البخارى (٤٩٤٤) ومسلم (٨٢٤ / ٢٨٢) .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضادا؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ أى : أعمال العباد التى اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة ، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا ، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله فى أموره ، ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بالمجازاة على ذلك ، قاله قتادة ، وقال خَصِيف : بالثواب . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وزيد بن أسلم : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بالخلف . وقال أبو عبد الرحمن السلمى ، والضحاك : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بلا إله إلا الله . وفى رواية عن عكرمة : ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بما أنعم الله عليه . وفى رواية عن زيد بن أسلم: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ قال: الصلاة والزكاة والصوم . وقال مرة : وصدقة الفطر .

وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ قال ابن عباس: يعنى للخير . وقال زيد بن أسلم :يعنى للجنة.

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئةُ بعدها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ أى : بما عنده ، ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ قال ابن عباس : أى بخل بماله ، واستغنى عن ربه ، عز وجل . ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أى:لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] . والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ، عز وجل ، يُجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان . وكل ذلك بقدر مُقدّر ، والأحاديثُ الدالة على هذا المعنى كثيرة :

روى البخارى عن على بن أبى طالب قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بَقِيع الغَرْقَد فى جنازة ، فقال :« ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له». قال : ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ .وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ، إلى قوله: ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (١) . ثم رواه عن على ابن أبى طالب قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ،فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصَرَةٌ فَنَكَسَ فجعل ينكُت بمخصرته ، ثم قال : « ما منكم من أحد ـ أو : ما من نفس منفوسة - إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » . فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل وندع العمل ؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء ؟ فقال : « أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء » . ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ .وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ الآية . وقد أخرجه بقية الجماعة (٢) . وروى ابن جرير عن جابر بن عبد الله أنه قال : يا رسول الله ، أنعمل لأمر قد فرغ منه ، أو لأمر

---

(١) البخارى (٤٩٤٥ ـ ٤٩٤٧) .

(٢) البخارى (٤٩٤٨) ومسلم (٢٦٤٧ / ٦) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذى (٣٣٤٤) .

نستأنفه ؟ فقال: « لأمر قد فرغ منه ». فقال سراقة: ففيم العمل إذاً ؟ فقال رسول الله ﷺ: « كل عامل مُيَسَّر لعمله » . ورواه مسلم (١). قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق: عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جُلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟! فقال: أيْ أبَت ، إنما أريد ـ أظنه قال ـ ما عند الله : قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ قال مجاهد : أي إذا مات . وقال أبو صالح ، وزيد ابن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾

قال قتادة : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ أي : نبين الحلالَ والحرامَ . وقال غيره : من سَلَك طريق الهدى وَصَل إلى الله. وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل:٩]. حكاه ابن جرير . وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ أي : الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما .

وقوله : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴾ : قال مجاهد : أي توهج . روى الإمام أحمد عن النعمان ابن بشير قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منها دماغه ». رواه البخاري (٣) . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يَغلي منهما دماغه كما يَغْلي المِرْجَل،ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً،وإنه لأهونهم عذابا » (٤) .

وقوله :﴿ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴾ أي :لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى. ثم فسره فقال : ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أي : بقلبه ، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي : عن العمل بجوارحه وأركانه . روى الإمام أحمد عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلامن أبى ». قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » .ورواه البخاري (٥).

---

(١) ابن جرير في التفسير (٣٠ / ١٤٤) ومسلم (٢٦٤٨ / ٨) .

(٢) ابن جرير في التفسير (٣٠/ ١٤٢) .

(٣) المسند (٤ / ٢٧٤) والبخاري (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) .

(٤) مسلم (٢١٣ / ٣٦٣) .

(٥) المسند (٢ / ٣٦١) والبخاري (٧٢٨٠) .

وقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ أى : وسيُزَحزح عن النار التقى النقى الأتقى . ثم فسره بقوله : ﴿ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أى : يصرف ماله فى طاعة ربه ؛ ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ أى :ليس بَذْله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً، فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك.ولا شك أنه داخل فيها ،وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريما جواداً بذالا لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منّةٌ يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود ـ وهو سيد ثقيف ، يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يد لك كانت عندى لم أجزك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال: ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾. وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « من أنفق زوجين فى سبيل الله دَعَته خَزَنَةُ الجنة : يا عبد الله ، هذا خير» ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : «نعم، وأرجو أن تكون منهم » (١).

---

(١) البخارى (٢٨٤١) ومسلم (١٠٢٧ / ٨٥) .

تفسير سورة الضحى
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾

روى الإمام أحمد عن جندب قال: اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير [(١)] . وقد ذكر بعض السلف ـ منهم ابن إسحاق ـ أن هذه السورة هى التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠]. قال: قال له هذه السورة: ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ . قال ابن عباس : لما نَزَلَ على رسول الله ﷺ القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياما ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أى : سكن فأظلم وادلَهَم . قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] .

وقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أى : ما تركك، ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أى : وما أبغضك، ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أى : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم من سيرته . ولما خُيِّرَ ، عليه السلام ، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية . روى الإمام أحمد عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلت

---

(١) المسند (٤ / ٣١٢) والبخارى (١١٢٤، ١١٢٥ ، ٤٩٥٠ ، ٤٩٥١ ، ٤٩٨٣) ومسلم (١٧٩٧ / ١١٤) ، والترمذى (٣٣٤٥) وابن ماجه (٣٢٥٠) وابن جرير فى التفسير (١٤٨/٣٠) .

أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ما لى وللدنيا ؟ ! ما أنا والدنيا ؟ ! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها ». ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ أى : فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذى حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر . عن عبد الله بن عباس قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير (٢) ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف. وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

ثم قال تعالى يعدد نعَمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ، وذلك أن أباه تُوفّى وهو حَملٌ فى بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمانى سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره ويُوقّره ، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره ، إلى أن تُوفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل . فلما وصل إليهم أوَوه ونَصرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به .

وقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ كقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى ، الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله ، عز وجل . وفى الصحيحين عن أبى هُرَيرة قال :قال رسول الله ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العَرَض،ولكن الغنى غنى النفس » (٣) . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال :

---

(١) المسند (٣٧٠٩) والترمذى (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) ابن جرير فى التفسير (١٤٩/٣٠) . (٣) البخارى (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١ / ١٢٠) .

قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » (١) .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسِنْ إليه ، وتلطف به . قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم. ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى : وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فَحَّاشا ، ولا فَظّا على الضعفاء من عباد الله . وقال قتادة : يعنى رَد المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى: « واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينـا » . وعن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها . وروى أبو داود عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . ورواه الترمذى ، وقال : صحيح (٢) . وروى أبو داود عن جابر ، عن النبى ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٣) . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطَى عَطاء فَوَجَد فَلْيَجزْ به ، فإن لم يجد فَلْيُثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ». تفرد به أبو داود (٤). وقال مجاهد: يعنى النبوة التى أعطاك ربك. وفى رواية عنه: القرآن . وقال الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فَحَدث إخوانك . وقال ابن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة، فصلى .

---

(١) مسلم (١٠٥٤ / ١٢٥) .

(٢) أبو داود (٤٨١١) والترمذى (١٩٥٤) ، وصححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٤٨١٤) ، وصححه الألبانى .

(٤) أبو داود (٤٨١٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة ألم نشرح
وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾ ربع

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعنى : أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورناه وجعلناه فَسيحاً رحيباً واسعاً كقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرْعه فسيحا واسعاً سمحاً سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء (١) ، فإن من جملة شرح صدره الذى فُعِل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أولُ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال: « لقد سألتَ يا أبا هريرة ، إنى لفى الصحراء ابنَ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال : نعم] فاستقبلانى بوجوه لم أرها [الخلق] قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدى ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعانى بلا قَصْر ولا هَصْر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له: أخرج الغِلّ والحَسَد . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبهُ الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم. فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمةً للكبير » (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢]

---

(١) انظر الأحاديث أول سورة الإسراء .

(٢) المسند (٥ / ١٣٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٢) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » . وما بين المعقوفين من المسند .

﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف فى قوله : ﴿ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى : أثقلك حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال مجاهد: لا أُذْكَرُ إلا ذُكِرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال قتادة : رفع اللهُ ذكرَه فى الدنيا والآخرة ،فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربى مسألة وَدَدْتُ أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قال: قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » (١) .

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به،وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ،ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾: أخبر تعالى أن مع العسر يوجَدُ اليسر ، ثم أكد هذا الخبر . وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أى : إذا فَرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته:«لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » (٢) . وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعَشَاء » (٣) . قال مجاهد فى هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة ، فانصب لربك، وفى رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب فى حاجتك، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفى رواية عن ابن مسعود : ﴿ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس. وقال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ يعنى: فى الدعاء. وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أى : من الجهاد ﴿ فَانصَبْ ﴾ أى: فى العبادة. ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٥٢٦) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) مسلم (٥٦٠ / ٦٧) . (٣) البخارى (٥٤٦٥) .

تفسير سورة التين
وهى مكية

عن البراء بن عازب : كان النبى ﷺ يقرأ فى سَفَر فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة فى كتبهم [1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة ،فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : هى نفسها. وقيل : الجبل الذى عندها .وقال مجاهد : هو تينكم هذا . ﴿ وَالزَّيْتُون ﴾ قال قتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذى تعصرون. ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قال غير واحد : هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى. ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِين ﴾ يعنى : مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعِى ،ولا خلاف فى ذلك .

وقال بعض الأئمة : هذه مَحَالٌ ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم .والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى ابن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنا ، وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ. قالوا : وفى آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء ــ يعنى الذى كلم الله عليه موسى بن عمرن ـ وأشرق من سَاعيرَ ـ يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعنى: جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً ـ فذكرهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .

وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة ، سَوِىّ الأعضاء حسنها . ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

(١) البخارى (٤٩٥٢) ومسلم (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود (١٢٢١) والترمذى (٣١٠) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٢) وابن ماجه (٨٣٤ ، ٨٣٥) .

سَافِلِينَ ﴾ أى : إلى النار . قاله مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم . ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. وقال بعضهم: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أى : إلى أرذل العمر . رُوِى هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ـ حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر . واختار ذلك ابن جرير . ولو كان هذا هو المراد لما حَسُن استثناء المؤمنين من ذلك ؛ لأن الهَرَم قد يصيبُ بعضهم ،وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله: ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [العصر: ١ ـ ٣] .

وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، كما تقدم . ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يعنى : يا بن آدم ﴿ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ؟ أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البدأة ، وعرفت أن من قدر على البدأة ، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأى شىء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ وقوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : أما هو أحكم الحاكمين ، الذى لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عَدْله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم فى الدنيا ممن ظلمه .

تفسير سورة اقـرأ

وهى أول شىء نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه ـ وهو : التعبد ـ الليالى ذواتَ العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزَوّد لمثلها حتى فَجَأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ ». قال: «فأخذنى فَغَطَّنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال: اقرأ . فقلت :ما أنا بقارئ. فَغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت: ما أنا بقارئ . فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتى بلغ :﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » قال : فرجع بها تَرجُف بَوادره حتى دخل على خديجة فقال: « زملونى زملونى ». فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال: «يا خديجة، ما لى؟» فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على نفسى » . فقالت له: كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقة بن نوفل بن أسَد بن عبد العُزى بن قُصى ـ وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعربية [١] من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِىَ ـ فقالت خديجة : أىّ ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابنَ أخى، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى فيها جَذَعا أكونُ حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ:« أومخرجيَّ هُم ؟ » . فقال ورقة: نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى،وإن يُدركنى يومك أنصُرْكَ نصراً مُؤزراً .ثم لم ينشَب وَرَقة أن تُوُفِّى،وفَتَر الوحى فترة حتى حَزن رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مرارا كى يَتَردى من رؤوس شَوَاهق الجبال،فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه ، تبدى له جبريل فقال : يا محمد، إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتَقَرُّ

---

(١) فى المطبوعة : « بالعبرانية » والمثبت من المسند والمخطوطة .

نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تَبَدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[١].

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كَرَمه تعالى أن عَلّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون فى الأذهان ، وتارة يكون فى اللسان ، وتارة يكون فى الكتابة بالبنان ، ذهنى ولفظى ورسمى ، والرسمى يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. وفى الأثر: قيدوا العلم بالكتابة .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ سجدة

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تَهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾: نزلت فى أبى جهل ،لعنه الله ، توعد النبى ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتى هى أحسن أولا ، فقال :﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أى : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ؛ ولهذا قال :﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أى : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أى : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أى : لنَسمنَّها سوادا يوم القيامة .

ثم قال: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعنى: ناصية أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطئة فى فعَالها. ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أى : قومه وعشيرته ، أى : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلبُ : أحزبُنا أو حزبه . روى البخارى عن ابن عباس :

(١) المسند (٦/٢٣٢) والبخارى (٣ ، ٤، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥) ومسلم (١٦٠/٢٥٢) .

قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عُنُقه . فبَلَغَ النبى ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . وكذا رواه الترمذى والنسائى وابن جرير [١] . وروى أحمد، والترمذى وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد،ألم أنهك عن هذا ؟ ـ وتَوعَّده ـ فأغلظ له رسول الله ﷺوانتهره ، فقال:يا محمد ، بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذى : حسن صحيح [٢] .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال:« لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ،ولو أن اليهود تَمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار،ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » [٣] . وروى ابن جرير عن أبى هُرَيرة قال : قال أبو جهل :هل يَعفِّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفِّرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلى ليطأ على رقبته ، قال : فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خَنْدقا من نار وهَولا وأجنحة. قال: فقال رسول الله : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله ـ لا أدرى فى حديث أبى هريرة أم لا ـ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ إلى آخر السورة . وقد رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم، والنسائى [٤] .

وقوله: ﴿ كَلاَّ لا تُطعْه ﴾يعنى: يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح ـ عند مسلم ـ عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » [٥] . وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [٦].

---

(١) البخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ١٦٥) .

(٢) المسند (٣٠٤٥) والترمذى (٣٣٤٩) وابن جرير فى التفسير (٣٠/ ١٦٤). وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٢٢٢٥) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ١٦٥) والمسند (٢/ ٣٧٠) ومسلم (٢٧٩٧ / ٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٣) .

(٥) مسلم (٤٨٢ / ٢١٤) .

(٦) مضى تخريج ذلك فى أول سورة الانشقاق .

تفسير سورة القدر
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله ، عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان:٣] وهى ليلة القدر، وهى من شهر رمضان ، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة:١٨٥] . قال ابن عباس وغيره :أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

ثم قال تعالى مُعَظِّما لشأن ليلة القدر ، التى اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . وقال مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس فى تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعى ، وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائى: عمل فيها خير من عمل ألف شهر . وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ـ وليس فيها ليلة القدر ـ هو اختيارُ ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ، وهو كقوله ﷺ : « رِباطُ ليلة فى سبيل الله خَيْر من ألف ليلة فيما سواه من المنازل » . رواه أحمد (١) . وكما جاء فى قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة : « أنه يُكتَبُ له عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها » إلى غير ذلك من المعانى المشابهة لذلك . ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه » (٢) .

وقوله :﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى: يكثر تَنَزُّلُ الملائكة فى هذه الليلة لكثرة بركتها ،والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحِلَق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له .وأما الروح فقيل : المراد به هاهنا جبريل، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم

---

(١) المسند (٤٧٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .
(٢) البخارى (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠ / ١٧٥) .

ضرب من الملائكة. كما تقدم فى سورة « النبأ ». والله أعلم .وقوله: ﴿ من كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد: سلام هى من كل أمر. وقال: هى سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى . وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] .

وقوله تعالى: ﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن الشعبى قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر .وقال قتادة وابن زيد فى قوله : ﴿ سَلامٌ هِيَ ﴾ يعنى : هى خير كلها ، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر .

فصل : اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر فى الأمم السالفة ، أو هى من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال الزهرى : حدثنا مالك : أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله ـ أو : ما شاء الله من ذلك ـ فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر (١) . وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العُدّة » أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء ، فالله أعلم . وحكى الخطابى عليه الإجماع ، والذى دل عليه الحديث أنها كانت فى الأمم الماضين كما هى فى أمتنا .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن مَرْثَد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ليلة القدر ، أفى رمضان هى أو فى غيره ؟ قال : « بل هى فى رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال: «بل هى إلى يوم القيامة ». قلت : فى أى رمضان هى ؟ قال: « التمسوها فى العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حَدّثَ رسولُ الله ﷺ وحَدّث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : فى أى العشرين هى ؟ قال: « ابتغوها فى العشر الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » . ثم حدّث رسول الله ﷺ ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يارسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لَمَا أخبرتنى فى أى العشر هى ؟ فغضب على غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته ، وقال : «التمسوها فى السبع الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » .ورواه النسائى (٢) .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة بعد النبى ﷺ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذى سنورده بعدُ من قوله ، عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم » ؛ لأن المراد رفعُ عِلْم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر

---

(١) مالك فى الموطأ (١/ ٣٢١) (١٥) .
(٢) المسند (٥/ ١٧١) والنسائى (٣٤٢٧).

الشهور ، لا كما رُوى عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد فى جميع السنة ، وترجى فى جميع الشهور على السواء .

فصل : ثم قد قيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى قال : اعتكف رسولُ الله ﷺ العشر الأوَل من رمضان واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : إن الذى تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال :إن الذى تطلب أمامك . ثم قام النبى ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها فى العشر الأواخر فى وِتْر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء ». وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نَرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قَزَعَة فَمُطرنا ، فصلى بنا النبى ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه . وفى لفظ : « فى صبح إحدى وعشرين » أخرجاه فى الصحيحين (١) . قال الشافعى : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس فى « صحيح مسلم » (٢) وهو قريب السياق من رواية أبى سعيد ، فالله أعلم .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » (٣) . فَسَّره كثيرون بليالى الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبى سعيد ، أنه حمله على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : « إنها ليلة سبع وعشرين » (٤) . روى الإمام أحمد عن زرّ : سألت أبىّ بن كعب قلت: أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِمُ الحَولَ يُصبْ ليلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها فى شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال: بالعلامة ـ أو : بالآية ـ التى أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس .وقد رواه مسلم، عن أبى ، فذكره ، وفيه : فقال: والله الذى لا إله إلا هو ، إنها لفى رمضان ـ يحلف بما يستثنى ـ والله إنى لأعلم أى ليلة القدر هى التى أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هى ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها (٥) . وفى الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم، عن رسول الله ﷺ : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجَادّة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبى حنيفة أيضاً . وقد حُكِىَ عن بعض

(١) البخارى (٢٠١٨) ومسلم (١١٦٧/ ٢١٣) .
(٢) مسلم (١١٦٨/ ٢١٨) .
(٣) البخارى (٢٠٢١) .
(٤) مسلم (٧٦٢/ ١٧٩) .
(٥) المسند (٥/ ١٣٠) ومسلم ، السابق .

السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون في ليلة تسع وعشرين . روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى » (١) . تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له : ألتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية ؟ يقول: « نعم ». وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنة: لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه. وروى عن أبي قِلابَة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر (٢) .

وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك ، والثوري ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه، وأبو ثور، والمزني ، وأبو بكر بن خُزَيمة ، وغيرهم . وهو محكي عن الشافعي ـ نقله القاضي عنه، وهو الأشبه ـ والله أعلم. وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عُمر : أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان مُتحريها فَلْيَتَحرها في السبع الأواخر» (٣) . وفيهما أيضاً عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان » (٤) . ولفظه للبخاري .

ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخاري في صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ، فَتَلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : « خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فَرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » (٥) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تَعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : « فتلاحى فلان وفلان فرفعت » : فيه استئناس لما يقال : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع .

وقوله : « فرفعت » أي : رفع علم تَعينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : « فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » .

---

(١) المسند (٢/ ٥١٩) .
(٢) الترمذي (٣/ ١٥٩) .
(٣) البخاري (٢٠١٥)ومسلم (١١٦٥/ ٢٠٥) .
(٤) البخاري (٢٠١٧) ومسلم (١١٦٩/ ٢١٩).
(٥) البخاري (٢٠٢٣) .

وقوله : « وعسى أن يكون خيراً لكم » يعنى : عدم تعيينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طُلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأواخر أكثر. ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان،حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجهُ من بعده. أخرجاه من حديث عائشة [1] . ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان [2] .

وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر . أخرجاه [3] . ولمسلم عنها : كان رسول الله ﷺ يجتهد فى العشر ما لا يجتهد فى غيره [4] .

وهذا معنى قولها : « وشد المئزر » . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقى عشر من رمضان شَدّ مئزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد [5] .

والمستحب الإكثار من الدعاء فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عنى»؛ لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عنى » .

وقد رواه الترمذى، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : هذا صحيح على شرط الشيخين [6] .

---

(١) البخارى (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢/٣) .
(٢) البخارى (٢٠٢٥) ومسلم (١١٧١/١) .
(٣) البخارى (٢٠٢٤) ومسلم (١١٧٤/ ٧) .
(٤) مسلم (١١٧٥/٨) .
(٥) المسند (٦٦/٦) .
(٦) المسند (١٨٢/٦) والترمذى (٣٥١٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٨) وابن ماجه (٣٨٥٠) والحاكم (١/ ٥٣٠)، وصححه الألبانى .

تفسير سورة لم يكن
وهى مدنية

روى الإمام أحمد عن أبى حَيَّة البدرى ـ وهو: مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى ـ قال: لما نزلت : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إلى آخرها ، قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبياً. فقال النبى ﷺ لأُبى: « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة ». قال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فبكى أبى [١] . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ » قال: وسمانى لك ؟ قال : « نعم ». فبكى. ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى [٢] . وروى أحمد عن أبى بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن ». قال : فقرأ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح [٣].

وإنما قرأ عليه النبى ﷺ هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه ـ كما رواه ، أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى [٤] ـ كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبى ﷺ فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : «أصبت » . قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، قال أبى : فَفضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقلت :« أسأل الله معافاته ومغفرته ». فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم. وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال: « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ » .

---

(١) المسند (٣/ ٤٨٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٣٠) والبخارى (٤٩٥٩) ومسلم (٧٩٩/ ٢٤٥) والترمذى (٣٧٩٢) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩١) .

(٣) المسند (٥/ ١٣١) والترمذى(٣٧٩٣) .

(٤) المسند (٥/ ١٢٧) ومسلم (٨٢٠ / ٢٧٣) وأبو داود (١٤٧٨) والنسائى (٩٤٠) .

قال : لا ، قال: « فإنك آتيه ، ومطوِّف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ الآية [الفتح: ٢٧] ، كما تقدم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾

أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى ، والمشركون : عَبَدةُ الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد :لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعنى: منتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى: هذا القرآن ؛ولهذا قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾. ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملأ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٣ـ ١٦] .

وقوله: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ قال ابن جرير: أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل .قال قتادة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾: يذكر القرآن بأحسن الذكر ،ويثنى عليه بأحسن الثناء.وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة. وقوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيرا .

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

(١) مضى تخريجه عند تفسير هذه الآية .
(٢) عند الآية (١٦١) .

وهى أشرف عبادات البدن ، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة . وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهرى والشافعى، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨) ﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة : أنهم يوم القيامة ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذرأها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار ـ الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ـ بأنهم خير البرية .وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ؛ لقوله :﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم. وقوله: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ أى: هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

تفسير سورة إذا زلزلت
وهى مكية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئنى يا رسول الله . قال له : « اقرأ ثلاثا من ذات الر ». فقال له الرجل : كبر سنى واشتد قلبى ، وغلُظ لسانى . قال: « فاقرأ من ذات حم » ، فقال مثل مقالته الأولى. فقال : « اقرأ ثلاثا من المسبحات »، فقال مثل مقالته . فقال الرجل : ولكن أقرئنى ـ يا رسول الله ـ سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجلُ : والذى بعثك بالحق ، لا أزيد عليها أبداً . ثم أدبر الرجل ،فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ! أفلح الرويجل ! » ثم قال : «علَىَّ به » . فجاءه فقال له : « أمرْتُ بيوم الأضحى جعله الله عيدا لهذه الأمة » . فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا مَنيحَة أنثى فأضحى بها ؟ قال: « لا، ولكنك تأخذ من شعرك ،وتقلم أظفارك ، وتقص شاربك، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله ، عز وجل » .وأخرجه أبو داود والنسائى (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أى: تحركت من أسفلها . ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعنى : ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج:١] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق:٣،٤] . وروى مسلم عن أبى هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ :« تَقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجىء القاتل فيقول: فى هذا قَتَلْتُ ، ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قَطَعْتُ رحمى، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطِعت يدى ، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً » (٢).

---

(١) المسند (٦٥٧٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (١٣٩٩) والنسائى (٤٣٦٥) .
(٢) مسلم (١٠١٣/ ٦٢) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ أى : استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار. وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أى: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. روى الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: « أتدرون ما أخبارها ؟ ». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِل على ظهرها ، أن تقول: عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب (١) .

وقوله: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾: قال البخارى: أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها : واحد (٢) . وكذا قال ابن عباس: ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى: أوحى إليها .والظاهر أن هذا مُضَمَّنٌ بمعنى أذن لها. وقال ابن عباس :﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت . وقال مجاهد : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أمرها . وقال القُرَظى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب ، ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار .قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم .وقال السُّدِّى : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ : فرقا. وقوله تعالى: ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر . ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

روى البخارى عن أبى هُرَيرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ؛فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طِيَلها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنا ،ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شرَفا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يَسقَى به كان ذلك حسنات له، وهى لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تَغَنيا وتعففا، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ،فهى له ستر. ورجل ربطها فخراً ورئاء ونواء ، فهى على ذلك وزر » . فسُئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ، فقال: « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . ورواه مسلم (٣) .

---

(١) المسند (٢/ ٣٧٤) والترمذى (٣٣٥٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩٣) .

(٢) البخارى (٨ / ٧٢٦ فتح) .

(٣) البخارى (٤٩٦٢) ومسلم (٩٨٧/ ٢٤) .

وفى صحيح البخارى، عن عَدى مرفوعا: «اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، ولو بكلمة طيبة» (١).

وفى الصحيح : « لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » (٢) .

وفى الصحيح أيضاً : « يا نساء المؤمنات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة » (٣) يعنى : ظلفها .

---

(١) البخارى (٧٥١٢) .

(٢) مسلم (٢٦٢٦/١٤٤) .

(٣) البخارى (٢٥٦٦) .

تفسير سورة العاديات
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾ ربع

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت فى سبيله فَعَدت وضَبَحت ، وهو : الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو . ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى : اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار . ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ يعنى : الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان ، فإن سمع أذانا وإلا أغار .

وقوله﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ يعنى : غباراً فى مكان معترك الخيول . ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أى : توسطن ذلك المكان كُلُّهن جُمعَ .عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ قال : الإبل. وقال على : هى الإبل . وقال ابن عباس : هى الخيل . فبلغ عليا قولُ ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك فى سرية بعثت .

روى ابن أبى حاتم وابن جرير : عن ابن عباس ، قال : بينا أنا فى الحِجْر جالساً ، جاءنى رجل فسألنى عن :﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾، فقلت له : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عنى فذهب إلى على ،وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقال :سألت عنها أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير فى سبيل الله . قال: اذهب فادعه لى . فلما وقف على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ،والله لئن كان أولَ غزوة فى الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فَرَسان: فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى .قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ورجعت إلى الذى قال على، رضى الله عنه . وقد قال بقول على : إنها الإبل جماعة . منهم: إبراهيم ، وعبيد بن عمير وبقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد وعكرمة، وعطاء وقتادة، والضحاك. واختاره ابن جرير. وقال أكثر هؤلاء فى قوله: ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعنى: بحوافرها. وقيل: أسعَرْنَ الحرب بين رُكبانهن. قاله قتادة. وعن ابن عباس ومجاهد : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾

يعنى : مكر الرجال . وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل .وقال ابن جرير : والصواب الأول ؛ أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صبحاً فى سبيل الله .وقال من فسرها بالإبل : هو الدفع صبحا من المزدلفة إلى منى .وقالوا كلهم فى قوله: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ هو : المكان الذى إذا حلت فيه أثارت به الغبار ، إما فى حج أو غزو . وقوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال ابن عباس ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جَمع الكفار من العدو .ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جَميعُهُن ، ويكون ﴿ جَمْعًا ﴾ منصوباً على الحال المؤكدة . وقوله :﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، بمعنى : أنه بنعم ربه لجحود كفور . قال ابن عباس ، ومجاهد ،وإبراهيم النَّخعِى ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، الكنود : الكفور. قال الحسن : هو الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه . وقوله :﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثورى :وإن الله على ذلك لشهيد . ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظى، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد ،أى : بلسان حاله ،أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة:١٧] .

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى :وإنه لحب الخير ـ وهو :المال ـ لشديد. وفيه مذهبان :

أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال .والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال . وكلاهما صحيح . ثم قال تعالى مُزَهِّدا فى الدنيا ، ومُرَغِّباً فى الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

تفسير سورة القارعة
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾: من أسماء القيامة، كالحاقة ، والطامة ، والصاخة ،والغاشية ، وغير ذلك .

ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولا لشأنها : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أى : فى انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، من حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث ، كما قال فى الآية الأخرى:﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر:٧] . وقوله: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ يعنى: قد صارت كأنها الصوف المنفوش ، الذى قد شرَع فى الذهاب والتمزق. قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة: ﴿ الْعِهْنِ ﴾: الصوف .

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة ، بحسب أعمالهم ، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى: رجحت حسناته على سيئاته ، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ يعنى : فى الجنة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت سيئاته على حسناته . وقوله :﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قيل : معناه : فهو ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم . وَعَبَّر عنه بأمه ـ يعنى دماغَه ـ رُوى نحو هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، قال قتادة : يهوى فى النار على رأسه. وقيل : معناه : ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وهى اسم من أسماء النار . قال ابن جرير: وإنما قيل: للهاوية أمه ؛ لأنه لا مأوى له غيرها . وقال ابن زيد : الهاوية : النار ، هى أمه ومأواه التى يرجع إليها ويأوى إليها ، وقرأ : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ [آل عمران:١٥١] . وعن قتادة أنه قال : هى النار ، وهى مأواهم . ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهيب والسعير . عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال: «نار بنى آدم التى تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم». قالوا : يا رسول الله، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فُضِّلَت عليها بتسعة

وستين جُزءاً » . رواه البخارى وفى بعض ألفاظه: « إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلهن مثل حرّها » (١) .

وروى الإمام أحمد :عن أبى هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « نار بنى آدم التى توقدون ،جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ». فقال رجل : إن كانت لكافية . فقال : « لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حَرّاً فحرا » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» . وهذا على شرط الصحيحين، ولم يخرجوه من هذا الوجه، وقد رواه مسلم (٣) . وقد روى الإمام أحمد: عن أبى هُريرة، عن النبى ﷺ قال : « هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم » (٤) . تفرد به أيضاً من هذا الوجه، وهو على شرط مسلم أيضا. وروى أبو القاسم الطبرانى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٥) . وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنَفَسين : نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف . فأشد ما تجدون فى الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون فى الصيف من حرها » (٦) . وفى الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فَيح جهَنم » (٧) .

---

(١) البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣/ ٣٠) . (٢) المسند (٢/ ٤٦٧) .
(٣) المسند (٢/ ٢٤٤) ومسلم (٢٨٤٣/ ٣٠) . (٤) المسند (٢/ ٣٧٩) .
(٥) الطبرانى فى الأوسط (٤٨٤٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٣٩٠) :« رجاله رجال الصحيح » .
(٦) البخارى (٣٢٦٠) . (٧) البخارى (٥٣٣) ومسلم (٦١٥ / ١٨٠) .

تفسير سورة التكاثر
وهى مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾

يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟! وقال الحسن البصرى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فى الأموال والأولاد .وفى صحيح البخارى عن أبى بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعنى: « لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب » [(١)] .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشِّخِّير ، عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ؟ » . ورواه مسلم والترمذى [(٢)].

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« يقول العبد : مالى مالى ! وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقتنى [(٣)]، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .تفرد به مسلم [(٤)] . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: « يتبع الميت ثلاثةٌ ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » . وكذا رواه مسلم والترمذى [(٥)]. وروى الإمام أحمد عن أنس : أن النبى ﷺ قال : «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان : الحرص والأمل » . أخرجاه فى الصحيحين[(٦)] . والمراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى : صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، طهور

---

(١) البخارى (٦٤٣٧) .

(٢) المسند (٤/ ٢٤) ومسلم (٢٩٥٨/ ٣) والترمذى (٣٣٥٤)

(٣) فى المطبوعة :« فأمضى» والمثبت من المخطوطة ومسلم .

(٤) مسلم (٢٩٥٩ / ٤).

(٥) البخارى (٦٥١٤) ومسلم (٢٩٦٠/ ٥) والترمذى (٢٣٧٩) .

(٦) المسند (٣/ ١١٥) والبخارى (٦٤٢١) ومسلم (١٠٤٧/ ١١٦).

إن شاء الله ». فقال : قلت : طَهُور ؟! بل هى حمى تفور ، على شيخ كبير ، تُزيره القبور ! قال : «فَنَعَم إذاً » (١).

وقوله : ﴿ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال الحسن البصرى : هذا وعيد بعد وعيد . وقال الضحاك: ﴿ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى: لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله: ﴿ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تَوعَّدَهم بهذا الحال ، وهى رؤية النار (٢) ، التى إذا زفرت زفرة خَرَّ كل ملك مقرب ، ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال . وقوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى : ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبى ﷺ فقال: « ما أجلسكما هاهنا ؟ » قالا : والذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال : «والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبى ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحبا ، ما زار العباد أفضل من شىء زارنى اليوم . فعلق قِرْبَتَه بكرب نخلة ، وانطلق فجاءهم بعذْق، فقال النبى ﷺ : « ألا كنت اجتنيت » ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبى ﷺ : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبى ﷺ : «لتسئلن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » ورواه مسلم وأهل السنن (٣) . وروى أحمد عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا فى مجلس فطلع علينا النبى ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ،فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس . قال : « أجل » . قال : ثم خاض الناس فى ذكر الغنى ،فقال رسول الله ﷺ: « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » . ورواه ابن ماجه (٤). وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « إن أول ما يسأل

(١) البخارى (٥٦٦٢ ، ٥٦٥٦ ، ٧٤٧٠) .

(٢) فى المطبوعة :« رؤية أهل النار » .ولا معنى لزيادة « أهل » .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ١٨٥) ومسلم (٢٠٣٨ / ١٤٠) وأبو داود (٥١٢٨) والترمذى (٢٣٦٩، ٢٨٢٢) .

(٤) المسند (٥/ ٣٧٢) وابن ماجه (٢١٤١) وفى زوائد البوصيرى :« هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

عنه ـ يعنى يوم القيامة ـ العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحّ لك جسمك ، ونُرْوكَ من الماء البارد ؟ ». ورواه ابن حبان فى صحيحه (١) . وعن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا: يا رسول الله ، لأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال: « إن ذلك سيكون» . رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد ، وقال الترمذى : حسن (٢) . وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قِلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقى . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٦] . وثبت فى صحيح البخارى ، وسنن الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (٣) . ومعنى هذا : أنهم مقصرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله ، عز وجل ـ يوم القيامة : يابن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ، وزوجتك النساء ، وجعلتك تَرْبَع وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ » (٤) . تفرد به من هذا الوجه .

---

(١) الترمذى (٣٣٥٨) وصححه الألبانى وابن حبان فى صحيحه (٧٣٢٠ إحسان) .

(٢) الترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٨) وحسنه الألبانى وهو فى المسند (٥/٤٢٩) .

(٣) البخارى (٦٤١٢) والترمذى (٢٣٠٤) وابن ماجه (٤١٧٠) .

(٤) المسند (٢/٤٩٢) ورواه مسلم (١٦/٢٩٦٨) .

تفسير سورة العصر
وهى مكية

روى الطبرانى عن عبد الله بن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر (١) . وقال الشافعى لو تدبر الناس هذه السورة ، لوسعتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

العصر : الزمان الذى يقع فيه حَركاتُ بنى آدم ، من خير وشر. وقال زيد بن أسلم : هو العَشى، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر، أى : فى خسارة وهلاك ، ﴿ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٥٠٩٧).

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) ﴾

الهماز بالقول ، واللماز بالفعل . يعنى: يزدرى الناس وينتقص بهم . وقد تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] .

قال ابن عباس: ﴿ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾: طعان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهُمَزة : يهمزه فى وجه، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس، ويطعنُ عليهم. وقال مجاهد : الهمزة : باليد والعين ، واللمزةُ : باللسان . وهكذا قال ابن زيد ، وزيد ابن أسلم : هُمَزة لحوم الناس. ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شَرِيق. وقيل غيره. وقال مجاهد : هى عامة .

وقوله :﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ أى : جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله : ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ [المعارج:١٨] . قاله السدى، وابن جرير. وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾: ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل ، نام كأنه جيفة منتنة.

وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾أى: يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار ؟ ﴿ كَلا ﴾ أى: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى: ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالاً فعدده فى الحطمة وهى اسم طبقة من أسماء النار؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال :﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ قال ثابت البنانى : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكى . وقال محمد بن كعب : تأكل كل شىء من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده حَذْوَ حلقه ترجع على جسده .

وقوله :﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى : مطبقة كما تقدم تفسيره فى سورة البلد .

وقوله: ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ قال عطية العوفى: عمد من حديد . وقال السُّدِّى : من نار . وعن ابن عباس :﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ يعنى : الأبواب هى الممدودة . وقال قتادة فى قراءة عبد الله

ابن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممدة . وقال العوفى، عن ابن عباس : أدخلهم فى عَمَد فمدت عليهم بعماد ، وفى أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب .وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد فى النار . واختاره ابن جرير .وقال أبو صالح : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ، يعنى القيود الطوال .

تفسير سورة الفيل
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذلك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول : لم ينصركم ـ يا معشر قريش ـ على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمى محمد ﷺ خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، وقد تقدم فى قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نُوَاس ـ وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً ـ هو الذى قتل أصحاب الأخدود ، وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ،فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانياً ـ فكتب له إلى النجاشى ملك الحبشة ، لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرباط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم ، فى جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ،وهلك ذو نواس غريقاً فى البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرباط وأبرهة ، فاختلفا فى أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الحبشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخَلْفَ كل واحد منهما قناة ، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عَتَوْدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله ، ورجع أبرهة جريحاً ، فداوى جرحه فَبَرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب إليه النجاشى يلومه على ما كان منه ، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزً ناصيته . فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ،

ويقول فى كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيسير قسمه، وهذه ناصيتى قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضى عنه، وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشى: إنى سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع فى بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمتها العرب القُدَّيس ؛ لارتفاعها ، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حَجَ العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك فى مملكته ،فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش غضباً شديداً ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً . فأحدث فيها وكرَ راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذى ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة ، وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن فتية من قريش دخلوا فأججوا فيها ناراً ،وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار فى جيش كثيف عَرَمرم لئلا يصده أحد عنه ، واستصحب معه فيلا عظيما كبير الجثة لم ير مثله . يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشى ملك الحبشة لذلك ، ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال ،وقيل : اثنا عشر فيلا غيره ، فالله أعلم . يعنى ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل فى الأركان ، وتوضع فى عُنُق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت ، ورَد من أراده بكيد . فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له « ذو نَفْر » فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريده من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريده الله ـ عز وجل ـ من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذو نَفْر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نُفَيل بن حَبيب الخَثْعمى فى قومه : شَهْرَان (١) وناهس، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ،وأسر نُفَيل بن حبيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله فى بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ،خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذى عندهم ، الذى يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رغَال » دليلاً . فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمْس ـ وهو قريب من مكة ـ نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان فى السرح مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذى أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : « الأسود بن مَفْصود » فهجاه بعض العرب ـ فيما ذكره ابن إسحاق ـ وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة ، وأمره أن يأتيه

---

(١) فى المطبوعة : « شهدان » بالدال المهملة بعد الهاء ، وهو خطأ .قال فى القاموس : « وشَهْرَان بن عِفرِس أبو قبيلة من خثعم» (مادة : شهر) .

بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدُّوه عن البيت . فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ،هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلى بينه وبينه ، فو الله ما عندنا دَفْع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معى إليه. فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً [1] حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره ،وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له: ما حاجَتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتى أن يردّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه: قل له : لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زَهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائكَ قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمنى فيه ؟! فقال له عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال : ما كان ليمتنع منى ! قال: أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ،والتحصن فى رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ،وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ،وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ إنَّ المرء يمـ ـنَعُ رَحْلَه فامْنع حلالَك
لا يغلبنَّ صَلِيبُهم ومحَالُهم غدواً مِحَالك

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب ، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال .

وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة ، لعل بعض الجيش ينال منها شيئا بغير حق ، فينتقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ،وهيأ فيله ـ وكان اسمه محموداً ـ وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : « ابرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه ،فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى . فضربوا فى رأسه بالطَّبرزين وأدخلوا محاجن لهم فى مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف

(١) فى المطبوعة :« جسيما » والمثبت من المخطوطة .

والبَلَسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعَدسَ ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق. هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول :

أينَ المَفَرُّ ؟ والإلهُ الطَّالب والأشرمُ المغلوبُ غير الغالب

قال ابن إسحاق : وقال نُفَيل فى ذلك أيضاً :

ألا حُيِّيت عَنَّا يا رُدَينا نَعمْناكُم مَعَ الإصبَاح عَينَا
رُدَينةُ ، لَو رأيت ـ ولَا تَرَيْه لَدَى جَنْب المحَصَّب ـ ما رَأينَا
إذا لَعَذَرتنى وَحَمَدت أمْرى وَلَم تأسى عَلَىَ مَا فَات بَيْنَا
حَمدتُ الله إذ أبصَرتُ طيراً وَخفتُ حَجارة تُلْقَى عَلَينا
فَكُلّ القَوم يَسألُ عَن نُفَيل كَأنَّ عَلىَّ للحُبْشَان دَينَا !

وذكر الواقدى بإسناده أنهم لما تعبؤوا لدخول الحرم وهيؤوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها ، فإذا وجهوه إلى الحرم رَبَض وصاح .وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل فى ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم المطعم بن عدى ، وعمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم، ومسعود بن عمرو الثقفى، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجاب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل ، أى قِطَعًا قِطَعًا صفرا دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاؤوا بفيلين فأما محمود فَرَبض ، وأما الآخر فَشَجُع فحُصِب . وقال وهب بن مُنَبِّه : كان معهم فيلة ، فأما محمود ـ وهو فيل الملك ـ فربض ، ليقتدى به بقية الفيلة، وكان فيها فيل تَشَجَّع فحصب، فهربت بقية الفيلة. وقال عطاء بن يَسَار، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب فى الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون ،وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً ، حتى مات ببلاد خثعم .

وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده ،وخرجوا به معهم يسقط أنمُلة أنمُلة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم ،وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . وقال ابن إسحاق : وحدثنى يعقوب

ابن عُتْبَة : أنه حدث أن أول ما رؤيت الحَصبة والجُدرى بأرض العرب ذلك العام . وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمدا ﷺ كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمَته عليهم وفضله، ما ردّ عنهم من أمر الحبشة ،لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ . ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش] أى : لئلا يغير شيئاً من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام: الأبابيل: الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة . قال: وأما السجيل ، فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب. قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سَنْج وجل يعنى بالسنج : الحجر ،والجِلَ : الطين. يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين .قال: والعصفُ : ورقُ الزرع الذى لم يُقضب، واحدته عصفة . انتهى ما ذكره . وقال ابن عباس ، والضحاك: أبابيل: يتبع بعضها بعضا. وقال الحسن البصرى ، وقتادة : الأبابيل : الكثيرة . وقال مجاهد : أبابيل : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبابيل : المختلفة، تأتى من هاهنا، ومن هاهنا ، أتتهم من كل مكان. وقال السُّدِّى، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ حِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال : طين فى حجارة .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هبور . وفى رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصرى . وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

والمعنى : أن الله،سبحانه وتعالى ،أهلكهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ،فإنه انصدع صَدْرُه عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بما جرى لهم ، ثم مات. فملك بعده ابنه يكسُوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذى يَزَن الحميرى إلى كسرى فاستعانه على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان فى آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة .

وقد قدمنا فى تفسير « سورة الفتح » (١) أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحَّت ، فقالوا : خلأت القصواء، أى: حَرَنت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق ،ولكن حبسها

(١) راجع تفسير الآية (٢٦) .

حابس الفيل ». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم خطة يُعَظمون فيها حُرُمات الله، إلا أجبتهم إليها » . ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخارى [1] .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسَلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حُرمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » [2] .

---

(١) وهو فى البخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) البخارى (١١٢) ومسلم (١٣٥٥/٤٤٧).

تفسير سورة لإيلاف قريش
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

هذه السورة متعلقة بما قبلها . كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿ لإيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ أى: لائتلافهم واجتماعهم فى بلدهم آمنين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام فى المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين فى أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله ، فمن عَرَفهم احترمهم ، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم . هذا حالهم فى أسفارهم ورحلتهم فى شتائهم وصيفهم . وأما فى حال إقامتهم فى البلد ، فكما قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] . ولهذا قال : ﴿لإيلافِ قُرَيْشٍ . إِيلافِهِمْ﴾، بدل من الأول ومفسر له. ولهذا قال: ﴿ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾.

وقال ابن جرير: الصواب أن « اللام » لام التعجب ، كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتى عليهم فى ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان .

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أى: فليوحدوه بالعبادة ، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٩١] .

وقوله : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ أى : هو رب البيت ، وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أى: تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَعَ الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] .

تفسير السورة التى يذكر فيها الماعون
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾

يقول تعالى : أرأيت ـ يا محمد ـ الذى يكذب بالدين ؟ وهو : المعاد والجزاء والثواب ، ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أى : هو الذى يقهر اليتيم ويظلمه حقه ،ولا يطعمه ولا يحسن إليه ، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر:١٧، ١٨] يعنى : الفقير الذى لا شىء له يقوم بأوده وكفايته .

ثم قال :﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾، قال ابن عباس ، وغيره : يعنى المنافقين، الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر .ولهذا قال :﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية ،كما قاله ابن عباس ، وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعا ، فيخرجها عن وقتها بالكلية ، كما قاله مسروق ، وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار : والحمد لله الذى قال: ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، ولم يقل : فى صلاتهم ساهون.

وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا . وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية . ومن اتصف بجميع ذلك ، فقد تم نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملى. كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُب الشمس ، حتى إذا كانت بين قَرْنَى الشيطان قام فَنَقَرَ أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (١) . فهذا آخر صلاة العصر التى هى الوسطى ، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب ، لم يطمئن ولا خَشَع فيها أيضا ؛ ولهذا قال: « لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » . ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس ، لا ابتغاء وجه الله ، فهو إذاً لم يصل بالكلية . قال

(١) مسلم (٦٢٢ / ١٩٥) ولم يعزه صاحب التحفة (١/ ٢٩٦) للبخارى .

تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً ﴾ [النساء:١٤٢] . وقال هاهنا : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « من سَمَّع الناس بعمله ، سَمَّع الله به سامعَ خلقه ، وحَقَّره وصَغَّره » (١) .

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ، أو صلاتها بعد وقتها شرعا ، أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرُبات أولى وأولى. وقد قال مجاهد : قال على: الماعون : الزكاة . وكذا رواه السدى ، عن أبى صالح ، عن على. وكذا روى من غير وجه عن ابن عمر .وبه يقول محمد بن الحنفية، وسعيد بن جبير ، وعِكْرِمة، ومجاهد .

وقال الحسن البصرى : إن صلى راءى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفى لفظ:صدقة ماله.وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ،وخفيت الزكاة فمنعوها.وقال يحيى بن الجزار : إن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس ، والقدر ، والدلو.

وروى ابن جرير عن عبد الله قال: كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن الماعون الدلوُ، والفأس ، والقدر ، لا يستغنى عنهن (٢) .

وعن أبى إسحاق قال : سمعت سعدَ بن عياض يحدث عن أصحاب النبى ﷺ مثله . وعن عبد الله: أنه سئل عن الماعون، فقال : ما يتعاوره الناس بينهم: الفأس والدلو، وشبهه .

وقال ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يعنى : متاع البيت . وكذا قال مجاهد وإبراهيم النَّخعى، وسعيد ابن جبير ، وغير واحد : إنها العاريَّة للأمتعة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : لم يجئ أهلها بعد.

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاةُ المال ،وأدناه المنخل ، والدلو ، والإبرة . رواه ابن أبى حاتم . وهذا الذى قاله عكرمة حسن ؛ فإنه يشمل الأقوال كلها ،وترجع كلها إلى شىء واحد. وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : المعروف . ولهذا جاء فى الحديث : « كل معروف صدقة » (٣) .

---

(١) المسند (٦٩٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » وهو فى المسند أيضاً برقم (٦٥٠٩) وقال الشيخ شاكر : «إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠/٢٠٥) . (٣) البخارى (٦٠٢١) ومسلم (١٠٠٥ / ٥٢) .

تفسير سورة الكوثر
وهى مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾

قد ورد فى صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَب فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر، وأن آنيته عددَ نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائى، ولفظ مسلم قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسم ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : « أنزلت على آنفا سورة » ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾. ثم قال: « أتدرون ما الكوثر ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم. قال: « فإنه نهر وَعَدنيه ربى ، عز وجل ،عليه خير كثير ،هو حوض تَرِدُ عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، فَيختلجُ العبد منهم ، فأقول: رب إنه من أمتى. فيقول: إنك لا تدرى ما أحدث بعدك » (١) . وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة ، وأنها منزلة معها .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فقد تقدم فى هذا الحديث أنه نهر فى الجنة . وقد رواه الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾. قال : قال رسول الله ﷺ: « أعطيتُ الكوثر ، فإذا هو نهر يجرى ، ولم يُشقْ شقاً ،وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ ، فضربت بيدى فى تربته ، فإذا مسكه ذَفِرَة ، وإذا حصاه اللؤلؤ » (٢) . روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر ، حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء ، فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاكه الله ، عز وجل ».ورواه البخارى ومسلم، عن أنس بن مالك قال :لما عُرِجَ بالنبى ﷺ إلى السماء قال :« أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » . وهذا لفظ البخارى (٣) . وروى ابن جرير عن شريك بن أبى نمر، قال :

---

(١) مسلم (٤٠٠ / ٥٣) وأبو داود (٤٧٤٧) والنسائى فى الكبرى (١١٧٠٢) .

(٢) المسند (٣/ ١٥٢) ورواه الترمذى (٣٣٦١) وقال: « حسن صحيح » .

(٣) المسند (٣/ ١٠٣) والبخارى (٤٩٦٤) وعزاه صاحب التحفة (١/ ٣٣٧) للبخارى ومسلم ثم قال : « حديث مسلم هذا لم يذكره أبو السعود »، وقال صاحب النكت الظراف : « أورده الحميدى فى أفراد البخارى » .

سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، مضى به جبريل فى السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يَشمّ تُرَابه ، فإذا هو مسك . قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذى خبَأ لك ربك » . وهو مخرج فى الصحيحين[١] .

ورى البخارى عن أبى عبيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، قالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرّ مجوف ،آنيته كعدد النجوم . ورواه أحمد والنسائى[٢] . ثم قال البخارى عن ابن عباس أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يَزْعُمون أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد: النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه [٣] . وعن ابن عباس قال: الكوثر : الخير الكثير [٤]. وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة .وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضا ، فروى ابن جرير عن ابن عباس قال : الكوثر: نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل[٥] .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ،والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ». وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى: حسن صحيح [٦].

وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهرُ الذى تقدم صفته فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له . كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، قال ابن عباس، وعطاء ، ومجاهد،وعكرمة ، والحسن: يعنى بذلك نحر البُدْن ونحوها. وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظى، والضحاك وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر . يُروَى

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٣٠/٢٠٧) والبخارى (٧٥١٧) ومسلم (١٦٢/٢٦٢) .
(٢) البخارى (٤٩٦٥) والمسند (٦/ ٨١) والنسائى فى الكبرى (٦١٧٠٥).
(٣) البخارى (٤٩٦٦) . (٤) البخارى (٦٥٧٨) .
(٥) ابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٢٠٧).
(٦) المسند (٦٤٧٦) والترمذى (٣٣٦١) وابن ماجه(٤٣٣٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح ».

هذا عن على، ولا يصح. وعن الشعبى مثله . وعن أبى جعفر الباقر : ﴿ وَانْحَرْ﴾ يعنى: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة . وقيل : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ أى : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وكل هذه الأقوال غريبة جدا. والصحيح القول الأول : أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلى العيد ، ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له ». فقام أبو بردة ابن نيار فقال: يا رسول الله ، إنى نَسكتُ شاتى قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم . قال : « شاتك شاة لحم». قال: فإن عندى عناقا هى أحب إلىَّ من شاتين ، أفتجزئ عنى ؟ قال: « تجزئك، ولا تجزئ أحداً بعدك » [1]. قال ابن جرير : والصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير ، الذى لا كِفَاء له ، وخصك به. وهذا الذى قاله فى غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى : محمد بن كعب القرظى ، وعطاء .

وقوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ أى : إن مبغضك ـ يا محمد ـ ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه . قال ابن عباس ، ومجاهد، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت فى العاص بن وائل . وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة . وقال شَمِر بن عطية : نزلت فى عقبة بن أبى مُعَيط . وقال ابن عباس أيضا، وعكرمة : نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وروي البزار: عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية ؟ فقال: أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ . هكذا رواه البزار [2] ، وهو إسناد صحيح . وقال عطاء : نزلت فى أبى لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بُتِرَ محمد الليلة . فأنزل الله فى ذلك :﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .وعن ابن عباس : نزلت فى أبى جهل . وعنه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ يعنى : عدوك . وهذا يَعُمُّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذكر ، وغيرهم . وقال عكرمة : الأبتر : الفرد . وقال السُّدِّى : كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا : بُتر . فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد . فأنزل الله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ . وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذى إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

---

(١) البخارى (٩٨٣) .

(٢) البزار فى المسند (٢٢٩٣ كشف الأستار) .

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون
وهى مكية

ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى ركعتى الطواف [(١)] . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب،بضعا وعشرين مرة ـ أو: بضع عشرة مرة ـ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [(٢)] . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رمقت النبى ﷺ أربعاً وعشرين ـ أو : خمسا وعشرين ـ مرة ، يقرأ فى الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [(٣)] . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رَمقتُ النبى ﷺ شهراً ، وكان يقرأ فى الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وكذا رواه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن [(٤)]. وروى أبو القاسم الطبرانى عن جبلة بن حارثة ـ وهو أخو زيد بن حارثة ـ أن النبى ﷺ قال : «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك » [(٥)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦) ﴾

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون، وهى آمرة بالإخلاص فيه،فقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون ﴾ شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفارُ قريش. وقيل : إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعنى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له . فـ « ما » هاهنا بمعنى «من » .

ثم قال :﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ﴾ أى: ولا أعبد عبادتكم ، أى : لا

(١) مسلم (١٢١٨/١٤٧)

(٢) المسند (٤٧٦٣) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٥٧٤٢) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٥٦٩١) والترمذى (٤١٧) وابن ماجه (١١٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

(٥) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٢٨٧) (٢١٩٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ١٢٤) : « رجاله وثقوا » .

أسلكها ولا أقتدى بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أى : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٣] ، فتبرأ منهم فى جميع ما هم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أى : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:٤١] ، وقال : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص:٥٥] . وقال البخارى : يقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ : الكفر ، ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ : الإسلام . ولم يقل : «دينى» لأن الآيات بالنون، فحذف الياء، كما قال: ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٧٨] ،و﴿ يَسْقِينِ (١) ﴾ [الشعراء:٧٩] . وقال غيره :لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم فيما بقى من عمرى،ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤] . انتهى ما ذكره (٢) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقول: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥ ، ٦] ، وكقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٦، ٧] . وحكاه بعضهم ـ كابن الجوزى، وغيره ـ عن ابن قتيبة ، فالله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولاً. الثانى: ما حكاه البخارى وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ : فى الماضى ، ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾فى المستقبل. الثالث :أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ : نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الإسمية آكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا . وهو قول حسن أيضا ، والله أعلم .

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فورَّث اليهود من النصارى وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ــ ما عدا الإسلام ــ كلها كالشىء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

---

(١) فى المطبوعة : ﴿يشفين ﴾ وهى الآية (٨٠) من الشعراء، وأثبتنا ما فى المخطوطة، وكلاهما جائز الاستدلال به .
(٢) البخارى (٨ / ٧٣٣ فتح) .
(٣) المسند (٦٨٤٤) وأبو داود (٢٩١١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح
وهى مدنية

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، و﴿ إذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل ربع القرآن [١] . وروى النسائى عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لى ابن عباس : يا بن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت : نعم ، ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾. قال: صدقت [٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَد فى نفسه ، فقال: لم يَدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رئيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون فى قول الله ، عز وجل: ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال: ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخارى. وروى ابن جرير عن ابن عباس ، فذكر مثل هذه القصة ، أو نحوها [٣].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما نَزَلَت : ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « نُعيَت إلىّ نفسى » بأنه مقبوض فى تلك السنة . تفرد به أحمد [٤] . وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وغير واحد : إنها أجل رسول الله ﷺ نُعى إليه . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبى ﷺ أنه قد نُعيت إليه نفسه ، فقيل : ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، السورة كلها [٥] . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه السورة : ﴿ إذَا

---

(١) راجع تفسير سورة الزلزلة .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٧١٣) ، ورواه مسلم (٣٠٢٤/٢١) .

(٣) البخارى (٤٩٧٠) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢١٥) .

(٤) المسند (١٨٧٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) المسند (٣٢٠١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابى حيز » . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مَرْوان : كذبت ـ وعنده رافع بن خَديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة. فرفع مروان عليه الدرة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالا: صدق (١) . تفرد به أحمد، وهذا الذى أنكره مروان على أبى سعيد ليس بمنكر، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ،ولكن إذا استنفرتم فانفروا». أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما (٢) .

فالذى فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، مِنْ أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره ـ معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبى ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ،فقال قائلون: هى صلاة الضحى. وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم يَنْو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات . وهكذا فعل سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين .

وروى البخارى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن.وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى (٣) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان توابا ، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » .ورواه مسلم (٤) .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوَّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل

---

(١) المسند (٣/ ٢٢) .

(٢) البخارى (١٣٤٩ ، ١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣/ ٤٤٥) .

(٣) البخارى (٤٩٦٨) ومسلم (٤٨٤/ ٢١٧) وأبو داود (٨٧٧) وابن ماجه (٨٨٩)

(٤) المسند (٦/ ٣٥) ومسلم (٤٨٤ / ٢٢٠) .

العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة .وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى . الحديث . وقد حَرَّرنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

تفسير سورة تبت
وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤ ﴾

روى البخارى عن ابن عباس : أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : «يا صباحاه ». فاجتمعت إليه قريش، فقال: « أرأيتم إنْ حَدثتكم أن العدوّ مُصبحكم أو مُمْسيكم ، أكنتم تصدقونى ؟ ». قالوا: نعم. قال: « فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد ». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك. فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، إلى آخرها (١). وفى رواية : فقام ينفض يديه، وهو يقول: تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) . الأول دعاء عليه، والثانى خبر عنه . فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه : عبد العُزّى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عُتبة . وإنما سمى « أبا لهب » لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه .

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، من بنى الديل ـ وكان جاهلياً فأسلم ـ قال : رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ،قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحولُ ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب (٣). ثم رواه عن سُرَيج ، عن ابن أبى الزناد ، عن أبيه ، فذكره ، قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيراً ؟ قال : لا ، والله إنى يومئذ لأعقل أنى أزفر القربة . تفرد به أحمد .

وقال ابن إسحاق : حدثنى حُسَين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة ابن عباد الديلى يقول : إنى لمع أبى رجل شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ـ ووراءه رجل أحول وضىء، ذو جُمَّة ـ يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بنى فلان،

---

(١) البخارى (٤٩٧٢) .
(٢) البخارى (١٣٩٤ ، ٣٥٢٥ ، ٤٨٠١).
(٣) المسند(٣٤١/٤) .

إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثني به ». وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلُخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الحى من بنى مالك بن أُقَيْش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب . رواه أحمد والطبرانى بهذا اللفظ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أى: خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أى : وقد تَبَّ تحققُ خسارته وهلاكه . وقوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عباس وغيره :﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعنى: ولده. ورُوى عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين مثله. وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخى حقا، فإنى أفتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى . فأنزل الله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

وقوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أى: ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ،﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى : أم جميل ، واسمها أروى بنتُ حرب ابن أمية ، وهى أخت أبى سفيان . وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ؛ فلهذا تكون يوم القيامة عَوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم . ولهذا قال : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعنى : تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه ، وهى مُهيَّأة لذلك مستعدة له . ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ قال مجاهد، وعروة : من مَسد النار . وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثورى، والسدى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾: كانت تمشى بالنميمة . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها فى عداوة محمد ، يعنى : فأعقبها الله بها حبلاً فى جيدها من مسد النار . وعن الشعبى قال : المسد : الليف ، وقال مجاهد: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى: طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكْرة مَسَداً ؟

عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مُذَمماً أَبينَا ودينَه قَلَينا وأَمْرَه عَصَينا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى ». وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

---

(١) المسند (٣/ ٤٩٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٦٣) (٤٥٨٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٦/ ٣٩) : « فيه حسين ابن عبد الله بن عبيد الله وهو ضعيف ، ووثقه ابن معين فى رواية » .

[الإسراء:٤٥] . فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، إنى أخبرتُ أن صاحبك هجانى ؟ قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها . قال : وقال الوليد فى حديثه أو غيره : فعثَرَت أم جميل فى مِرْطها وهى تطوف بالبيت، فقالت : تَعس مُذَمَّم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إنى لحصانُ فما أكلَّم ، وثَقَافُ فما أعلَّم ، وكلنا من بنى العم ،وقريش بعد أعلم [1] . ثم قال البزار : لا نعلمه يُروَى بأحسنَ من هذا الإسناد ، عن أبى بكر ، رضى الله عنه .

وقد قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : فى عنقها حبل من نار جهنم تُرفَع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائما .

قال العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً ، لا مسراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

(١) مسند أبى يعلى (٥٣) .

تفسير سورة الإخلاص
وهى مكية

ذكر سبب نزولها وفضلها :

روى الإمام أحمد عن أبىّ بن كعب : أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير (١) . وروى البخارى عن عائشة : أن النبى ﷺ بعث رجلاً على سَرِيَّة ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ، فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « سلوه : لأىّ شىء يصنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبى ﷺ: « أخبروه أن الله تعالى يحبه » وقد رواه مسلم والنسائى(٢) . وروى البخارى عن أبى سعيد ؛ أن رجلاً سمع رَجُلاً يقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ، يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ ، فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن »ورواه أبو داود والنسائى(٣).

وروى البخارى : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ ». فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال: « الله الواحد الصمد ثلث القرآن ».تفرد بإخراجه البخارى(٤). وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشُدوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾. ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ : « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . إنى لأرى هذا خبراً جاء من السماء ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن ». وهكذا رواه مسلم . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب (٥) .

وروى الإمام أحمد عن أبى الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال: « أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ كلّ يوم ثلث القرآن ؟ » قالوا: نعم يا رسول الله ، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز . قال : « فإن الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ ثلث القرآن ». ورواه مسلم والنسائى (٦) . وروى البخارى عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كُل ليلة جمع كفيه، ثم نفث

---

(١) المسند (٥/ ١٣٣) والترمذى (٣٣٦٤) وحسنه الألبانى ، وابن جرير فى التفسير (٣٠/ ٢٢١ ، ٢٢٣) .

(٢)البخارى (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣ / ٢٦٣) والنسائى (٩٩٣) .

(٣) البخارى (٧٣٧٤، ٥٠١٣ ، ٦٦٤٣) وأبو داود (١٤٦١) والنسائى (٩٩٥) .

(٤) البخارى (٥٠١٥) . (٥) الترمذى (٢٩٠٠) ومسلم (٨١٢ / ٢٦١) .

(٦) المسند (٦/ ٤٤٢) ومسلم (٨١١ / ٢٥٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٥٣٧) .

فيهما فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس ﴾. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. وهكذا رواه أهل السنن (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عُزيرَ ابن الله . وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان ـ أنزل الله على رسوله ﷺ :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد ﴾ . يعنى : هو الواحد الأحد ،الذى لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلَق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله ، عز وجل ؛ لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ قال ابن عباس:يعنى الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم. وعنه: هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته. وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شىء، سبحان الله الواحد القهار . وقال أبو وائل : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد الذى قد انتهى سؤدده ، وعن ابن مسعود مثله. وقال زيد بن أسلم : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقى بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : ﴿الصَّمَدُ﴾ : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : ﴿الصَّمَدُ﴾: الذى لم يخرج منه شىء ولا يطعم . وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾، وهو تفسير جيد . وقال ابن مسعود، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بُريدة ، وعكرمة أيضا ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وعطية العوفى، والضحاك ، والسدى: ﴿الصَّمَدُ﴾ : الذى لا جوف له . وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى كتاب السنة له ، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال فى تفسير « الصمد » : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا ، عز وجل ، وهو الذى يُصمَد

---

(١) البخارى (٥٠١٧) وأبو داود (٥٠٥٦) والترمذى (٣٤٠٢) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٢٤) وابن ماجه (٣٨٧٥) .

إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقى بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك أيضا. وقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ أى: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ يعنى : لا صاحبة له . وهذا كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:١٠١] أى : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه . قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٨٨ ـ٩٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٥٨ ، ١٥٩].

وفى صحيح البخارى: « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم »(١) . وروى البخارى عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ قال: « قال الله، عز وجل: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يُعيدَنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »(٢) .

(١) البخارى (٦٠٩٩) .

(٢) البخارى (٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥) .

تفسير سورتى المعوذتين
وهما مدنيتان

روى مسلم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ».ورواه أحمد والترمذى ، والنسائى، وقال الترمذى : حسن صحيح (١).

وروى الإمام مالك عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه،رجاء بركتها . ورواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه (٢) . وتقدم فى آخر سورة : ﴿ ن ﴾ ، من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾

عن جابر قال: الفلق : الصبح .وقال العوفى ، عن ابن عباس :﴿ الْفَلَقِ ﴾ : الصبح . ورُوى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة مثل هذا . قال ابن زيد ، وابن جرير : وهى كقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام:٩٦] . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخارى فى صحيحه (٤) .

وقوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أى : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البنانى ، والحسن البصرى : جهنم وإبليس وذريته مما خلق . ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال مجاهد : غاسقُ الليلُ إذا وقبَ غُروبُ الشمس .وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، وخُصَيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهرى :﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾: الشمس إذا غربت. وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل : إذا ذهب . وقال

---

(١) مسلم (٨١٤/ ٢٦٤) والمسند (٤/ ١٤٤) والترمذى (٢٩٠٢) والنسائى (٩٥٤) .

(٢) مالك فى الموطأ (٢/ ٩٤٢) والبخارى (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢ / ٥١) وأبو داود (٣٩٠٢) والنسائى فى الكبرى (٧٥٤٤ ، ٧٥٤٩، ١٠٨٤٧) وابن ماجه (٣٥٢٩) .

(٣) مضى تخريجه هناك .

(٤) البخارى (٨/ ٧٤١ فتح) .

أبو هريرة : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها .

قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وحمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن أبي سلمة قال: قالت عائشة: أخذ رسول الله ﷺ بيدى، فأرانى القمر حين يطلع، وقال: « تَعوَّذِى بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب » . ورواه الترمذى والنسائى ،وقال الترمذى: حسن صحيح. ولفظه: « تعوذى بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وقب » . ولفظ النسائى: « تعوذى بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب » (١) .

قال أصحاب القول الأول ـ وهو أنه الليل إذا ولج: هذا لا ينافى قولنا ؛ لأن القمر آيةُ الليل ،ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضىء ، إلا فى الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ،والله أعلم.

وقوله :﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ،والحسن، وقتادة والضحاك: يعنى: السواحر ـ قال مجاهد : إذا رقين ونفثن فى العقد. وروى ابن جرير عن ابن طاوس ، عن أبيه قال: ما من شىء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين (٢) . وفى الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : «نعم». فقال :باسم الله أرْقِيك ،من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين ،الله يشفيك (٣).

ولعل هذا كان من شكواه ، عليه السلام ، حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرَة الحسَّاد من اليهود فى رؤوسهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوما من الدهر ، بل كفى الله وشفى وعافى .

وروى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سُحر ، حتى كان يُرَى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ـ قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا ـ فقال : « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيتُه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب .قال : ومن طَبَّه ؟ قال: لَبيد بن أعصم ـ رجل من بنى زُرَيق حَليف ليهُودَ ، كان منافقًا ـ قال : وفيم ؟ قال: فى مُشط ومُشاقة . قال : وأين؟ قال: فى جُفَ طَلْعَة ذكر تحت رعوفة فى بئر ذَرْوَان » . قالت : فأتى البئر حتى استخرجه فقال: « هذه البئر التى أريتها ،وكأن ماءها نُقَاعة الحنَّاء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين » . قال : فاستخرج فقلت : أفلا ؟ أى: تَنَشَّرتَ ؟ فقال: « أمَّا اللهُ فقد شفانى، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً ». وفيه : « قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله » . وعنده : « فأمر بالبئر فدفنت » . وقد رواه مسلم . ورواه

(١) المسند (٦/ ٦١) والترمذى (٣٣٦٦) والنسائى فى الكبرى (١٠١٣٨) .
(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢٢٧) . (٣) مسلم (٢١٨٦ / ٤٠) .

الإمام أحمد عن عائشة قالت : لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يُرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما للآخر : ما باله ؟ قال: مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، وذكر تمام الحديث (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب، عز وجل ؛ الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش، ولا يألوه جهداً فى الخبال . والمعصوم من عَصَم الله، وقد ثبت فى الصحيح أنه : « ما منكم من أحد إلا قد وُكِل به قرينة » . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال: « نعم، إلا أن الله أعاننى عليه ، فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير » (٢) ، وثبت فى الصحيح ، عن أنس فى قصة زيارة صفية للنبى ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا ، فقال رسول الله: « على رسلكما ، إنها صفية بنت حُيى». فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله . فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ،وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً، أو قال: شراً » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى تميمة عن رَديف رسول الله ﷺ قال : عَثَر بالنبى ﷺ حمارهُ ، فقلت: تَعِس الشيطان. فقال النبى ﷺ: « لا تقل: تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان، تعاظم ، وقال : بقوتى صرعته ، وإذا قلت : باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». تفرد به أحمد (٤) . إسناده جيد قوى، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا كان فى المسجد، جاءه الشيطان فأبس به كما يُبَس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه ـ أو: ألجمه ». قال أبو هُرَيرة : وأنتم ترون ذلك، أما

---

(١) البخارى (٥٧٦٦ ، ٥٨٦٣ ، ٦٣٩١) ومسلم (٢١٨٩ / ٤٣) وهو فى المسند (٩٦١٦).
(٢) مسلم (٢٨١٤ / ٦٩) .
(٣) مسلم (٢١٧٤ / ٢٣) ، ورواه البخارى (٢٠٣٥، ٦٢١٩ ، ٧١٧١) عن صفية .
(٤) المسند (٥٩/٥) .

المزنوق فتراه مائلاً ـ كذا ـ لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد (١) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ، قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خَنَس . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . وقال المعتمر ابن سليمان ، عن أبيه : ذُكِرَ لى أن الشيطان ، أو : الوسواس ينفث فى قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس.

وقوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾: هل يختص هذا ببنى آدم ـ كما هو الظاهر أو يعم بنى آدم والجن ؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا فى لفظ الناس تغليبا . وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رجَالٌ منَ الجن) فلا بدع فى إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، ثم بينهم فقال : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ وهذا يقوى القول الثانى. وقيل قوله: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ تفسير للذى يُوسوس فى صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ،كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى أحدث نفسى بالشىء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال: فقال النبى ﷺ : «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » . ورواه أبو داود والنسائى (٢) .

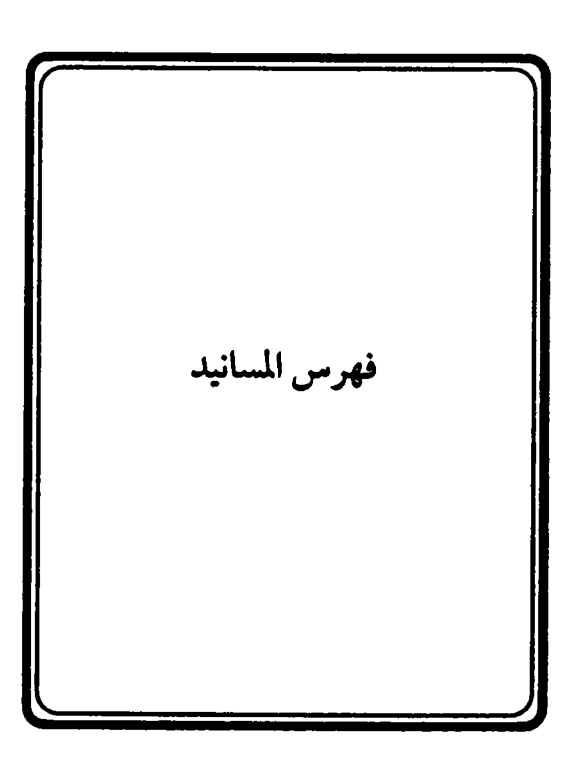
آخر التفسير ولله الحمد والمنة

---

(١) المسند (٨٣٥٢) وقال الهيثمى فى الزوائد (١/ ٢٤٥) : « رجاله رجال الصحيح » ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند (٢٠٩٧) وأبو داود (٥١١٢) والنسائى فى الكبرى (١٠٥٠٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .





فهرس المسانيد

فهرس المسانيد

«أ»

«ب»

«ت»

«ث»

«جـ»

« ش »

« ف »

« ق »

« ن »

« هـ »

الأحاديث التى لم يذكر صحابيها :



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة يس (٣٦)

سورة الصافات (٣٧)

سورة ص (٣٨)

سورة الزمر (٣٩)

سورة غافر (٤٠)

سورة فصلت (٤١)

سورة الشورى (٤٢)

سورة الزخرف (٤٣)

سور الدخان (٤٤)

سورة الجاثية (٤٥)

سورة الأحقاف (٤٦)

سورة القتال (٤٧)

سورة الفتح (٤٨)

سورة الحجرات (٤٩)

سورة ق (٥٠)

سورة الذاريات (٥١)

سورة الطور (٥٢)

سورة النجم (٥٣)

سورة القمر (٥٤)

سورة الرحمن (٥٥)

سورة الواقعة (٥٦)

سورة الحديد (٥٧)

سورة المجادلة (٥٨)

سورة الحشر (٥٩)

سورة الممتحنة (٦٠)

سورة الصف (٦١)

سورة الجمعة (٦٢)

سورة المنافقين (٦٣)

سورة التغابن (٦٤)

سورة الإنسان (٧٦)

سورة المرسلات (٧٧)

سورة النبأ (٧٨)

سورة النازعات (٧٩)

سورة عبس (٨٠)

سورة التكوير (٨١)

سورة الانفطار (٨٢)

سورة المطففين (٨٣)

سورة الضحى (٩٣)

سورة ألم نشرح (٩٤)

سورة التين (٩٥)

سورة اقرأ (٩٦)

سورة القدر (٩٧)

سورة لم يكن (٩٨)

سورة الزلزلة (٩٩)

سورة العاديات (١٠٠)

سورة القارعة (١٠١)

سورة التكاثر (١٠٢)

سورة العصر (١٠٣)

رقم الإيداع :٢٠٠٢/١٥٣٦١م

I.S.B.N:977-15-0386-3